

Princeton University Library



32101 072540485

Hannā, Jūrj

الدكتور جورج حنا

Min al-ihṭilāl...

من الاستقلال الى الاستقلال

رسل

لبنان في اربع قرون



2271
.28
.364

مقدمة الطبعة الاولى

كانت سنة ١٩٤٠ ، وكان لبنان يغطى في ديجور من الظلمة . وكانت الظروف العاشمة تشد بخناق اللبنانيين . وكانت السلطات ، بقصد او بغير قصد ، تساعد الظروف القاسية الظالمة . وكانت الحوادث العالمية ، ونكبات الحرب ، والأعياب السياسية والطمع ، تقسو على لبنان واهله وموارده رزقه . فقال لي صديق جمعني به حلقة من الرفاق « جذا لو كان لي قلم اسطر به حالة لبنان في العشرين سنة التي عقت الحرب العالمية الاولى . ان في ذلك خدمة للتاريخ ، وخدمة للقضية الوطنية ، وعبرة للذين يسيطرون على مقدرات الشعوب ، لا سيما الصغيرة منها . »

استهوتني رغبة حديقي . وكانت ساعات الفراغ في هذه السنة موفورة بسبب جمود الاشغال ، ووقف دولاب العمل . فبدأت بتدوين ذكرياتي . وكتبت الفصول الثلاثة الاولى من هذا الكتاب . واقتلت عليها في صندوق بحكم الاقوال ، خوفاً من تسرب شيء من منصوصها الى الخارج ، وتجنباً لانتقام السلطات التي كانت تمحى على الناس انفسهم ، وتضغط على الافكار والاقوال .

ثم توالى حوادث ١٩٤١ فشهدتها بام عيني . ورأيت من

2871
28
364

الضرورة ان اتابع هذه الذكريات . فكتبت الفصل الرابع والفصل الخامس والفصل السادس . ولكن ابت عليّ القوى الاستعمارية الا ان ازيد علي هذا الكتاب ملحقاً . وذلك عندما قصدت هذه القوى العيث بالاستقلال ، والرجوع بالبلاد الى عهد الرجعية المكروه . وعندما اندلعت ثورة تشرين الثاني ١٩٤٣ ، وصفت هذه الثورة الهائلة التي هبت في لبنان ، والتي اعجب بها العالم في الشرق والغرب ، ورسخت استقلال لبنان بالدم المهرق من ابنائه اشباعاً لجشع المستعمرين .

وقد قصدت من هذا الكتاب وصفاً مجملًا لما وقع في لبنان من الحوادث السياسية والاجتماعية ، ولما مثل في لبنان من الاساليب والمناورات الاستعمارية . ويشهد الله اني لم اقصد من وراء ذلك مجرد التشهير او التنكيل . انما اردت ان يكون الماضي درساً للحاضر وعبرة للمستقبل . فاذا ورد في هذا الكتاب ما من شأنه الاساءة لاحد ، فعذري بذلك حسن القصد . والأعمال بالنيات .

ويحوي هذا الكتاب من الادلة التاريخية ما استطعت ان اتحققه بذاتي طوال ربع قرن مضى . كما انه يحوي من الآراء الاجتماعية والسياسية التي اعتنقتها في مجاهتي حالة البلاد ، وعلاقتها مع الاقطار العربية المجاورة ، وما يوافق مصالحها ، ويخدم غايتها ، ويتناسب مع الانظمة الجديدة التي يتطور اليها العالم الجديد .

ولا شك في ان القراء سيجدون في كتابي هذا من الآراء ما قد لا يتفق مع آراء بعضهم ، فليستأخوها لدى قراءتها . والكاتب ، برأيي ، يجب ان يسطر ما مثله عليه عقيدته ، وليس ما يسترضي به جميع الذين

2
يقرأونه . وليست المتاجرة بالعقيدة مقابل استرضاء الناس من
مبدئي . فليكن اذن قرائي منصفين .

واذا توقفت في هذه الطبعة عند حوادث تشرين الثاني ١٩٤٣ ،
فاني ساتابع في الطبعة الثانية ذكرياتي للحوادث التي عقببت الثورة ،
ولما قد يجري من ذلك التاريخ الى ان تضع الحرب اوزارها ، ويعرف
مصير لبنان ومركزه في عائلة الشعوب المستقلة الحرة .

فالى اللقاء . . .

في ٢٥ ايلول سنة ١٩٤٤

ع . ج

مقدمة الطبعة الثانية

لم تكبد تظهر اول نسخة من الطبعة الاولى، حتى وصلت بمفعول
السحر الى المندوبية الفرنسية ، فقامت القيامة ، واحتج حضرة
المندوب الى الحكومة ، وطلب اليها اتخاذ التدابير بحق المؤلف :
وجبت الحكومة ، ولربما لسياسة عليا ، فنايرت المندوبية ، غير
ان الامن العام الفرنسي، الذي بقي يصول ويجول باسم امن الجيش،
لم يرض بان تترك للسلطات الوطنية مهبة الاجراءات. فآخذ من
صلاحياته وسيلة لارهاب الذين تجرأوا على المس من قدسية الانتداب،
ولاحق الكاتب ، والناشر ، والطابع ، واوقف عمال المطبعة
المتبعة بطبع الكتاب ، وحصلت مشادات ، وصلت احيانا الى حد
العنف بين الفرنسيين والوطنيين ، ثم انتهى الامر الى اقامة دعوى
اجنبية عسكرية على كافة المشتركين بهذه الجريمة العظمى . واي
جريمة افظع من ان ينتقد وطني اعمال الفرنسيين في لبنان ، او ان
يرد التهمة التي اتهم بلاده بها الكتاب الفرنسيون ؟ ولكن شاء ربك
ان كان في المندوبية رجال اذكوا ان تهور عمالهم ، واقدامهم على
اعمال مغايرة ، ربما اديا الى ما لا يرغبون . فكان ان اسدل الستار عن
هذه المأساة موقتا . ثم انتهى الامر عندما تسلمت الحكومة
الصلاحيات التي كانت بيد الفرنسيين ، ومنها الجيش وأمنه . الذي

3
كان اولئك يعملون تحت ستاره . وليس بعلم الكاتب ، ولا بعلم
الذين قرأوا الكتاب ، ان فيه تعرضاً للجيش . ولكن هو قول
الذئب « لقد عجرت علي الماء ... »

وفي هذه الفترة ، وبينما كان الفرنسيون يلاحقون كل من تحدته
نفسه من اصحاب الاقلام ، بان يقول كلمة ، او يكتب سطراً عن
سياستهم ، وبينما كانت الحكومات الوطنية — دائماً لسياسة عليا —
تسايرهم ، كانت المكاتب ملاءى بالكتب ، تارة من وضع كُتّاب
فرنسيين ، وتارة من وضع كُتّاب محليين مأجورين لهم ، كلها تمجيد
للانتداب ولأعماله في لبنان وسوريا ، ولم يخل واحد من تلك الكتب ،
من طعن او لوم او استهتار بهذه البلاد التي « نعمت » مدة ربع قرن
بمحكمهم ، وباستئثارهم بالسلطان عليها واستئثارها .

قد لا نكون ملومين اذا عتبنا على الحكومات الوطنية مسايرتها
او استضعافها ، ولكن ما لنا ولذلك . ولعلّ السلطات ، بعد الآن ،
تقدر ما لحية الرأي والفكر من اهمية في هذا العهد الاستقلالي
الجديد ، فتعلم ان الفاشية قد ماتت ، وان الديمقراطية حقيقة
واقعة ، وان الفكر لا يطبق القيود .

ع . ج

اول كانون الثاني سنة ١٩٤٦

الفصل الاول لبنان في فرسايل

- ١ -

وراء الاسلاك الشائكة

كنا في القنطرة في خريف سنة ١٩١٨ ، بعد ان عقدت هدنة الحرب العالمية الاولى ، وكنا اطباء لبنانيين ساقطهم الدولة العثمانية الى الخدمة العسكرية، بالرغم من ان امتياز لبنان يقضي باعفاء اللبنانيين منها . ولكن حاجة الجيش العثماني الى اطباء وصيادلة وممرضين، قضت ان يستثنى ابناء الجسم الطبي من هذا الامتياز. لذلك سيق قسم منا مع الجيوش المحاربة في مختلف الجبهات . فقتل من قتل، واسر من اسر. وكانت السلطة الانكليزية تحيّر الاسرى منا : اما البقاء ضمن نطاق الاسر، او التطوع للخدمة الطبية في مستشفيات الجيش . ولم يتردد احد منا عن اختيار التطوع، - واكثر من ذلك - كنا نسعى اليه سعياً جدياً . ومن الذي لا يروقه ان يعمل طبيباً في مستشفيات الجيش الانكليزي ؟ فهناك الخلاص من الاسر القاسي، والذل الذي يرافقه . والانكليزي يتعجرف عليك وانت حر طليق ، فكيف به وانت اسير في قبضة يده ؟ وهناك ايضاً الرجوع الى حرفك الشريفة تخدمها ، ولا لذة للطبيب اذا

حرم من ممارسة الطب . وهناك التعويضات والمخصصات التي
 تعطى للأطباء : رتبته قائد مائة (نقيب) ، ومعاشه ثلاثون جنيهاً ،
 فضلاً عن مخصصات تعطى له كما لغيره من ضباط جيش صاحب
 الجلالة . كل هذه عوضاً عن ان تبقى اسيراً محتقراً ، ترتدي لباساً
 خاصاً من اقمشة قاتمة ، تأكل ماتعطي ، محروماً من ان تخطو خطوة
 واحدة خارج المعسكر الضيق الذي وضعت فيه ، تحمل على صدرك
 رقعة من التنك مهر عليها رقمك في الاسر ، بدلا من رقعة لماعة
 متلألئة ، تحمل نجمات ثلاث تحولك الابهة والتكريم . ولا تعدّ خائناً
 اذا خدمت في صفوف الحلفاء الاعداء ، لانك لم تدخل الجيش
 العثماني الا مكرها ، عندما كان قلبك يختلج مع الحلفاء ، وعاطفتك
 تترنح طرباً عندما يخطرون الى النجاح . هكذا كان الطبيب اللبناني ،
 وهكذا كان كل لبناني على الاطلاق ، فلا خيانة اذن في التطوع
 للخدمة في صفوف الحلفاء ، لاسيما وانت مدعو لها في صفوف الاسعاف
 والطبابة .

— ٢ —

اطباء القنطرة

قلت ، كنا في القنطرة اطباء لبنانيين ، نجتمع في مجالس انس
 ومجادلات مختلفة المواضيع ، بعد فراغنا من عملنا ، وكانت احاديثنا في
 ذلك الحين كلها عن لبنان ، ومصيره بعد حرب غلبت فيها الدولة
 العثمانية وتفككت ، واصبح مصير لبنان بيد الحلفاء ، ووضعت قضيته

على طاولة التشريح في مؤتمر فرساييل ، وكان نقاشنا، في كثير من
الاقوات، حاداً ، شديداً ، وطالما حي و طيس الجدل، الى حد كاد
يخشى معه على الصداقة والالفة اللتين مكنتها فينا ظروف شاذة
قاسية، مرت بنا واحتملناها سوياً، من معارك الحرب ، الى وحشة
الغربة، الى مصاعب الاسر. فاللبناني، اينما كان، شديد التمسك بحزبيته،
اذا تناساها يوماً في اثناء محنة تلم به ، او في ظروف تقضي عليه
بالتناسي، فلا يلبث ان يعود اليها لدى اول سانحة يرى فيها شعاعاً
من امل النجاة من محنته . اما حزبيته ، فصارمة قاسية ، ليس للعقل
والحكمة يد في حبكها وصقلها، هي بنت العاطفة، ووليدة الهوس،
وشريكة التعصب . هي حزبية طالما أساءت لى لبنان ، ولم يستفد
منها الا المستعمرون .

وكانت تتساقط علينا الاخبار، وتحمل البنا الجرائد، الكثير من
مقررات الحلفاء في باريس . ونحن نتطلع بشوق الى ما يصيب
لبناننا من تلك المقررات . ولكن يظهر انه كان للحلفاء شغل
يشغلهم عن لبنان، بما يرغبونه من الغنائم من المقهورين، وما يدبرونه
في اوروبا، محور الدائرة في سياسة العالم. وما هو لبنان في نظرهم ؟
بقعة من الارض صغيرة، ينظرون في امرها بعد ان ينتهوا من مهامهم
الكبرى، ويقولون ما كتب لها في كتبهم الموضوعة ، عندما كانوا
يقتسمون الغنائم فيما بينهم قبل ان تشتعل نار الحرب، وقبل
ان اظهرت تركيا عداها لهم . وما هذا المؤتمر القائم اليوم الا
ليختموا باختامه اتفاقاتهم السابقة . اما « ولسن » ومبادئه، وحرية
الشعوب في تقرير مصيرها ، هذه البدعة التي اتاهم بها من اقاصي

5

الغرب ، فهي ليست برسم التصدير الى البلدان الشرقية . ان هنالك مقاطعات نحتاج اليها ، وقد كتبناها في اسفارنا ، انها لنا ، فليست هذه التعاليم التي يطلع علينا بها مبشر المؤتمر اليوم هي التي ستضيعها علينا . اذن لتتخذ من تعاليمه اساساً نسترضيه به ، ولنخلق صيغة توصلنا الى هدف نصبو اليه ، فيرضى عنا ذلك الذي اسدى الينا مساعدات حربية ، كان لها شأنها في احرارنا النصر ، بدون ان تتأثر تلك المعاهدات التي وضعناها سابقاً ، بالرغم من تظاهرها بقبول شرطه القائل : بالغاء كافة المعاهدات السرية السابقة . وها هو « الانتداب » فكرة ترضي المبشر ، ويقبل بها المحكوم ، ويطبقها « المنتدب » لمصلحته . والرئيس لن تخلد له الرئاسة في الولايات المتحدة . والامير كيون لن تهمهم امور الشرق ، حتى ولا امور اوربا ، وطيف « منرو » لم يزل يزورهم ، وروحه ترفرف عليهم . اذن هو « انتداب » ترمقه بعنايتها جمعية من الامم ، يوزع على الدول المنتصرة ، يدبرون بواسطته الشعوب حسب ضمايرهم ونياتهم ومقاصدهم ... اما رقابة جمعية الامم فلا تستحق التفكير . والمنتصرون اليوم هم اصحاب السيادة فيها ، يحلون المربوط ، ويربطون ما يستوجب الحل .

— ٣ —

النعرات الحزبية تستيقظ

ونحن في القنطرة ، شرذمة من الاطباء ، نقتل الفراغ من وقتنا يبحث القضية اللبنانية . كل ينظر اليها بعين رغبته واهوائه ،

ويعنى ان يرى لبنان كما يريد هو ، او كما علمته المدرسة التي تتقف فيها ان يريد . والمدارس في لبنان ، تختلف مبادئها باختلاف جنسية مؤسسيها ، ويختلف نظرها الى لبنان باختلاف الغاية التي من أجلها تأسست ، وفي سبيلها يعمل القائمون عليها . واللبنانيون مبالون الى المعاهد الاجنبية ، لوفرة عددها في لبنان ، وورقي برامجها المختلفة ، ولعدم وجود المدارس الوطنية ، وقلة الاكتراث لها من قبل الحكومة والمراجع الرسمية القابضة على زمام البلاد . ولذلك كانت الارشاليات الاجنبية تملك ناصية التعليم في لبنان ، مقتسمة النفوذ فيما بينها على المتخرجين منها . وكان لكل فئة من الارشاليات غاية ترمي اليها من وراء مدارسها ، وطريقة تتبعها في بث فكرتها ، وبرنامج يختلف عن برنامج سواها في صفوفها . وكانت اثنتان من هذه الارشاليات تتنازعات النفوذ : الافرنسية والاميركية . اذ ان المعاهد الاجنبية الاخرى من انكليزية وايطالية ومانية وروسية كانت اقل شأنًا من الاولتين .

وبينما كانت المدارس الاميركية تنشر الثقافة الحرة ، وتعظ بالمبادئ الوطنية ، وتزرع في عقول طلابها النزعات الاستقلالية . وبينما كانت هذه المعاهد تبشر بالدين القائم على عمل الخير والصالح واستنكار المنكر ، بلا تفريق بين المذاهب المختلفة ، والمعتقدات المتباينة . وبينما كانت هذه تزود الطالب بثقافة الغرب وعلومه ، وتساعد على تطبيقها في بلاده ، لتستقيم بها حالة وطنه ، وتوجب اليه بلده وبيئته ، وتجمع له طموحا للذود عن وطنيته واستقلاله ، كانت معاهد الارشاليات الفرنسية تسعى بجهدا ، وتبذل جهودها ، لتشر مع

العلم بحجة فرنسا ، والاخلاص لها ، والسعي لادخال الروح الفرنسية
 في نواحي الحياة اللبنانية . كان الطالب فيها يدرس تاريخ فرنسا
 واجادها وجغرافيتها وتقاليدها وادب كتابها وشعرائها ، غير عابئ
 بشيء من حالات بلاده ، مهمل لغته ، مزدرياً تاريخ وطنه ، محتقراً
 عادات قومه . اللغة العربية ليست الا فرعاً مهمل في برنامج
 دروسه ، لا بأس من الرسوب فيه وقت الامتحان . ومعرفة شيء
 عن ادب العربية والتعاليم القومية ، ليس فقط امر لا لزوم له ، بل
 هو شيء غير مستحب ، اذ هو لا يوافق الروح التي يزرعونها في
 صدره . ولكن ، الويل له اذا قصر في شيء من دروس الادب والتاريخ
 الفرنسيين ، والتعليم الديني والمذهبي . ان مصيبته لكبيرة ، وخطيئته
 لا تغفر . هكذا كانت المعاهد الاجنبية قبل الحزب العالمية الاولى ،
 احداها تنشر العلوم لتعميم الثقافة ، والاخرى تنشر العلم خدمة
 للاغراض السياسية ، ولبلوغ الغاية الاستعمارية ، التي جعلت من البعثات
 الجزويتية اقوى عوامل الاستعمار ، بالرغم من العداء الذي اظهرته
 للجزويت الحكومات الفرنسية اليسارية . ولكن مملكة الجزويت
 مملكة شديدة البأس ، والشعب الفرنسي بمعظمه من الكاثوليك
 الاقحاح ، والطغمة الجزويتية تعتبر فرنسا ركن الكتلكة . اذن
 على بعثاتها واجب التبشير بالمبادئ الفرنسية والتعليم الفرنسي ،
 وبمجر الشرق ، لا سيما لبنان ، الى حظيرة النفوذ الفرنسي . ولا شك في
 ان جهود هذه المعاهد في لبنان قد اعطت الثمار المرغوب فيها ، فاصطبغت
 الحياة اللبنانية بالروح الفرنسي ، وطغت على لبنان ثقافة الفرنسيين ،
 فأنبت قسماً من اللبنانيين وطنيتهم ، وفاقحت محبتهم لفرنسا ،

واخلاصهم لها، محبتهم واخلاصهم لبلادهم. فصاروا لا يتكلمون الا باللغة الفرنسية، ولا يتشبهون الا بالتقاليد والعادات الفرنسية، يريدون ان يجعلوا بين لبنانهم وبين بقية الاقطار العربية وغيرها، هوة تبعد عنها، ليكون لفرنسا وحدها النفوذ والحقوق عليه. هكذا كان اللبنانيون المتطبعون بطابع المعاهد والبعثات الفرنسية، عندما كان مؤتمر فرساي يبحث قضية لبنان ومصيره بعد الحرب العالمية الاولى. وهكذا كان الاطباء الذين جمعهم صحراء القنطرة، بعضهم يتنون الاستقلال، وبعضهم يرغبون في الاتحاد مع سوريا. والكل يرون وجوب مساعدة دولة اجنبية. وهنا يقع الخلاف، وتبدأ المشاحنات، ففرنسا ام الكتلكة، تناصرها الفئة المنتمية الى الكنيسة الكاثوليكية، من الموارنة والكاثوليك والريان وغيرهم، واقلية من الطوائف الاخرى، وهي التي صقلتها المعاهد الفرنسية والجزوبية طوال السنوات العديدة. وفئة ترى في المساعدة الانكليزية اكبر ضامن لحرية البلاد، ولرغدها واستقلالها. الفئة الاولى، مسيرة بعاطفة توارثتها على مر السنين، والفئة الثانية سلاحها العقل والمنطق، والذي تعرفه وتشاهده في البلدان الواقعة تحت النفوذ الانكليزي، والمقارنة بين الاستعمارين في مختلف نواحي الحياة، ان في الاقتصاد، او في السياسة، او في توزيع العدل بين الناس. هذا عدا عن ان النفوذ الانكليزي مهيم على كافة الاقطار العربية المجاورة. والتجاؤنا الى فرنسا في هذه البقعة الصغيرة، يضرب حولنا حصاراً سيكون خطراً علينا وعلى اقتصادياتنا. ولكن كيف السبيل الى اقناع الذين تدفعهم عاطفة أسستها التقاليد، وشدد اوصالها التعصب،

وعملت في حبكها وتمكينها البعثات والارساليات اللاتينية المختلفة،
 واهمها، على الاطلاق، تلك البعثة القوية بشيكتها ومراسها، الميطرة
 على عقول طلابها ومريديها ومحبيها، بما تملك من السلطة والجبروت
 والانظمة المحكمة ؟ كيف السبيل الى ذلك عندما يقوم احدنا من
 اطباء القنطرة في ساعة من ساعات الجدل ، وقد اعته الحجة
 فالتجأ الى العاطفة فقال : « انا طيب ، ولي اولاد ثلاثة في لبنان ،
 واني افضل ان اعود الى وطني قارى العلم الفرنسي مرفراً عليه ،
 حتى ولو فوجئت بفقد اولادي الثلاثة . » رحمت الله على
 « حفروش » فهو لم يرجع الى لبنان ويستقر به حتى عاجلته المنية ،
 ولعل القدر عاجله كي لا يرى في حياته ما يجعله نادماً على استرخائه
 اولاده واكبادهم . اما لبنان ، فقد كان فيه كثير من « الخنايش »
 المتحمسين المهووسين .

— ٤ —

العودة الى الاوطان

وقفت الحرب ، وانتهت مهمة الجيوش الجاراة ، واخذ اطباء
 القنطرة يعودون الى اوطانهم ، بعد غياب طال امده ، وقست ايامه ،
 وتناوبت فترات من الخطر والشدة والاسر ، وتركوا في مقابر
 الصحراء وفيافيها عدداً من اخوانهم ورفاقهم . اخذوا يعودون
 الى وطن تحقق له صدورهم ، وتشع فيها شعاعات الرجاء والامل ،
 ويرون فيه ، بعد دخول الحلفاء ، موطناً حراً يتسع بالرفاه ، ويعمه

العمران ، ويتزين بالعدل في الاحكام . هذا ما كانوا يعدوننا به من عشرات السنين ، لا بل من مئاتها ، وهذا ما كنا نرقبه كما يرقب الفجر من يتخبط في ديجور الظلام .

وعدت الى لبنان في منتصف شهر نيسان سنة ١٩١٩ . وكانت بيروت تغص بجيوش الحلفاء ، واكثرها من البريطانيين على اختلاف اجناسهم : انكليز ، واوستراليين ، وهنود ، وافريقيين . وكان معها ايضاً شزيمة من الجيش الفرنسي اكثرها من الفرق الاجنبية والمنتوعة ، اعطوها امتياز الدخول الى لبنان ، تلميحاً الى معاهدة « سيكس-بيكو » المعقودة بين انكلترا وفرنسا منذ سنة ١٩١٦ ، والتي ما زال الفرنسيين يطالبون بها والانكليز يعترفون لهم ، ولو عن مضض ، بحقوق المطالبة . وكانت الشؤون العسكرية بيد البريطانيين ، والادارة الملكية بيد الفرنسيين ، ولا شيء بيد الوطنيين . والناس ، الخارجون من كوارث الحرب ، واللاهون عن مقدرات البلاد ، بتطور الحوادث وتوالي المفاجئات ، وبهجرة الاعباد والاحتفالات ، يقولون : لا بأس ، هي حالة موقفة لا شك في انها ستزول عندما يرفعون عن هذه البلاد الاسم الذي اسموها به وهو « بلاد العدو المحتلة » ، مع ان لبنان ، حتى في صميم الحرب ، لم يكن عدواً للحلفاء . هي العاطفة - دائماً العاطفة - التي جعلت اللبنانيين ، يتعشقون المحتلين ، ويحسنون الظن بأولئك الذين اشبعوهم وعوداً وآمالاً واحلاماً ، فصاروا ينظرون اليهم نظرة التقديس ، ويؤمنون باقوالهم ايمانهم بالله وملائكته وانبيائه القديسين .

وهنا تتوالى الاجتماعات التمهيدية ، وتكثر الاحزاب السياسية ، وتبعث الرسل الى الزعماء والمناطق والكتل الدينية والمذهبية ، وتنشط دوائر الاستخبارات في قصر المفوضية ، ويسرف «استيفاني» في البذل والسخاء ، لهذا وذاك من الزعماء والمتزعمين ، وعمال الدعاية ورؤساء الطوائف ، وبعض معاهد التربية والجمعيات والملاجئ والمباني ، اسرافاً ما عهدناه في الفرنسيين . ولكن هي الغاية التي يرمون اليها ، وما قيمة بضعة ملايين من الفرنكات اذا كان من ورائها جرد لبنان وسوريا ، وضهما الى الامبراطورية الشاسعة . فاذا اعطوا اليوم فهم يعرفون كيف يستردون ، في الغد ، اضعاف ما يبذلون ، عندما تصير اليهم السيطرة والسلطان ، يصدرون القوانين ، ويسنون الشرائع ، ويوزعون الضرائب ، ويفرضون القرامات ، ولا يفتقدن احداً من هذه البلاد معدومة الثروة ، فالفرنسيون الذين اشتهروا في الشؤون المالية ، لا يعدمون وسيلة يبتزون بواسطتها ثروة البلاد التي يسيطرون عليها ، ويعصرون جيوب سكانها وابنائها . اذن : كان همهم الوحيد في ذلك الحين ، وهدفهم الاعظم في تلك الفترة ، ان يسمع اقطاب الدول في مؤتمر باريس ، ان لبنان وسوريا راغبان ، بل يطلبان الحكم الفرنسي او الوصاية الفرنسية او الانتداب الفرنسي . لا عبوة بالنسبة ما زلنا نحن المنفذين ، وفي السياسة مداورات ومحاولات لا تخفى على الدهاقنة السياسيين . هكذا كان لسان حالهم في تلك الآونة ، وهذا ما كان يعمل في سبيله ولاجله رجالهم وعملهم في هذه البلاد ، مستندين الى ما لرؤسائهم في باريس من الحجة والسطوة ، ولما يخفيه اولئك في خزائنها من الاتفاقات

والمعاهدات .

وظهر ذكر لبنان وسوريا في باريس، وتعدد المتكلمون باسميها، والباحثون امرها ومصيرها . غير ان الاهتمام بهذين القطرين كان في رواق المؤتمر اكثر كثيراً منه في صلبه . ان اقطاب مؤتمر فرساي لهم من مشاغلهم المهمة ما لا يدع لهم مجالاً لصرف الوقت بمسألة لبنان وسوريا، غير ان باريس، في تلك الآونة، كانت قبلة السياسيين ومحط آمال الامم . فاستقبلت في اثناء عقد المؤتمر، الافاً من الوفود التي امتها، بعضها يطالب، وبعضها يحتاج ، البعض يؤيد ، والبعض يتظلم . والمدينة العظمى تستقبل الجميع ، وتبش للجميع ، وتتعهد الجميع برعايتها وعنايتها ، واهلها ، وتجارها ، وفنادقها ، ومراقصها ، يترنحون من ارباح يجنونها، وثروات تصرف في حدائق لذاتها . هي باريس ، جنة الوجود ، وحديقة العالم بأسره ، وكعبة المتعطشين الى لذات الحياة من الاغنياء والموسرين ، لا سيما بعد فترة من الزهد طالت اربع سنوات، اذ احتل المدفع محل « الجازبند »، وسالت الدماء في القتال، بدلا من سيل الشبان والحجور في النوادي والملاهي . هي باريس اليوم في ايام زهوها، ونضارة حياتها، ومرح العيش في ارجائها .

- ٥ -

الوفود في فرساي

ذهب الامير فيصل الى باريس ليطلب المؤتمر باستقلال سوريا،

معترفاً للبنان باستقلال داخلي وتوسع حدوده . ورافقه
في سفرته هذه « الكولونيل لورنس » ، الملقب بقاتح الصحراء ،
وملك العرب غير المتوّج .

وامّ المدينة العظمى ايضاً رئيس الجامعة الاميركية ، الدكتور
« هوارد بلس » ، وهو مولود لبنان ، وقد عاش فيه وخبر
السوريين واللبنانيين ، ودرس آراءهم ومعتقداتهم وميولهم ، فعرف
الرئيس ولسن بهم ، وبّين له ان اهالي سوريا ولبنان بلغوا درجة
من الرقي تجعلهم مستحقين ان يقرروا مصيرهم بانفسهم ، وجدير
بالحكومة الاميركية ، ان تهتم بقضيتهم ، وتدفع عنهم اي ضيم
يلحقهم ، من جرّاء الاعتبارات السياسية ، والتقليدية ، التي يتذرع
بها ارباب السياسة ، واقطاب المؤتمر ، تنفيذاً لاتفاقات سابقة ،
ومعاهدات وضعت سراً ، تخوّلهم حق السيطرة والاستعمار .

وارسل الى باريس وفد من لبنان برئاسة « داود عمون »
يطلب الوصاية الفرنسية ، ودوّى صوت « بيشون » ، وزير
الخارجية الفرنسية ، قائلاً بلهجة الغضب : « ان لفرنسا حقوقاً
تاريخية وشرعية وادبية في سوريا ولبنان لا تتنازل عنها ابداً . »

وحار الرئيس ولسون في امره ، ولا شك في انه كان مخلصاً
ينظره الى قضيتنا ، وعرف ان ارادة الشعب في سوريا لبنان ، غير
ما يصورونها له في فرسايل ، فالحّ بوجوب استفتاء الاهل ، عملاً
بمبدئه القائل : بحرية الشعوب لتقرير مصيرها ، غير ان اقطاب
السياسة ، الفرنسية والانكليزية ، لم يؤيدوا رأيه ، لاقتناعهم بأن

الشوب الذي يحكي كونه لسوريا ولبنان في فرسانيل ، هو الذي يلائم
 اهل البلاد ، انهم يعرفون الشرق اكثر من معرفة الرئيس ولسون
 له ، وانهم متفقون على مصيره ، فاذا شاء الرئيس ان يتعرف الى
 حقيقة الحال هناك ، فليرسل لجنة خصوصية تستفتي اهل البلاد ،
 ولكن ، لتكن اللجنة من قبل الرئيس فقط ، اذ ان ارسالها ، من
 قبل المؤتمر ، لا يرضي « كلينصو » ، ولا يسع « لويد جورج » ان
 يحتمل غضب النمر وزئيره من اجل سوريا ولبنان ، عندئذ رأى
 الرئيس الاميركي ، الطيب القلب ، ان ينفرد بتحقيقه ، حتى اذا
 كانت نتيجته غير ما يقول المؤتمر ، كان له بذلك قول ورأي ،
 وهكذا ارسل من قبله « لجنة كراين » الاميركية ، وكان ذلك في
 القسم الثاني من سنة ١٩١٩ .

- ٦ -

لجنة كراين

انتعشت آمال الوطنيين عندما وصلت لجنة الاستفتاء ، وحسبوا
 ان لاستفتاءها وتقريرها قيمة سيحلها مؤتمر الصلح محل الاعتبار ،
 وراحت الكتل والاحزاب تبدي آراءها في مصير البلاد ، فطلب
 الموارنة والكاثوليك باكثريتهم انتداب فرنسا ، ولم يشاركهم من
 الطوائف الاخرى ، مسيحية كانت ام محمدية ، الا نفر قليل لا
 يعتد به ، بالرغم من وسائل التشويق والترغيب ، ومن وعود
 اسرفوا بها ، ووعدوا لحواليه ، والسلطة المدنية في ذلك الحين

كانت بيد الفرنسيين ، فاستعملوها لغرضهم وغاياتهم ، وطلب
الارثوذكس ، والبروتستانت ، والطوائف المسيحية التي لا
تنتمي الى البابوية ، استقلال لبنان مرتبطاً باتحاد مع سوريا وانتداب
بريطانيا ، وطالب المسلمون والشيعة بالوحدة السورية ، وبعضهم
بالوحدة العربية ، وانتداب بريطانيا ، ان كان لا بد من انتداب
دولة اجنبية ، وطالب الدروز بانتداب بريطانيا ، فلم يكن لفرنسا ،
والحالة هذه ، غير الموارنة والكاثوليك ، وهؤلاء ، اذا اعترفنا
بكونهم اكثرية في لبنان القديم الصغير ، فهم ليسوا كذلك في
لبنان الجديد الكبير ، بعد ان ضم اليه بيروت وطرابلس والجنوب
والبقاع وعكار ، اما في سوريا ، فلم يكن لفرنسا جزء من مائة
من الاصوات ، ولكن ما للمؤتمر وهذا الاستفتاء ، انهم تفاوضوا
عن ارسال اللجنة ارضاء للرئيس ولسن ، وتخديراً لاعصابه .

والغريب ، انه بينما كانت لجنة الاستفتاء تقوم بعملها في
سوريا ولبنان ، تم الاتفاق بين الحكومتين الانكليزية والفرنسية
على ان تتولى فرنسا الانتداب على البلدين ، واخذت الجيوش
الانكليزية تنسحب تباعاً ، والجيوش الفرنسية تحتل امكنتها ، اما
سلباً ، كما حدث في لبنان ، واما بالقوة ، كما حدث في سوريا ، بعد
ان سالت دماء السوريين والفرنسيين في معركة « ميسلون »
المشهورة : هكذا وضع الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان ،
وهكذا صدق مؤتمر فرسايل معاهدة الحكومتين الانكليزية
والفرنسية المعروفة بمعاهدة « سيكس بيكو » ، واعطوا لهذا
التصديق شكلاً يوافق روح المؤتمر ، اما دروس اللجنة الاميركية

فلم يعرها المؤتمر اقل اهتمام، اذ ان مجلس الامة في واشنطن، كان قد بدأ يعارض سياسة الرئيس ولسون، ويمنع عنه حق التدخل بشؤون لا تهم اميركا، فخرس قسماً من نفوذه في بلاده، وقسماً اكبر من سطوته على المؤتمر.

اما تقرير لجنة « كراين »، فانه موجود بين مهملات المؤتمر، ومحفوظات الحكومة الاميركية في واشنطن، ولا بدّ للتاريخ في يوم من الايام من ان يخرج من مخبئه، ويقدمه دليلاً على استهتار الدول الكبيرة المستعمرة، بالشعوب الصغيرة، خدمة لاغراضها الاستعمارية ومطامعها الاشعوية ..

ولا بأس عليّ ولا حرج، وانا اتكلم عن اللجنة الاميركية، ان اذكر حادثاً وقع امام نظر اللجنة وبصرها، ولا شك في انها اثبتته في تقريرها، فيه الدلالة الكافية على ان ادعاء رجال السياسة من الدول المنتصرة، باعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها، هو ادعاء لا اثر فيه لحسن القصد والنية، ان هو الا كلام هراء.

اخترت اللجنة، لاستفتاء اهالي الشوف واعالي المتن، بلدة « عيناب » مركزاً لها، وهي بلدة تقع في وسط هذه المنطقة، التي يقطنها اكثرية ساحقة من الدروز، والدروز في لبنان، وان كانوا اقل عدداً من الموارنة، يُعتبرون من اقوى اركانه، فتاريخ لبنان، في عهد اماراته وثوراته، من ايام الامير فخر الدين الى ايام الامير بشير الكبير، ينطق بلبنازية الدروز، وباعتكاف هذه القبيلة في جبال لبنان، وباستعدادها للدفاع عن كيانه واستقلاله، حتى ان

الولاية العثمانية كانوا يطلقون عليه اسم « الجبل الدرزي » ، والظالما
استد بأس امراء لبنان ، فانتصروا على قوات الدولة العثمانية ،
ووسعوا حدوده الى الولايات الشامية والسورية ، فهابته السلطنة
العثمانية ، وخطب ودّه الغزاة الذين حاربوا الدولة ، من حملة
قبايون الى حملة ابراهيم باشا ، والدروز ، في تلك الحقبات ، هم
الذين حملوا لواء لبنان ، وسطروا تاريخه بدمائهم ، مهما كان
في ذلك التاريخ من نقائص او معائب .

امّت الجماهير الغفيرة قرية عيناب ، وزحف افرادها من الصرود
ومن السواحل ، ومن المناطق الوسطى ، وهم يزجون « ويجوربون » ،
وهي عادة يحافظ عليها الدروز في مظاهراتهم واجتماعاتهم العامة ،
وكانوا هم الاكثريّة الكبرى في ذلك النهار ، وارادت اللجنة ان
تعرف الى آراء مختلف الطبقات والاحزاب منهم ، وكان هناك
ايضاً جمهور من مسيحي المناطق الشوفية والمنية ، اتوا للدلالة
بآرائهم ورغباتهم .

وكانت الوفود تدخل على اللجنة ، فيتكلم خطباؤها ومثلوها ،
والمجتمعون يؤيدونهم ، واجمعت الوفود الدرزية ، على اختلاف
احزابها ومشاربها ، على طلب الانتداب الانكليزي ، ولم يكن
من طالبي الانتداب الفرنسي ، غير زعيمين اثنين ، يعتقدان ان
في الانتداب الفرنسي ، افضلية مستوحاة من روابط روحية وثقافية
بين لبنان وفرنسا ، غير ان الدروز كافة ، عاندوا فكرة الزعيمين ،
وبالرغم مما يكنه هذا الشعب لزعمائه عموماً ، ولهذين الزعيمين خصوصاً ،

من الاحترام والتقدير ، فقد اظهر خصومته لهما ، ولولا تدخل رجال
الدرك لوقع ما لا يحمد عقباه ، والقوة اللبنانية ، في ذلك
الحين ، كانت تساهم في تأييد الفرنسيين ، عندما كانت السلطة
الادارية بيد اولئك ، يستعملونها لاغراضهم . اما الامير فؤاد ارسلان ،
ذلك الرجل الوطني الصادق ، واللبناني المخلص ، الذي ظن في ذلك
العهد ، ان في تأييده للانتداب الفرنسي ، خدمة وخلاصاً للبنان ،
فانه ما لبث ، عندما تبين حقيقة الامر ، وتواتت النكبات على لبنان ،
ما لبث ذلك الليث الجبار ، ان قام في وجه الاستعمار ، فكان اشد
من حاربه وعانده ، وأقضى مضجع المستعمرين ، وبلبل جبهتهم ،
فجردوا عليه سلطانهم ونفوذهم ، ومنعوه من دخول الندوة النيابية
في انتخابات ١٩٣٠ ، بالرغم من اجماع الشعب على انتخابه ، اذ
رأى اللبنانيون فيه زعيماً لا يرضى للبنان الا استقلالاً لا تشوبه
شائبة ، وعزة وكرامة لا تعكرها زيات المستعمرين ، واغراض
المستعمرين .

ولكن الانتخابات النيابية ، لم تكن في عهد الانتداب ، الا
مهزلة يلهمون بها الشعب ، ومحازي يُقصد منها التظاهر بانهم يهيئون
البلاد للانظمة الحرة الديمقراطية ، فيجذب عملهم الجالسون سعداء في
جمعية الامم ، اما اقتناعاً او تواطؤاً .

أتطلب الاستزادة ايها القارئ ، اليبس ؟ اذن فسندقم لك حادثاً
ثانياً وقع في تلك الاثناء ، يبين لك « تعلق » الدروز بالانتداب
الفرنسي .. !

قام الجزال « غورو » ، المفوض السامي الفرنسي القادم حديثاً

الى لبنان ، بزيارة مناطق الشوف الاعلى ، مصطفى الاميرال « مورنه » ، ولدى وصوله الى منطقة بعقلين ، ذوى الرصاص باتجاه السيارة التي اقلتها ، والتي كان يعرف على مقدمها العلم الفرنسي ، فاصيب الاميرال ، وكثير المهرج والمرج ، وتهيأ المحافظون المرافقون ، ووصلت البرقيات الى بيروت ، ونقل الجريح الى العاصمة ، وقامت الدنيا وقعدت ، وتعددت انشائعات والتخمينات . وفي اليوم التالي اصدرت المفوضية البلاغ الآتي :

« بينما كان المفوض السامي والاميرال «مورنه» ، متوجهين الى الشوف الاعلى ، استقبلتها الجماهير المحتشدة بالحماس على طول الطريق ، وفي اثناء هذه المظاهرات ، التي اطلقت فيها المياعات النارية ابتهاجاً ، اصيب الاميرال مورنه برصاصة طائشة . واسدل الستار .

- ٧ -

مجلس حرب فرنسي يحكم على لبنانيين بالخيانة الوطنية

في تلك الآونة المضطربة ، ووسط البلبلة التي كانت تتخبط فيها البلاد ، كان هناك فكرتان رئيسيتان لحل القضية اللبنانية ، الزكرة الاولى : استقلال لبنان وانفصاله عن سوريا ، والزكرة الثانية : استقلال لبنان واتحاده مع سوريا في الامور الخارجية والاقتصادية .

227
28
36

الفكرة الاولى يقول بها الموارنة والكاثوليك ، بزعماء رجال
الاكبروس ، وتدعمها السلطة الفرنسية ، المسكة بيدها زمام
الادارة والسياسة والدعاية ، والفكرة الثانية تؤيدها اكثرية
البنانيين ، الذين لا ينتمون الى السلطة البابوية ، ويقاومها الفرنسيون
الذين يريدون ان يجعلوا من لبنان ، مقاطعة منفصلة تحت تصرفهم
وسلطانهم ، يستطيعون ان يمدوا منها نفوذهم الى الولايات والمناطق
المجاورة . وقد تمثل هاتان الفكرتان ، في مجلس ادارة لبنان ،
الذي استأنف عمله بعد احتلال قوات الحلفاء ، فانقسم اعضاؤه
الاثناعشر الى جبهتين ، جبهة انفصالية ، تعمل علناً ، بالنظر لرضى
السلطة عنها ، وجبهة استقلالية ، ولكنها غير انفصالية كل الانفصال
عن سوريا ، تعمل بحذر خوفاً من بطش الفرنسيين ، الذين كانوا قد
بدأوا يستغلون قواتهم ، ويسخرونها لتأييد غاياتهم ، ويتمشون على
سياسة الثواب والعقاب في كافة تصرفاتهم ، ولذلك اجتمع اصحاب
الفكرة الثانية ، وكانوا اكثرية المجلس ، ووضعوا القرار التالي :

« لقد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام ، توصلاً لوافق يضمن حقوق
البلايين المتجاورين : لبنان وسوريا ، ومصالحهما ، ودوام حسن
العلاقات بينها في المستقبل ، وبعد البحث في هذا الشأن ، وجد انه
من الممكن الوصول الى ذلك بمقتضى البنود التالية :

١ - استقلال لبنان التام المطلق .

٢ - حياده السياسي ، بحيث لا يجارَب ولا يجارب ، ويكون
بمعزل عن كل تدخل حربي .

٣ - اعادة المساوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سوريا .

٤ - المسائل الاقتصادية يجري دوسها وتقرر بواسطة لجنة من الطرفين ، وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلس نواب لبنان وسوريا .

٥ - يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود وضمانه احكامها .

بعد ان وضعت اكثرية المجلس هذا القرار ، شئت ان تعمل في سبيل الوصول الى غايتها لدى المراجع الدولية الايجابية . فقرر الانضاء السفر الى باريس ، واذا لزم الامر ، الى اميركا لهذا الغرض ، فاعترضتهم عقبتان : الاولى مالية ، والثانية مقاومة السلطة الفرنسية ، التي هالها هذا القرار ، وقد اخذ بمعزل عن رأي رجالها وعملها ، ولم يرد فيه ذكر فرنسا ، اما العقبة الاولى فقد دلت بواسطة احد الزعماء « الامير امين ارسلان » الذي توصل الى ايجاد المال من التاجر المثري « عارف النعماني » على حد قوله ، ومن الامير فيصل ، على حد قول اخصام الفكرة . ولكن من كان المال ، فالقرار هو هو لا يتغير ، والفكرة فكرة لبنانية ترمي الى استقلال لبنان ، غير ان الفرنسيين ، الذين رأوا في القرار ضياعاً لمصالحهم ولاغراضهم ، اتخذوا من تدليل العقبة الاولى على الوجه الذي ذكر ، ومن سفر الوفد سراً عن طريق حيفا لتعذر السفر من بيروت ، حجة لانتقامهم ، فوقفوا اعضاء الوفد ، وهم يجتازون الحدود اللبنانية ، وعادوا بهم مخفورين الى بيروت ، فحاكموهم

امام محكمة فرنسية ، رئيسها واعضاؤها من الضباط الفرنسيين ،
وانهم يرمون بالخيانة العظمى ، ولكنهم عفا عن رؤوسهم ، واكتفوا
بنفيهم الى جزيرة كورسيكا ، حيث لاقوا اشد المتاعب والمصائب
في معيشتهم ، هي عجيبة الاحكام ومستغربات السياسة ، ان
تشكل محكمة اجنبية في قلب البلاد ، وتحاكم بعضاً من الوطنيين ،
وقد قاموا يطالبون باستقلال بلادهم ، وبتوسيع حدودها على حساب
جيرانها ، وذلك بالتشاور والتعاقد مع هؤلاء الجيران ، فتحكم على
اولئك الرجال بتهمة الخيانة العظمى لبلادهم ، وهم يطالبون
باستقلالها ، يريد اولئك الحكام والقضاة ، ان يظهروا اخلاصاً
للبنان اكثر من اخلاص ابنائه ؟ . انا لا احبذ الطريقة التي سلكها
اعضاء الوفد ، وكنت افضل ان يعموا جهاراً ، ويرفعوا أصواتهم
من ندوة المجلس ، لسمعها اقطاب الدول الذين ظنوا بهم - خطأ -
الانصاف ، ولو كنت بينهم لاخترت المجابهة بدلاً من التستر ،
ولكن عملهم في الحفاء ، اعتقاداً منهم انه اجدى وانفع ، بالنظر
لمقاومة السلطة ، حتى ولو استعانوا بمساعدة الغريب ، لا يشكل
خيانة افتروها ضد بلادهم تستوجب التهمة . وهب انها جريمة او
خيانة ، فللسلطات الوطنية حتى المحاكمة والحكم عليهم ، لقد
آخذوهم بالاستعانة بمال استدانوه من غيرهم ، الم يدفع الفرنسيون
انفسهم المال اللازم للوفد الذي ارسلوه الى باريس ، ليطلب الوصاية
الفرنسية والانفصال التام ؟ أيكون الاخ والجار عدواً بغضاً ،
ويكون الغريب صديقاً صدوقاً ؟

لقد حيرتني تلك المتناقضات ، فتوكلتها لادراك القارىء اللبيب

وحكمه .

وهذا وفد لبناني سائر الى باريس ، يطلب المساعدة الفرنسية ، يرأسه البطريرك الماروني ، ادخلوا فيه موظفاً من الموظفين المسلمين ، ودرزياً ماشى السياسة الفرنسية ، فيذهب الوفد على ظهر دارعة فرنسية ، تتكلف السلطة الفرنسية كافة نفقاته ، من السفر ، الى الإقامة في اوروبا ، الى ما يعرف وما لا يعرف من المصاريف ، ثم يعود البطريرك ، فتقله ايضاً دارعة فرنسية الى بيروت ، والمال ، وان كان من الحزينة الفرنسية هذه المرة ، فليس من حرج على الوفد وعلى وطنيته من أخذه ما زال طالباً للوصاية الفرنسية ، هذا هو منطق المحتلين في تلك الايام ، والمنطق يتغير بتغير الظروف والاحكام .

ومع هذا فقد طالب البطريرك باستقلال لبنان ، وردد أمام رئيس الوزارة الفرنسية في ذلك الحين « كليمنصو » قائلاً : « ان الانتداب الفرنسي على لبنان يجب الا يعرقل بصورة ما السيادة اللبنانية ، والاستقلال لبنان ، بكافة اموره الداخلية والمالية والاقتصادية . » وهكذا تم الاتفاق المعروف باتفاق « الحريك - كليمنصو » ، بذكره رسمية من الاول في ٢٥ تشرين اول سنة ١٩١٩ ، ورسالة جوابية مؤيدة نظرية البطريرك من الثاني بتاريخ ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٩ .

وهذا نرى ان الذين طالبوا بالانتداب الفرنسي انفسهم ، اشتروا بصراحة لا تقبل الجدل ، ان هذا الانتداب يبقى انتداباً

كما ارادته جمعية الامم ، وكما عرفته الشرائع الدولية ، وكما وصفه
المشترعون . والانتداب ، في العرف الدولي ، هو عبء على الدولة
المنتدبة ، تتحمله في سبيل البلاد المنتدب عليها ، وهو يتطلب
التضحية من قبل المنتدب مساعدة للمنتدب عليه ، لا يزال هذا
الآخير الى درجة تمكنه من السير لوحده الى مصاف الامم المستقلة
الحرة .

هاك ما قاله في مقدمة كتابه « الانتداب الدولي » السيد « فان
ريس » ، نائب رئيس لجنة الانتدابات الدائمة في جمعية الامم ،
قال : « ان الانتداب يفرض واجبات على المنتدب لا يحق له في
سياق القيام بها ان يتوخى اي ربح او فائدة . »

واسمع ما قاله بوانكاره نفسه في سنة ١٩٢١ ، قال مخاطباً بني
قومه في مجلة العالمين :

« نحن لم نذهب الى بلدان الشرق لنستعمر او لنفرض حماية ،
اننا هناك منتدبون ، واذا كان من يعتقد ان الانتداب هو مجرد
صورة فانه مخطيء ، ان الانتداب من فئة (أ) الذي وضع على
سوريا ولبنان ، يشترط ويستوجب استقلال هذين البلدين ، وما
نحن هناك سوى مستشارين لشعب بلغ من التمدن والرفي ما يحوله
حكم نفسه بنفسه ، هذا ما قلناه للبنانيين والسوريين عندما وصلنا
الى بلادهم ، ولهذا استقبلنا هناك بظاهر الابتهاج والفرح ، وستكون
الحياة عظيمة عند اصدقائنا ، اهل لبنان وسوريا ، اذا تصرفنا هناك
تصرف الفاتحين المستعمرين . »

هذا هو الانتداب في الشرع الدولي ، وهكذا اراده الرئيس
ولسن صاحب الفكرة ، ولكن هل نفذ المنتدبون انتدابهم كما اراده
الذين قالوا به والذين عملوا في سبيله ، عن نية حسنة واخلاص ؟
هذا ما سنجد الجواب عنه في فصولنا الآتية .

استقلال يبطنه انتداب

أودع العام، والدمع السخي على خدي، في فرط آلامي واحزائي
وبعد، استقبل الثاني بلا أملٍ فليس من أملٍ للبائس العاني
قد كان لي وطن ازهو به شرفاً وا حرّ قايي على فقدان اوطائي
قالوا: استقل بنا لبنان، قلت لهم: بالوهم ادر كنتم استقلال لبنان

ابراهيم حنّان

١٩٢٢

الفصل الثاني

استقلال يبطنه انتداب

— ١ —

استقلال يولد ميتاً

الاول

في اليوم ~~الـ~~ من شهر ايلول سنة ١٩٢٠ ، احتشدت الجماهير في ساحة قصر المفوضية ، بينهم البطريرك ، والمفتي ، والشيخ والزعيم ، والموظف ، الى ما هنالك من مختلف الطبقات ، فخطب فيهم الجنرال « غورو » ، المفوض السامي الفرنسي ، واعلن استقلال « لبنان الكبير » ، بعد ان ضمت اليه الاراضي التي سلخت عنه بعد فتنة ١٨٦٠ ، ثم اطلقت المدافع ابتهاجاً بذلك الحدث الجديد ، وفي الحقيقة ، ما كانت تلك الطلقات الاحداداً على ما كان يتمتع به لبنان قبل الحرب ، من الاستقلال الذاتي والداخلي .

كان لبنان ، قبل الحرب ، متصرفية ممتازة ، تعترف بسيادة الدولة العثمانية ، ولم تكن تلك السيادة الاسمية ، فقد تغير وجه الحكم في لبنان بعد فتنة ١٨٦٠ ، من نظام اقطاعي يتولاه الامراء الشهابيون ومتفرعاتهم ، الى نظام مدني وضعت اسسه الدول العظمى

بالاتفاق مع الدولة العثمانية ، فكان يحكمه متصرف من رجال الدولة ، يعينه الباب العالي بإشارة سفراء الدول في الاسطانة ، وهذا الحاكم يتولى الحكم مستنداً الى مجلس منتخب من الشعب ، يدعى « مجلس الادارة الكبير » ، وكان لا يحق للدولة العثمانية ان تتدخل بشؤون لبنان الداخلية ، فكافة مأموريه ، وقضاته ، وجنوده ، والقائمين على ادارة اموره لبنانيون ، كانت ميزانيته تبلغ ستين الف ليرة عثمانية ذهباً ، تجمع من الضرائب الموزعة على اهل ارضيه ، وعلى الدولة العثمانية ان تساعد خزنته لسد اي عجز يقع في الميزانية ، ولهذا كانت الضرائب شيئاً لا يذكر ، وكان هذا الاستقلال مضموناً من الدول السبع : فرنسا ، انكلترا ، روسيا ، المانيا ، النمسا ، ايطاليا ، بالإضافة الى تركيا بموجب بروتوكول عقد على اثر تلك الفتنة ، وقد كان الامن مستتباً ، والمعيشة هادئة ، واللبنانيون منصرفين الى اعمالهم في جبلهم ، او بالاحرى في مقلهم ، يعيشون من نتاج ارضهم القاحلة ، او من الاموال التي يوسلها مهاجروهم الذين جابوا اكثر اقطار الدنيا .

ولا يسع المنصف ان يقول ، ان لبنان كان بالغاً حد الكمال ، اذ ان سلخ الاراضي الحصة عنه ، بعد الفتنة ، كان سبباً لفقره وعدم تقدمه ، غير ان اللبنانيين ، وقد عرفوا بالكند والمغامرة ، لم يتركوا بلداً من بلدان الله ، الا هاجروا اليه ، واستثمروا من خيراته ما ساعدهم على تعبير لبنانهم ، وقد كان مهاجروهم ينعمون بقسط من العلم والاجتهاد ، اوصل نفراً منهم الى مراكز سامية في الديار التي هاجروا اليها ، وسامحوا في مقدراتها وتقدمها ، هكذا

كان لبنان قبل الحرب العالمية الاولى ، بقعة من الارض فقيرة
بثروتها ، غنية بروحها ورجالها ، تحسدها بقية الاقطار من جيرانها ،
حتى ذهب القول مثلاً : « هنئاً لمن له مرقد عزّة في لبنان » .

واليوم ، في العشرين من ايلول سنة ١٩٢٠ ، يعلن الجنرال
اغورو اعادة الاراضي التي سلخت عن لبنان منذ ستين سنة ، و« يعمد »
لبنان الصغير لبنان كبيراً ، ويقول للبنانيين : ان فرنسا ستحافظ
عليكم وعلى استقلالكم ، وتتعهد تدريبكم على حكم انفسكم
بانفسكم ، وستكون هي القيّمة عليكم ، الى ان تبلغوا من
الرشد ما يؤهلكم الى السير لوحدهم في ميدان الحياة الدولية .
وما خفي على بعض المفكرين ، الفرق بين كفالة دولة واحدة ،
وكفالة تقوم بها دول سبع ، ولكن لنحسن الظن ، والاعمال
بالنيات ، لقد سجل لبنان لفرنسا حسنة اولى ، هي ضم الاراضي
المسلوخة ، وهي تشكل قطاعات واسعة خصبة ، وازداد عدد سكانه
من اربعمائة الف نسمة الى ثمانمائة الف نسمة ، لبنان الكبير ،
عاصمته مدينة بيروت ، المنضمة حديثاً ، والتي كانت مركزاً لولاية
عثمانية ، بيروت المدينة التي تعودت على ممر السنين ، ان تكون
تحت رق الحكم العثماني ، والتي ما ذاق اهلها يوماً طعم الاستقلال ،
لا تصلح ان تكون عاصمة دولة مستقلة ، هذا فضلاً عن ان وجود
السلطات الفرنسية ، من مدنية وعسكرية ، وهي حاجبة السيطرة ،
يحرم حكومة البلاد من السيادة وحرية التصرف في مقدراتها .
اذن ، هذا تدبير كان في الواقع خربة اولى على لبنان ، لما للعاصمة
من التأثير الكبير على البلاد ، فقال قائل « أهى بيروت ضمت الى

لبنان لتتعم بمجساته ، أم هو لبنان ضمّ الى بيروت ليفقد ميزاته «
الكلمة للتطورات المقبلة .

— ٢ —

عاصمة موبوءة بالروح الاجنبية

ارتكزت الحكومة اللبنانية في عاصمة لبنان الجديدة ، التي لم تكن ، في بدء ذلك العهد ، من صلب لبنان ، ولم تتعرف في حياتها الى الروح اللبنانية ، بل كانت دائماً مزيجاً بين الفرنجة والوطنية ، بيروت تزرع تحت المؤثرات الخارجية ، بما يوجد فيها من جاليات اجنبية ، ومدارس ومؤسسات فرنجية ، حتى طغت عليها روح لا تلتئم مع الوطنية اللبنانية ، فاكثرت المثقفين من ابناءها ، والارستقراطيين من سكانها ، والمتمولين من تجارها ، يأنفون من العادات اللبنانية ، والتقاليد اللبنانية ، ويتقربون من الاوساط الاجنبية ، في مجتمعاتهم يتفاهمون باللغة الفرنسية ، وكثيرون منهم لاسيا النساء ، يحجمون عن تعلم اللغة العربية ، ويفتخرون بجهلهم اياها ، واكثر من ذلك ، يحتقرون من يتخذها لغة التفاهم والمعاملة ، ولقد قوي فيهم هذا الروح بفضل المدارس الاجنبية الفرنسية ، والسلطات الفرنسية ، التي جعلت من اللغة الفرنسية لغة رسمية ، ومع ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية الاولى ، الا ان اولي الامر الوطنيين ، تحت تأثير هذه السلطات الاجنبية ، جعلوا من اللغة الفرنسية ، لغة الدوائر والدواوين ، حتى اصبحت كافة المعاملات

والمكاتبات لا تجري الا بها ، وصار المستوطنون يتعلمونها ،
ليحصلوا ، بواسطتها ، على مراكز لهم ، ان في دوائر الحكومة ،
او في الشركات والمؤسسات المختلفة ، وهذه طريقة من طرق
الاستعمار ، يريد بها ان يقتل لغة البلاد ، ترصلاً الى قتل الروح
الوطنية والقومية .

وفي بيروت تتجلى عبادة المادة ، ويتميز ابنائها بتطرفهم
بالعبادة . تجارها وملاكوها وارباب الثراء فيها يعملون للكسب
والغنى ، عن أي طريق ، وبأية فرصة تنتهز ، وقد أعطوا البرهان
الصادق على هذا في اثناء الحربين العالميتين ، مما لا يدع مجالاً للشك
ولا للجدل . ومتى طغت عبادة المادة على قوم ضربهم الله بالعمى ،
فلا يفقهون بعد ذلك معنى للوطنية الصحيحة ، ولا للاستقلال /
القومي الصادق .

حاشاي ان ارسل القول على اطلاقه ، فهناك من لا تسري
عليه هذه التهم ، ولكن اولئك هم السواد الاعظم من الطبقة التي
سيطرت روحها على مقدرات البلاد ، وعلى شؤونها الاجتماعية
والسياسية ، عندما حارت بيروت الى التربع في المركز الاول
في لبنان .

في هذا الجو الموبوء بالنفعية والمادية ، وفي هذه المدينة التي
تظني عليها الروح الاجنبية ، والتي تتحكم بمقدراتها المعاهد
والشركات الاجنبية ، وتستأثر بالنفوذ على حياتها الاجتماعية ، وعلى
سلطاتها ، الارشالية الجزويتية ، ولا سيما بعد ان استقر الفرنسيون

في البلاد، في هذه المدينة التي لا تعرف في لبنان الا سوقاً لتجارته،
ومصدراً لثروة ابنائها، والتي لا يروعهما ان يفقد لبنان ما كان
يتمتع به من كرامة وطنية واستقلال ذاتي، لانها لم تكن تشعر
بهما عندما كان لبنان ينعم بهذه الميزات. في هذا الجو الذي لا
يصلح ان يغشى لبنان، وهو في بدء عهد وعد فيه اصحابه المواعيد
العقوبية انه سيكون عهد حرية واستقلال وكرامة. قالوا
للحكومة اللبنانية، وكان رئيسها والمسيطرون على مقدراتها من
الموظفين الفرنسيين، هذه عاصمة ملكك. وأمر القاتل في اذن
كبير الاسرة الجزويتية، هنالك مجال للعمل، وباب فتحناه لك
على مصراعيه بعد ان اغلق بوجهك واويت الى دهاليزك ومخباتك
تعمل فيها سرّاً الى جيل مضى. من ذلك الحين، او بالاحرى من
حين وطئت أقدام الفرنسيين هذا البلد، اخذ النفوذ الجزويتي يزداد
يوماً عن يوم، حتى اصبحت دولتهم لا تقوى عليها اي سلطة، لا
وطنية ولا اجنبية موضعية، وصار رئيس الارشاقية الجزويتية
مرجعاً أعلى في تكييف سياسة البلاد، وفي تعيين حكامها ورؤسائها
وزرائها وصغار مأموريها. وقد مر زمن لم يكن يعين في اثنائه
موظف بسيط لا يكون حائزاً على عطف الجزويت. فغززت بذلك
معاهدهم، وقوي تأثيرهم في حياة البلاد السياسية والاجتماعية
والثقافية، ونهافت الطلاب على مدارسهم، فانتشرت بذلك مبادئهم،
واستطاعوا ان يوسعوا سلطتهم. وباستثناء الفترة القصيرة التي حكم
فيها باسم فرنسا الجنرال « سارايل » مفوضاً سامياً، وقد كان
علانياً مشهوراً بعدائه للطغمة الاكليريكية، لا سيما الجزويتية منها،

قد كان الجزويت اصحاب الكلمة المسموعة، والرأي المقبول في كافة شؤون البلاد. وقد يتسامح العقل في ذلك، لو كانت سياستهم قائمة على الاخلاص للبلاد التي يعملون تحت سماءها، ويتمتعون بنجراتها، غير انهم في الحقيقة كانوا حرباً عليها، وعلى مصالحها الحيوية والوطنية. كانوا اذا تضاربت مصلحة لبنان مع مصلحة اجنبية ساعدوا الثانية على الاولى. واذا تضاربت عناصر البلاد المتفرقة، لوحوا للنصارى، خاصة البابويين منهم، بالمعتقدات الدينية والآيات الانجيلية، يفسرونها لهم حسب رغباتهم ونياتهم. واذا اجتمعت كلمة الوطنيين على امر، بثوا دعاة التفرقة تعمل لتشتيتهم وتثبط همهم. حتى انهم، في اكثر من مرة، استعانوا بسلطانهم المحلي والعالمي ليهدموا نفوذ الاكليروس الوطني. فحاربوا البطريرك الماروني الذي يتمتع بزعامة دينية وزمنية في لبنان، وخلقوا له في الشرق مزاحماً دينياً بشخص بطريرك الطائفة السريانية، التي لا تعد في لبنان اكثر من ثلاثة آلاف نسمة، اذ سعوا الى « رومية » فسامته كردينال من كرادلة الكرسي البابوي، وكان عونهم في عملهم المفوض السامي في ذلك الحين « الكونت ده مارتل »، عدو البطريرك اللدود في قضية احتكار التبغ المشهورة، مما سيحيء الكلام عنه في فصل الاستثمار.

وهكذا تربعت بيروت على عرش السيادة في دولة لبنان الكبير التي تقبضت في الجمهورية اللبنانية، وقد انحصرت السلطة في يديها « المتأجنية »، واحتكرت المراكز العليا، وشكت البلاد مركزية خانقة.

فالأدارات الكبرى فيها ، والشركات الاستثمارية تكبل البلاد
بقيود قاسية ، وتوزع مصائبها على لبنان من مقرها العام في العاصمة .
وقد تعدت هذه المركزية الى كافة دوائر الحكومة من النافعة الى
الادارة العدلية ، والرئاسات الوزارية والتشريعية — عندما كانت
المسيطر الاعلى يميزها للبلاد — كانت في اكثر احيائها وفقاً على
قمة الموالين من ابناءها . والمسيطر بالطبع يفضلهم على المتعنتين من
اللبنانيين ، لسهولة قيادتهم ، وتقربهم الى الميول الغربية والاجنبية ،
ولكون الشفاعات المالية ، والارستوقراطية ، والجزويتية ،
والنسائية ، تطالهم اكثر من اولئك .

ولم يكن يجري في الدولة شيء بدون هذه الشفاعات . اما تأثير
بعضها دون الاخرى ، فمتوقف على شخصية الحاكم الاعلى ، اي
المفوض السامي الفرنسي . فمتى كان هذا كاثوليكياً باراً كانت
النفوذ بيد الجزويت ، وكان ابو الرسالة الاكبر مطمح انظار
المستوطنين والمستوزرين . واذا كان المفوض محباً للمال والثراء
لعب المال الدور الاول في تصريف سياسة البلاد ، وكان الاغنياء
والارستقراطيين وذوي النعمة الكلمة النافذة والرأي المقبول .
واذا حل في قصر الصنوبر رجل يتعشق الحياة الفرحة ، وتبيل فطرته
الى لذات الحياة ومعاشرة النساء ، سيطرت المرأة على مقدرات الدولة ،
واصبحت هي الوسيط الذي لا ترد له شفاعاة او رجاء . وكما تعالين
وزير واتخذت مقررات في مجالس الانس وبين احضان الحسان .
واذا راجع القوم تاريخ سيرة المفوضين السامين الذين تعاقبوا ابان
الانتداب ، لوجدوا النماذج المذكورة متمثلة فيهم اصدق تمثيل ، غير

ان رجلاً واحداً بنظري كان بعيداً عن هذه المؤثرات الخارجية ،
بشخصيته المتحايدة وروحه الطيبة ، هو المسيو « بيو » ، الذي تولى
المفوضية مدة سنة من الزمن او تزيد ، عندما اشتعلت شرارة
الحرب ، وعزل عندما انهارت فرنسا ، واصبح الامر بيد فيشي ،
تأتمر باوامر برلين ، اذ لم يكن لدوائرها امنية في شخص بيو .
وبالرغم من بعض الضعف في مقدرته الادارية ، مما جعل الامر يؤول
الى معاونيه الذين القوا الفساد والاختلال في اعمالهم ، فقد كان
رجلاً تزيهاً اديباً مخلصاً . لم يتحقق عن يده تقع يذكر ، ولكنه لم
يكن من شخصه اي ضرر .

هذه حالة موجزة للبنان في زعامة عاصمته الجديدة ، مركزية
قاسية موجهة ، وروح اجنبية غريبة ، واخلاق حائرة مائعة .
وهكذا خاض لبنان ، بين مطامع الجزويت ومصالح الاجانب ،
وخزائن الاغنياء ، وجنائز الارستقراطيين ، ومغامز الحيات
القاتلات .

- ٣ -

عين عصبة جنيف

وكان هم السلطة الافرنسية الاول ، من حين اعطيت الانتداب ،
ان تحكم البلاد لمصلحتها هي ، اولاً . وكان هما الثاني ان يكون
حكمها هذا متلبساً لباس الديمقراطية بواسطة اهل البلاد ، لكي
تستطيع ان تقدم تقريرها السنوي الى عصبة الامم المشرفة على

الانتدابات بوجه عام ، هذه العصبة التي كانت تجلس سعيدا في « جنيف » وتتألف اكثرية اعضائها من مندوبي الدول المنتصرة في الحرب العالمية والتي وزعت عليها الانتدابات ، وكان من الطبيعي ان تسير هذه الدول بعضها بعضاً ، وتغض الواحدة منها عنها عن اعمال الثانية اذا كانت هذه الاعمال مغايرة لمبدأ العصبة الاساسي القائل : ان الانتداب جعل لمصلحة المنتدب عليه وليس لمصلحة المنتدب . واني استطيع ان اقول بكل راحة ضمير ان هذه العصبة لم تحكم مرة على الدولة المنتدبة ، ولا اذكر اني قرأت مرة انها رأت الحق بجانب الشعب المحكوم بواسطة الانتداب ، عندما يصلها منه شكوى او تقرير ، حتى اصبحت قراراتها في هذا الشأن صورة او « كليشة » لا تتبدل ، اذ تقول مثلاً ، اطلعت لجنة الانتدابات على التقرير المقدم من ... وبعد الدرس لم تر فيه ما يستحق النظر ! ويسدل الستار . ومما يلفت النظر ان كافة الشكاوى يجب ان تقدم الى عصبة الامم بواسطة المفوضية الفرنسية في بيروت . ولا يخفى ما في ذلك من الغبن لصاحب الشكوى ، ولم تنس هذه العصبة الدولية ان تكيل المديح ، وتوجه الشكر الى ممثل الدولة المنتدبة في آخر كل جلسة يدور فيها البحث في تقريره عن سير الانتداب ، كأنها - باركها الله - لم تجلس الا لهذا الغرض ، وقد كان ممثل فرنسا في كل حياة العصبة « الكونت روبير ده كه » . رجل داهية ، وسياسي كبير ، غير ان سياسته كانت متجهة الى خدمة المطامع الاستعمارية والكتل المالية الكبيرة ، ولعل كان له من وراء ذلك فائدة شخصية ، والخبثاء يتهونون بحمل المكاسب الكبيرة

لدى عودته من هذه الديار ، بعد ان قضى ردها من الزمن اميناً
للسر في المفوضية العليا في اول عهد الانتداب . وهو المعروف
بقراراته الشهيرة كقرار البنك السوري ، وقرار السيوع ، وقرار
الديون ، كما سيجيء في فصل آخر . هذه هي قصة عصبة الامم ولجنة
الانتدابات واشرافها على هذه البدعة الاستعمارية في سوريا ولبنان .
فكرة أوجدها المغفور له « ويلسون » لمصلحة الشعوب الصغيرة
بقصد تدرج هذه الشعوب ، على يد الدول الكبيرة ، الى السيادة
والاستقلال ، فسخرها المنتدبون لمصالحهم واغراضهم ، بعد ان
هجرت اميركا العصبة ، واوى الرئيس ولسون الى بلاده ، ثم الى
بيته ، ثم الى قبره ، تاركاً الشعوب المستضعفة تحت مراحم اوروبا
الاستعمارية .

- ٤ -

ديموقراطية زائفة

قرّر قرار السلطة العليا ، وهي بالطبع في ازوقة المفوضية الفرنسية
السامية ، ان يقوم الحكم في البلاد على اساس نيابي ، فشكلت في
بداية عهد الانتداب لجنة ادارية ، وعينت هي اعضاءها من مختلف
الطوائف والمناطق ، وكان للجنة هذه رأي استشاري فقط . ثم
تطورت هذه اللجنة الى مجلس استشاري ، فالى مجلس نيابي منتخب
ومجلس شيوخ معين ، فالى مجلس يجمع بين الاعضاء المنتخبين
والاعضاء المعينين ، وكانت هذه المجالس ذات صلاحية تختلف

باختلاف الزمان والعهد ، فقد كانت هذه الصلاحية منحصرة في الاستشارة اولا ، ثم في رفع التمني فقط ، ثم في اقرار الضرائب والموازنة ، ثم في وضع التشريع في البلاد .

وفي احد الايام ، على عهد ولاية الكونت ده مارتل السعيدة سنة ١٩٣٦ ، وضعت المعاهدة اللبنانية الفرنسية وبموجبها ينتهي الانتداب ، وتدخل البلاد في عهد استقلال على اساس التعاقد مع الدولة الفرنسية ، ومع ان هذه المعاهدة كانت تخول الحكومة الفرنسية حقوقاً هي في الحقيقة اقوى من الحقوق التي يضعها بيدها الانتداب ، لكنها رفضتها بعد ان انتقلت من يسارية الى يمينية ، فلم تعرضها على المجلس النيابي الفرنسي ، وذلك لعدم رضى حكومة باريس عن المعاهدة السورية الفرنسية المختلفة عن المعاهدة اللبنانية الفرنسية باحتفاظ الاولى بحقوق اوسع للسوريين ، وكان يصعب على الحكومة الفرنسية ان تبرم معاهدة مع لبنان ، مهما يكن لها فائدة من ورائها ، وتغض النظر عن معاهدتها مع سوريا .

وكان الحكم النيابي في لبنان بظاهره صورة مصغرة عن الحكم النيابي في فرنسا ، فقانون الانتخاب مستوحى من هناك ، وصلاحية المجلس من حيث مسؤولية الوزارة واعطائها الثقة او سحبها منها ، كما كان الامر في باريس . وقد كانت تترك الشؤون لرغبات المجلس واحزابه في الامور الصغيرة التافهة ، التي لا تهم المنتدين ، ولذلك كانت الوزارات دائماً متقلقة ، والوزراء يسترضون هذا النائب او ذاك ليعطيهم صوته ، وكانت مطالب

النواب بالاكثر لا تتعدى صفائر الامور، كنعين موظف صغير او
ناطور احراج او مختار قرية . اما في المسائل المهمة التي تتعلق
بصلحة من مصالح البلاد ، او بتعيين موظف عالٍ ، او تتعلق
باحدى المصالح الفرنسية ، فهذه امور لا يؤثر فيها نائب ولا مجلس
ولا وزير ، وهي تتوقف على مشيئة « الطور » . والطور هو
المفوضية العليا ، ينزل الوحي على المجلس ، وعلى الحكومة ان
تتقيد بوحيه ، ولا تخالف له امراً ما دام بواسطته وارادته يتم
تأليف الحكومات ، وبواسطته وارادته يعين الاعضاء المعينون ،
وبواسطته وارادته ونفوذه وتدخلاته المشروعة وغير المشروعة
تم الانتخابات .

وفي كثير من الاحايين ، لم يقتصر تدخل « الطور » على الشؤون
الهامة ، والتي يرى فيها مساساً بصلحته ، بل تعدى الى كافة الامور ،
حتى التافه منها ، الى ان وصلت الحال الى تدخل المفوضية ورجالها
بتعيين اصغر الموظفين والحجاب والنواظير ومختير القرى ، اذ كانوا
يتسلحون بالحجة التي لا ترد والحكم المبرم ، اذ يقولون : « هذا ضد
الانتداب ، وهذا مؤيد له ، وهذا يجب فرنسا ، وهذا لا يجبها . »

وفي الواقع كانوا يلجأون الى هذه الحجة للوصول الى اغراضٍ
اكثرها نفعية شخصية ، ولما كان النواب باكثريتهم الساحقة ، من
رجالهم ومن ضائعهم ، كنت تراهم على ابوابهم يغفرون الوجوه
توصلاً لاغراضهم ، وكان اولئك يساعدونهم في نكباتهم الخزية ،
فيأخذون ثمن مساعدتهم هذه سيطرة مطلقة عليهم ، وبقيت هذه

الامور في ازدياد ، بالرغم من ظاهرية الحكم الوطني النبائي ،
واصبح اعمال الانتداب يتدخلون بكل صغيرة وكبيرة ، ولا يجري
أمر بدون رضاهم وموافقتهم . « هكذا يريد الفرنسي » حجة يحتاج
بها كافة الموظفين ، من رئيس الجمهورية الى اصغر كاتب او مأمور ،
حتى ان الفرنسي اصبح المرجع الاخير في كافة الشؤون ، وصار
اصحاب المصالح ، على اختلاف اهميتها وانواعها ، يلجأون اليه
مستعطفين او متذبحين او راشين . حالة بلغت أقصى حدود
الفوضى والارتباك .

— ٥ —

مهزلة الانتخابات في عهد الانتداب

اما قصة الانتخابات للمجالس النيابية ففيها الكثير من المضحكات
المبكمات .

يشترط في الحكومات الديمقراطية ان تكون قائمة على ارادة
الشعب المحكوم ، ولكي يتمكن الشعب من الاشتراك في التشريع
والحكم ينتخب نوابا عنه يجلسون في ندوة نيابية ، ويكونون وكلاء
عن الشعب الذي ارسلهم اليها . اذن ، المجالس النيابية هي مجالس
شعبية ، وهي مراقبة على اعمال الحكومة ، اذ لا تستطيع هذه السلطة
الاجرائية ان تغفل عن مصالح الشعب ، او ان تسأثر بمقدراته دون
ان تقف بوجهها السلطات المستنابة عنه . وبكلمة اخرى ، المجالس
النيابية هي كابوس الحكومات والسلطات الاجرائية . غير ان

الحال في لبنان في عهد الانتداب لم تكن كذلك ، فالدولة المنتدبة تريد ان تقول لجمعية الامم وللعالم الخارجي : « ها انذا اقوم بعهدي ، فادير البلاد التي انتدبت عليها بواسطة اهلها وممثلهم ، فهم المسؤولون عن السيئات ، اما الحسنات فمعظم الفضل فيها عائد الى مساعدتي وتديري . » وكان على السلطة المنتدبة اذ ذاك ان يكون اعضاء هذه المجالس من رجالها وصنائعها ، ولذلك كان اهتمامها بالانتخابات وكان تدخلها امراً لازماً لمصلحتها ، فكانت تجتذب اليها رؤساء الطوائف والزعماء الاقطاعيين واصحاب الاعمال والشركات الكبيرة ، والوسائل لاجتذابهم موفورة لديها ، هذا رئيس طائفة تغريه بالسلطة والسيادة والاكرام ، وهذا زعيم في عشيرته تعده بمقام رفيع او مركز عال في الحكومة ، وهذا مدير شركة او صاحب مصانع ياتمر بامره اعمال عديدون تفتح امامه ابواب الكسب والثراء ، ويمنح الامتيازات الاقتصادية المثمرة . وفوق ذلك كانت ترسل المأمورين يراقبون الانتخاب ويضبطونه ، وكانت تعنى ان يكون اولئك المأمورون من الذين يهيمهم بالدرجة الاولى رضى السلطة عنهم ، فيعملون على انجاح النواب الذين يتأكدون من اخلاصهم وخضوعهم لرجال المفوضية بما لهم من التأثير الخفي . وان لم يفعل هذا الفعل المرغوب استعانوا بالوعود او الاكراه او الوعيد ، واذا فشلت كل هذه الوسائل فلا تحين تجاه الامر ، بل ترمي بقناعها وتفرض ارادتها مهددة بكل المجلس ، اذا كان المنتخب او المنتخبون من اخصامها . وهكذا حدث في انتخابات ١٩٣٠ ، عندما اراد الشعب انتخاب الامير فؤاد ارسلان كما ذكرنا في الفصل السابع . وهكذا في كافة الانتخابات ، كانت السلطة

تسمي الرجال الذين ترغب في انتخابهم ، فتفرضهم بمختلف الوسائل التي ذكرت ، لا فرق فيما اذا كانت هذه الوسائل مشروعة او غير مشروعة ، حتى بلغ الامر حداً معيناً في اثناء انتخابات ١٩٣٨ ، اذ كان الموظف المكلف بقراءة اوراق الاقتراع يقرأ اسم وديع روكز ، واسم مصطفى محمداً ، بدون ان يسمع لرقيب او معترض ، انتخابات زائفة لمجالس زائفة ، كانت تأتي بها السلطة لتحكم بواسطتها البلاد لمصلحتها واغراضها . ولرب قائل يقول : لماذا يكون اللوم على الافرنسيين في هذه المهازل والحمازي ، الا تقع التبعة على الوطنيين انفسهم الذين يرون الهوة يحفرها لهم الغرب فيرقون فيها ؟ ان في القول شيئاً من الحقيقة ، غير اني سابسط الحقيقة كلها كما هي بالصراحة التي توجبها هذه الحقيقة ولو كانت في الجراح ايلام .

— ٦ —

الطائفية القاتلة

علة الشرق من اديانه ، ولا بأس من التوسع فاقول : ان علة البشرية كلها من الاديان ، واذا كانت هذه العلة مستحكمة في الشرق اكثر منها في الغرب ، فلان اشتراكها بالجهل افسح لها ميدان العمل ، فاشتدت وعظمت خطيئتها .
اني اعني حرفياً ما اقول ، لا غموض ولا التباس ، لا اريد ان ابحت حقيقة الدين في هذا الكتاب ، ولا اقصد ان ابشر بالاحاد ، فهذا ليس من شأني ، لكني لا اكتفي بما يكفي به بعض الكتاب

المصلحين الذين يتهبون من ان يقولوا ما يعنون ، هم يؤيدون
او يرضون عن العقائد والتعاليم الدينية ، ويقتنعون بالتبشير والارشاد
بالابتعاد عن العنعنات المذهبية والطائفية ، اما انا فلا استطيع ان
افهم كيف يمكن ان تزول الفكرة الطائفية والتعصب المذهبي ، ما
دام هناك تباين في المعتقدات الدينية الاساسية ، اقرأ سر الايمان
المسيحي للمسلم ، وقل له : « الله والابن والروح القدس اله واحد . »
اجابك : « لا اله الا الله وحده ولا شريك له ، وكفر الذين قالوا ان
الله هو المسيح ابن مريم » واذا اتاك المسيحي بالآية الانجيلية « من
لطمك على خدك الايمن فحول له الاخر ايضاً ، ومن اراد ان
يخلصك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً ، ومن سخرك ميلاً
فاذهب معه اثنين . » اجابك المسلم بآية اكثر انطباقاً على المعقول
والمألوف « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم
واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين . »

وما هذه الاختلافات الا امثلة قليلة من كثير غيرها ، وتجاه
اختلافات اساسية في العقيدة ، لا سيما في شرق لا تزال الروحانية
متملكة فيه ، ولا يزال لرجال الاديان فيه النفوذ على مجموع الشعب ،
ولا تزال قدسية اديرتة وتكياته ومزاراته وواقفه تفوق كل قدسية ،
ولا يزال السواد الاعظم من اهله يفكرون بالخلود ويسمون بالنفس
بعد الموت ، اكثر من اهتمامهم بتهديب النفس وبسلامة الاجساد في
الحياة ، وينصرفون الى البحث عن اللاوجود المجهول بدلاً من
اشتغالهم بالوجود المعلوم ، في شرق هذه حالته النفسانية والفكرية ،

هل يمكن غض النظر عن الطائفية والمذهبية وهناك التباين الكبير في العقيدة الاساسية ؟ « الدين لله والوطن للجميع » جملة بمنقطة طالما تغنى بها الخطباء والكتّاب والمرشدون ، ولكن عندما تبشر المسيحية ببادئها وتعاليمها بغية خلاص البشر عن طريقها ، وعندما يدعي اليهود انهم شعب الله الخاص ، وعندما يدعو الاسلام الى الجهاد باسم الدين « ان الدين عند الله الاسلام » « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » عندما تشبك هذه المعتقدات المتزاخمة ، أبقى الدين لله وحده ليكون الوطن للجميع ؟ لقد اعتاد وعاظنا ومرشدونا ان ينمقوا اقوالهم تحذيراً ، وما كان الحذر يوماً علاجاً سافياً لعلة شديدة مستحكمة .

ولبنان ، هذه البقعة الجميلة الغالية التي كسبها الطبيعة اجمل حللها والتي تغنى بمجملها وبهاثها الشعراء الاقدمون والمعاصرون ، لبنان مرتع الراحة والسكينة ومقر الهناء ، لبنان المشرف من اعالي هضباته على الصحارى والسهول من الورا ، وعلى الحضم الواسع من الامام ، لبنان موطن الجبابة من مغامري فينيقية الى محالفي الرومان والعرب والتورك ، لبنان الذي حمى على بحر التاريخ وهادنه جميع الغزاة والفاحين ، لبنان هذا ، مهما تقرب الى الغرب ، ومهما اراد نفر من ابنائه او مستعمره ان يلبسوه حلة غربية اجنبية ، فهو ابن الشرق ، وخامل لواء النهضة فيه . وهو ، وان اقتبس من الغرب ثقافته وتعاليمه وبعض عاداته وتقاليده ، فقد احتفظ بذهنيته الشرقية فيما يتعلق بالدين والطائفية ، حتى ان

الطوائف المختلفة في لبنان قامت مقام الاحزاب السياسية لفقدان هذه الاحزاب فيه ، على عكس البلدان الراقية الديمقراطية ، ولعل ذكريات العصور السالفة عندما كان المسلمون يرون في الشرق وحدة اسلامية وما المسيحيون واليهود الا من اهل الذمة وعندما كان المسيحيون يرون في نصارى الفرنجة حامياً لهم ولايمانهم ، فيلجأون اليهم ويحالفونهم ضد ملوك العرب وامراء المسلمين ، اقول ان هذه الذكريات ، بالرغم مما يعمل لمحوها تطور الثقافة ومرور الزمن ، لا تزال تترك في عقلية اللبناني بعض الميل للاحتفاظ بطائفيته ، او بالاحرى بحزبيته المذهبية ، ولا يعمل على تغيير هذه العقلية ، ومحو هذا الميل محواً تاماً ، غير علمانية حقيقية واسعة ، ليس في المدارس فحسب ، بل في كافة نواحي الحياة الاجتماعية منها والسياسية والثقافية ، ومن الآن الى ان تتطور البلاد الى هذه العلمانية ، تبقى الطائفية نقطة الضعف الكبرى والعقبة الكوؤود في سبيل وحدة البلاد وكيانها السياسي ، وتبقى هذه العلة تنخر في جسم الامة اللبنانية ، فيستغلها ذوو المطامع الاستعمارية من الاجانب .

وقد كانت هذه التفرقة سبباً لتمكين سيطرة الفرنسيين على البلاد التي لم يبق فيها بعد تربية وطنية سياسية ، وبدلاً من ان يدرّبوا لبنان في هذا الطريق ، كما يوجب عليهم مبدأ جمعية الامم والانتداب ، كانوا يعملون جهدهم لتغذية هذه العلة ، فيزيدون في استحكامها ، اذا وجدوا مزاحمة شديدة بين رؤساء الطوائف المختلفة

حتى وصل اولئك الى درجة من التنافر والتباعد يصعب معها اي اتحاد وطني ، فكان ذلك مساعداً لهم ، وطريقاً للوصول الى اغراضهم ، ولم تكن هذه المقاصد لتخفى على العقلاء من الوطنيين غير ان الوسائل المختلفة التي كان يستعملها المستعمرون وصنائعهم ، لا سيما الاجانب منهم ، والتأثيرات القوية التي كانت لمعاهدهم وجالياتهم ، والنفوذ الذي كان يتمتع به اولئك المتنفذون ، فيبهرون به عيون الشعب ليتحول اليهم ، كل هذه الوسائل ، خفية كانت ام جهارية ، كان لها التأثير الكبير في السواد الاعظم من الشعب ، فيقبلون سلطاتهم وسيطرتهم عليه ، بالرغم مما تسببه هذه السيطرة من مضر ، وامتعاض .

- ٧ -

المعارف المضللة

وفيا نتكلم عن الطائفية واثرها في الحياة اللبنانية ، والسياسة اللبنانية ، يتبين لنا عامل ثان من العوامل التي كانت وبالا على لبنان ، اعني به ذلك العامل الذي يشكل في كافة بلدان الله ، اساس تقدم البلاد وعمرانها ، هو معاهد التعليم ، لا ادري بالحقيقة اي العاملين كان اكثر ضرراً ، الطائفية ام المعاهد العلمية ، ولكنهما مشبككان ، يتنازعان الاسبقية ، فلنتفاهم .

ان معاهد العلم هي دعائم الثقافة ، ولا تعمر بلاد او ترقى امة ما لم تكثر فيها معاهد التعليم ، ولكن العلم يبقى مقصراً اذا لم

يتحول الى ثقافة عامة ، والامم لا ينفعها انتشار العلوم بين ابنائها ،
وازدهار مدارسها ببرامج دروسها ، اذا لم تتحول هذه الدروس
والبرامج الى ثقافة قومية تمهد السبيل لتربية وطنية ، يقوم على
اسسها تدرج هذه الامة الى مصاف الامم الحية .

والحياة العلمية في لبنان قائمة على انواع ثلاثة من المدارس ،
المدارس الاجنبية وهي اكثرها رقياً ونفوذاً ، والمدارس الوطنية
والقسم الاكبر منها تقوم به السلطات الدينية والطائفية المتعددة .
والمدارس الرسمية وهي التي تتعهدا الحكومة ، وتتفق عليها من
ميزانيتها وتعرف بمدارس المعارف ، وهي تأتي ثالثة في الاهمية ،
وفي تأثيرها في الحياة اللبنانية . اما المدارس الاجنبية ، فلم تكن
لتقل رقياً عن مثيلاتها في ارقى البلدان الغربية ، من حيث برامجها
التعليمية في مختلف اقسامها ، كالطب ، والهندسة ، والحقوق ،
والفلسفة ، والآداب . غير انه كان يعكر هذا التقدم روح تنفثها
بعض المدارس ، ففسد الاصلاح الذي تقوم به ، وتخط من قدر
الثقافة التي تخدمها معاهد العلم . واذا اعطينا لكل ذي حق حقه ،
فلا بد من ان نقر ان المدارس الاميركية كانت تعني بالثقافة
العلمية محافظة بالوقت نفسه ، على معالم الروح الوطنية ، معززة
للبادئ القومية في طلابها ، اذ لم يكن لها اية غاية استعمارية او
سياسية ، بالرغم من ان الذين انشؤوها في الاصل كانوا من رجال
البعثات التبشيرية . ففي هذه المدارس كانت تدرس لغة البلاد
وجغرافيتها وتاريخها وحياة اقاليمها ، وكانت جميعاتها تهتم بكافة

معالم الحياة القومية، جادة في تهمة وسائل التقدم الادبي والاقتصادي والسياسي، ان غايتها من عملها كانت ثقافية محضة، ولم تتمش المدارس الفرنسية على هذا النمط. فالارسلالات المختلفة التي كانت تتعهدا كان لها عدا عن الغاية الثقافية غاية تفوقها اهمية. هي غاية سياسية استعمارية. وكانت الارسلالات الجزويتية زعيمة هذه الارسلالات، وسلطتها تفوق كل سلطة. ففي مدارسها اهمال فاضح للغة البلاد، حتى ان التلميذ كان يتخرج منها وهو لا يعرف من لغته ما يعرفه ابناء الصفوف الابتدائية. وبينما كان هذا يجيد تاريخ فرنسا، ويحسن معرفة جغرافيتها واقاليها، ويتغنى باقوال ادبائها ومنظومات شعرائها، كان يتجاهل ادب قومه وروائع كتابه وشعرائه. كان ينكر على بلاده بعضاً قومياً صادقاً ليدخل لبنان في بوتقة اجنية غريبة، فيخدم بذلك غايات بنيت على اسسها مدارس تتلمذ فيها وكانت دعاية لسلطات تقوم على حكمه واستعمارها. والغريب، ان هذه المعاهد كانت تتعم بامتيازات بشي، جادت بها علينا السلطات الحكومية والانتدائية، لا تتقيد بقيود ولا تعترف الى اي قانون تصدره الحكومة، ولا تخضع لرقابة وزارة المعارف، حتى انه في زمن من الازمان، لم تقبل زيارة وزير معارف الدولة، اذ رأت فيه رجلاً لا ينتمي الى مبدئها، ولا يتعذب بمذاهبها. كانت كلمتها الكلمة المسموعة ورأيها الرأي المقبول، الرئيسها وهو من رجال الدين حقة المستشار الاول في البلاد، لا يسن قانون، ولا يعين حاكم او وزير او موظف، الا برضاه، وطالما كان ذلك سبباً لنكابات حزبية

وطائفية ، اضرّت بالبلاد وخدمت المتدينين .

واذا كانت المدارس الوطنية دون المدارس الاجنبية رقبياً من حيث برامجها ، واذا قصرت هذه عن فتح فروع العلوم العالية ، اما لاسباب مادية ، او لاسباب تعود للامتيازات الاجنبية في هذه البلاد ، غير ان هذه المعاهد المجهت الشعلة الوطنية في المجتمع اللبناني ، ووقفت سداً في وجه التيار الصادر من بعض نوادي العلم ، ولا سيما البعثات الجزويتية واخواتها ، والحقيقة يجب ان يقال ، وهي : انه لولا طائفية اصطبغت فيها بعض معاهد العلم الوطنية ، لكان لهذه المؤسسات اثر أشد واقوى في الكيان اللبناني ، هذه الطائفية التي بما دخلت ناحية من نواحي الحياة الا افسدتها .

أما المدارس الرسمية ، او مدارس المعارف فتأتي اخيرة في اهميتها وفي تأثيرها في الكيان اللبناني ، فمنذ وطئت اقدام الفرنسيين هذا البلد ، ارتكز تفوذهم على مدارسهم المتعددة في لبنان ، وكانت سياستهم ترمي الى الخط من قدر غيرها من المعاهد . واذا كانت بعض المدارس الوطنية قطعت شوطاً في حقل الثقافة والتعليم ، فذلك ناشئ عن جهود افراد او هيئات وطنية خاصة ، لا اثر بذلك لمساعدة اصحاب السلطان ، من فرنسيين او من وطنيين تابعين .

أما المدارس الرسمية ، التي تتعدها الحكومة وتنفق عليها من ميزانيتها ، فهذه يدبرونها كما يريدون ، وكما تقتضي سياستهم ، وهذه السياسة تقتضي ان لا تعلق هذه المعاهد عن حد معلوم من

الدرجة الابتدائية ، وحتى في هذه الدرجة ، لا لزوم لاتباع نظام
تربوي خليق بهذا الاسم . وقد كانت هذه المدارس ، خصوصاً في
السنين الاولى من الانتداب ، كناية عن مؤسسات استوائية ،
الغاية منها ارضاء هذا الزعيم ، او تلك الناحية ، او ايجاد وسيلة
لتوظيف نفر من المحاسبين ، دون نظر البتة الى الفائدة التعليمية
والتثقيفية ، حتى انه في زمن ، وفي فترات متعددة ، كان هنالك
معلمون رسميون على درجة فاضحة من الامية ، وكان ايضاً عدد
من المحاسبين يعينون لوظيفة التعليم ، ولا يأتون لمراكرهم مطلقاً
الا مرة في الشهر ، وذلك ليقبضوا مرتباتهم الشهرية ، كل ذلك
كان يجري استهتاراً مقصوداً بالتعليم الرسمي ، الذي كان يجب
ان يقوم عليه بنيان البلاد ، وكيانها القومي . غير ان الحال
تحسنت في النصف الثاني من عهد الانتداب ، ويرجع الفضل في هذا
التحسين لبعض الرجال الذين تولوا ادارة المعارف ووزارتها ، عندما
كان لبنان يمارس بعض حقوق استقلالية ، فعملوا ، بقدر ما
تسمح لهم الصلاحيات المعطاة لهم ، على تعزيز التعليم في المدارس
الرسمية ، فأقر « جبران تويني » ، عندما كان وزيراً للمعارف
سنة ١٩٣١ ، البكالوريا اللبنانية ، وخضتها الحكومة ببعض
امتيازات فيما يتعلق بالتوظيف ، لكنها لم تجسر ان تستعيض بها
عن البكالوريا الفرنسية ، التي بقي لها النصيب الاول ، واحتفظت
من الامتيازات بحصة الاسد .

اما البكالوريا اللبنانية ، فقد اوجدوها درجة علمية للامتحان

فقط ، اذ ان المدارس الرسمية لم يكن فيها صفوف ثانوية ، تؤهل الطالب للتقدم لامتحان البكالوريا ، وكان الذين يتقدمون للامتحان فيها هم من المدارس غير الرسمية ، اي من المدارس الوطنية ، والمدارس الاجنبية الاميركية ، اما طلاب المدارس اليسوعية والفرنسية ، فيختارون البكالوريا الفرنسية ، وهي ، بفضل الانتداب ، رسمية ومفضلة على اختها اللبنانية ، ذلك اقرب الى ارضاء رؤسائهم واساتذتهم الآباء المحترمين ، ولا يخفى ما كان لاولئك من السلطة والنفوذ ، وفضلاً عن ذلك ، لم يكن عليهم ان يجتازوا امتحاناً صارماً في اللغة العربية وبعض الفروع المحلية القومية ، وهذه فروع لم يتقنوها في اثناء دراستهم لعدم اتفاقها مع غاية البعثات التي تنتمي اليها تلك المدارس .

قلت ان المدارس الرسمية تحسنت حالها في القسم الثاني من عهد الانتداب ، بفضل بعض الرجال الذين قاموا على ادارتها ، غير ان فائدتها بقيت منحصرة في المناطق التي كانت فيها ، فالحكومة لم تعمم فتح مدارسها في كل البلاد ، بل اقتصرت على بيروت وطرابلس وصيدا وجبل عامل وبعبك ، وبكلمة اخرى فقد اقتصرت على المناطق التي ضمت الى لبنان سنة ١٩٢٠ . وهذه المناطق اكثرية سكانها من المسلمين والشيعيين . اما لبنان القديم فكان فيه كثير من المدارس الخصوصية ، التي يديرها اما ارساليات تبشيرية ، او شخصيات وطنية ، او مراجع دينية وطلقات اكليريكية مختلفة ، وقد رأت الحكومة ، او بالحري دار الانتداب ان تنشط هذه المدارس المختلفة المشارب بأعطائها مساعدات مالية

سنوية ، ثم رأت ، بتأقّب نظرها ، ان تكون هذه المساعدات لرؤساء الطوائف ، وهؤلاء يصرفونها على مدارسهم ، هو سلاح جديد بيد رجال الدين ، يستعملونه خدمة لغاياتهم ، والسلطة ، بنفس الوقت ، تشتري بذلك اخلاصهم ومساعدتهم لها لتحقيق اغراضها . ان لرجال الدين في لبنان سلطة على الشعب ، فلماذا لا تتقرب السلطات اليهم ، وتحوز رضاهم وخدماتهم ، ولماذا لا تكون اموال المعارف سبيلاً لهذه الغاية ، والذي يعجب لهذه البلبلة يزول عجه عندما يعلم ان السلطة صاحبة الشأن الاول بكلمة يتعلق بالمعارف ، هي في المفوضية العليا . وفي هذا كفاية لقوم عاشوا في لبنان ، عندما كان لبنان ينعم في نعيم الانتداب .

- ٨ -

لا صحة في بلاد الصحة

ولا اريد ان اهلّ التحدث عن شؤون الصحة والاسعاف العام في عهد الانتداب ، وهي لا تبيض وجوه السلطات .

حكم الانتداب لبنان ثلاثاً وعشرين سنة ، كانت سلطته السلطة العليا ، وحكمه الحكم المبرم ، ورأيه الرأي المقبول والمسموع ، لا يتم امر ، ولا تسن شريعة ، الا بارادته وموافقته ، فلا غرو ، والحالة هذه ، ان نجعله مسؤولاً عن اي تقصير او اية سيئة ، كما اننا لا نذكر عليه اية حسنة اصابت البلاد عن يده .

لقد خص لبنان بميزات طبيعية تحسده عليها بقاع الارض

قاطبة . فمناخه الصحي ، ومناظره الخلابة ، ومياهه العذبة ، وجوّه الصافي ، وهواؤه العليل ، ولباليه المقمرة ، وشمسها البانعة ، كل هذه جعلت منه مصحاً للمرضى الناقهين ، ومصيفاً لطالبي الراحة والمصطافين ، كما انها جعلت من جباله المكلفة بالثلوج في فصل الشتاء ملجأ لهواة الترحلق ، وقد سمي لبنان : « سويسرا الشرق » ، ولقد كان يفوق سويسرا ، لو تضافت فيه قوى الانسان وجهوده مع قوى الطبيعة ، ولكن !... مسكين لبنان ! فهو لم يوفق الى حكومة تعمل لحيره . فكان حكامه في كل الادوار يستثمرون خيرات الطبيعة ، دون ان يبذلوا جهوداً تساعد على تحسينها ، وزيادة رونقها . فبدلاً من ان يهتموا ليجعلوا من لبنان جنة يرتادها السياح وطلاب الصحة من كافة الاقطار الشرقية ، فيسهلوا سبل الحياة في بقاعه ، ويعنوا العناية الكاملة ليجعلوه منيعاً ضد كافة الآفات المرضية والوبائية ، كانوا يتكلمون على مناعته الطبيعية ، يستثمرونها ولا يحافظون عليها من شر هذه الآفات ، ففي مدنه ومصايفه كانت جيوش البعوض تقصد على سكانه وزواره راحتهم وهناءهم ، وفي شوارعها واحياها اهمال فاضح بشؤونها الصحية من حيث النظافة والتنظيم العام ، اللهم الا من بعض اصلاحات يقوم بها افراد على حسابهم ونفقتهم . كل ما يستطيع المرء ان يشكر السلطات عليه ، هو تحسين الطرقات العامة ، وابتعاد شبكة منها لا بأس بها في مناطق الاصطيف الكبرى ، اما الامور الصحية ، فقد اهملت اجمالاً قاضياً ، ان بتوزيع مياه الشرب والخدمة ، او بتصريف الاوساخ الى مجاري فنية ، او بتجفيف المستنقعات ، وغير ذلك

من الامور التي تهتم لها الحكومات الحية في بلد رأسماله طبيعة جباله وسهوله ووديانه ، وتجارة قائمة باكثرها على استثمار ما منحة اياه الطبيعة ، ومع ذلك لم تكن تخلو حكومة من حكومات لبنان ، التي تعاقبت في عهد الانتداب ، من وزارة للصحة ، يقوم على رأسها وزير ، ويديرها مدير ، ويكون فيها الموظفون العديدون ، ويكثر فيها المستشارون الفرنسيون ، فريضة الانتداب الاولى ، غير ان هذه الوزارة ، بوزرائها ومديرها ومستشاريها وموظفيها ، لم تقم الا بنسبة ضئيلة جداً مما يتوجب عليها . فكانت ، ككل الوزارات والادارات في سياستها وفي اعمالها ، وظائف تخلق ليستفيد منها اصحابها ، وانظمة تسن ولا يهتم بتنفيذها ، ومسؤولية ضائعة في داخل مكاتبها ودوائرها ، ولبنان يتألم ولا يجد من يرثي لحاله . واذا وجد ، اجتمعت عليه قوى الشر والنفع والمحبوسية ، لتقطع عليه طريق العمل .

وفي عصر التقدم السريع ، وفي عهد النهضة العلمية الواسعة ، تبقى دولة لبنان ، او الجمهورية اللبنانية ، بدون مستشفى رسمي حكومي يعالج فيه المرضى ، ويلجأ اليه الذين لا تمكنهم حالتهم ومواردهم من ارتداد المستشفيات الخاصة . ان لبنان بقي كل هذه المدة يحرم ابناءه الفقراء من العناية بهم . ولولا وجود مستشفى حكومي واحد في العاصمة للامراض السارية والهمومات ، وآخر لا يعتد به في طرابلس ، لكان فقدان المستشفيات فيه بدعة من بدع الدول ، ولكن الحكومة في الوقت نفسه كانت تخصص في ميزانيتها قيمة قليلة لمعالجة المرضى الفقراء : تدفعها لبعض

المستشفيات غير الحكومية وكانت تستأثر بهذه النعمة المستشفيات
 التابعة للبعثة الجزويتية او للبعثات الدينية غيرها . ولكن المريض
 الذي سيستفيد من هذا الانعام ، عليه ان يلجأ الى بيروت العاصمة ،
 ويراجع اصحاب الصلاحيات فيها ، وكثيراً ما يلزمه في هذه
 الظروف وساطات وشفاعات من اصحاب النفوذ والمحاسب . ان
 هذه المنحآت المالية التي كانت ادارة الصحة تقررها في ميزانيتها
 كانت بالدرجة الاولى لمنفعة ومساعدة المؤسسات التي تعطاها ، ولهذا
 حصرت بالمؤسسات اليسوعية كمستشفى « اوتيسل ديو » و « دار
 الولادة الفرنسية » و « مستشفى السل » التابع للراهبات العازاريات
 و « مستشفى المجانين » التابع ايضاً لبعثة دينية . ولا اريد ان
 اتحدث عن اهمال مرضى الحكومة في هذه المستشفيات ، وخصوصاً
 في الاول منها اذ بذلك اثاره لشعور القاريء ، انما يجب ان يعطى
 صاحب الحق حقه فيستثنى من هذا الاهمال « مصح مجنس » للسل
 اما عدم استخفافه بمرضى الحكومة فراجع لكون القائمين على
 ادارته الطبية ، كلهم من الاطباء الوطنيين المخلصين لمرضاهم ولبلادهم .
 فليتصور القاريء دولة فيها حكومة ، وفيها وزارات ، وفيها
 مجالس نيابية ، وليس فيها مستشفى . وليتخيل مقاطعات واسعة
 ومناطق بعيدة محرومة من طبيب رسمي يتعهد الامور الصحية ، اذ
 لم يكن في المناطق اطباء رسميون للعناية بهذه الشؤون . واذا
 تعين طبيب في محافظة او قنصلية فيكون تعيينه شرفياً او بتعويض
 لا يتجاوز عشر ليرات لبنانية في الشهر . فيقبل هذا المركز طمعاً
 باللقب ، او لما قد يجني من ورائه من ارباح تدرها عليه تقارير طبية

شرعية . اما الاهتمام بالمنظمات الصحية ، وبالوقاية من الاوبئة ،
وتطهير مياه الشرب ، وتصريف اوساخ القرى فهذه امور ،
الطبيعة وحدها مكلفة بالاهتمام بها .

دعني اعود اليك ايها القاريء . فاريدك العجائب في لبنان .

اذا مرض احد الفقراء او اذا تعسرت ولادة حامل في احدى
المقاطعات النائية عن العاصمة ، فيتكفل بذلك المصاب ، القدر وحده
فاذا كان هذا ظالماً اسلمه الى القبر ، واذا شاءت العناية انقذته
من الموت ، اما اذا اراد المريض ان يلجأ الى حكومته وولية
امره ، فعليه ان يحمل مرضه ويأتي الى بيروت ثم يطرق باب
وزارة الصحة ، مزوداً باوراق الهوية ، وشهادة طبيب ، ومتسلحاً
بمساعدة احد اصحاب الشفاعات ، فتتظر هذه الوزارة بامره ،
وترسله الى احد المستشفيات التي سبق ذكرها ، ولا يخفى ما
تستغرقه هذه المعاملات من الوقت والتأجيل ، والتسويق ، من
مميزات الادارة في لبنان ، حتى اذا ادخل المستشفى رأى من
المعاملة ما يجعله نادماً على تحمله مشاق السفر من قريته البعيدة ،
وفضل الرجوع الى اهله يتعهدونه بجنائهم ويقومون بخدمته ،
والقدر يقوم مقام الطبيب ، اما الحامل المحتاجة لاسعاف ، فلا
مجال للبحث بامر نقلها ، والولادة لا تسمح بانتظار المعاملات
والمراجعات الرسمية . وانظمة الدولة السعيدة تتنازل عنها ضناً
بالقوانين المرعية ومحافظة على التعليمات المعطاة ، ويشقى الاهلون
في لبنان ، وخصوصاً القديم منه ويحرم ابناؤه من عطف اولئك

الذين تولوا مقدراته ، ولا ينجحون من جباية ضرائب الجائرة من سكانه ، جاهلين ان الضرائب تجيبها الحكومات مقابل المنافع التي يتمتع بها الناس ، لقد اوجدت فلسطين ، جارة لبنان ، منظمات صحية واسعة ، وفتحت مستشفيات متعددة يؤمها المرضى . وطهرت مدنها واقاليتها من البعوض الفتاك ، وقام في مصر شبكة واسعة من الادارات الصحية ، تحارب الاوبئة بالرغم من جبل الفلاح المصري وتسليمه الامور للقضاء والقدر ، حتى في مجاهل السودان ، اهتمت السلطات وصرفت مجهوداً عظيماً في سبل الصحة والوقاية من الآفات الفتاكة . هذا في البلدان القريبة الشرقية ، اذا كنا لا نريد ان تمثل بلدان الغرب الراقية بالرغم مما في لبنان من الشبه والتقرب الى تمدن الغرب ، وهنا في هذه البقعة تبقى الحالة الصحية كما كانت في العهود السالفة . ومع هذا يقوم في لبنان جمهورية سعيدة . ويتولى مقدراتها وزارات متعددة احداها وزارة للصحة والاسعاف العام . ويلقب من يتولاها بصاحب المعالي ، امور مخزية وروايات هزلية تمثل على مسرح الحياة في لبنان ، عندما كان هذا ينعم بمساعدة الانتداب ، اما الرقي الذي كان يتميز به لبنان عن كافة الاقطار العربية ، خصوصاً بما يتعلق بالامور الصحية والطبية ، فذلك راجع لجهود ابنائه وافراذه ، واقتحامهم ميادين العمل مدللين الصعاب ، ومواجهين ما تضعه السلطات بوجههم من العراقيل . ولقد قام في لبنان مستشفيات ومستوصفات خاصة ، ضاقت مثيلاتها في بلدان الغرب ، واقتنصت زبائنهما من كافة البلدان المجاورة ، فكانت فخراً للبنان ودعاية له . فسدت قسماً من الفراغ

الذي اوجدته حكوماته محتفظة لهذه البلاد بمرکز عال في ميادين العلم والطبابة والرفق .

- ٩ -

فوضى الادارات

ليس هنالك مجال للتبسط في كافة نواحي الادارة والسلطات ، فشاها كلها شأن ما ذكر منها ، لم يكن هنالك دائرة واحدة الا وفيها مستشار فرنسي ، هو في الحقيقة رئيسها وصاحب الكلمة الاولى فيها . والموظفون الفرنسيون ، المتفرقون في مختلف الدوائر والدواوين ، يتسلحون بالنفوذ المعطى لهم من الانتداب ، ويتقاضون معاشات وتعويضات اقلها ثلاثة اضعاف ما يتقاضاه امثالهم من الوطنيين ، ناهيك عن الامتيازات التي يتمتعون بها مع نساءهم واولادهم والمحققين بهم ، امتيازات ما حلم بها احد من الموظفين الفرنسيين في بلادهم ، وتعويضات يخلقونها لهم تحت مزاعم شتى ، تبيح الغنائم لاولئك الذين سعد حظهم فارسلوا الى هذه البلاد .

وما كانت هذه الكثرة من الموظفين الفرنسيين ، الا لتزويد الفوضى في مختلف الدوائر والدواوين ، هي فوضى متغلغلة في كافة مصالح الحكومة ، نشأت عن خلق الوظائف ارضاء لهذا وذالك من اصحاب النفوذ والمحاسب ، ولعدم شعور الموظف ، فرنسياً كان ام وطنياً ، بآية مسؤولية توجب عليه خدمة المصلحة التي يقوم عليها ، وخدمة اصحاب المصالح من المكلفين الذين يؤدون الضرائب

ليت المال ، فيؤمه الموظف في آخر كل شهر ، فيتناول راتبه
وتعويضاته .

كان الله في عون من تقذف به مصلحة الى ارتياد دوائر
الادارات المختلفة في الحكومة ، اذ يكون عرضة لتحمل ما يصعب
احتماله ، على ذوي النفوس النائرة ، من صلف المأمورين وتحكمهم .
لقد ورث مأمورو الدولة عن العهد العثماني اعتقاداً بوجههم انهم اعلى
طبقة ومنزلة من اصحاب المصالح . وارادوا ان يدخلوا في معتقد
الناس ، ان من تضطره مصلحة ما لمراجعتهم ، عليه ان يعرف
ذلك ، ويتصرف تجاههم بما يقتضيه هذا المعتقد ، فكان السائل
يدخل على الدائرة مسترحماً حقاً من حقوقه . وكان الموظف يتكبر
ويشخ كأنه صاحب السلطان المطلق ، اذا رضي عن سائل مسايرة ،
او خشية ان يكون هذا الشخص يتمتع بمصوبية احد اصحاب
المقامات والنفوذ ، قضى له مصلحة على أتمها موفراً عليه المراجعات
المتكررة والمتاعب المضنية التي يقع فيها من كان محروماً من عطف
اولئك المنفذين والمتاجرين بنفوذهم ، على ظهر المكلفين المساكين ،
ولذلك سرى الاعتقاد بين الناس اجمع ، ان من كان له مصلحة او
حاجة في دوائر الحكومة ، يجب ان يكون مسلحاً بوساطة وسيط
نافذ او زعيم مسوع الكلمة ، حتى ولو كان صاحب المصلحة يملك
حقاً ظاهراً ، لقد كان سلاح القوي اقوى كثيراً من سلاح صاحب
الحق . والويل لمن لا يشد ازره احد الحاملين سلاح القوة والنفوذ ،
ولطالما استغنى صاحب حق عن حقه تهرباً من صعوبة المعاملات ،
او خشية اذلال نفسه النائرة ، في الوقوف على ابواب الموظفين

والزعماء ، هذه الروح التي ورثها الموظف اللبناني عن العهد العثماني ، قد تمكنت فيه بدلا من ان تزول في عهد الانتداب ، الذي طغت فيه الاقطاعية والمحسوبية ، وزاد فيه عدد المتاجرين بزعامات متعددة ، من دينية وعائلية ومالية واجتماعية . هي وصمة في جبين الانتداب ساعدت على الخط من الاخلاق في جماعات الموظفين من جهة وفي مجموع الامة من جهة ثانية . الاولون مستهترون لا يشعرون بمسؤولياتهم ويرتكبون المخازي والنقص . والآخرون يلجأون الى استعمال الطرق الدنيئة لقضاء حاجاتهم . حقة كانت ام باطلة ، من شفاعات كاذبة ، او رشوة مغرية . واذا كان في الاطلاق خطأ او ذنب ، فاني اقول ان شدوذ القاعدة كان ضئيلا في الطرفين ، والشدوذ لا يؤخذ قياساً .

اما العدالة ، فكنيت اود ان لا اطالها بكلمة حرمة للقضاء وهو اساس الملك ، ولكنني اكون مقصراً اذا تغاضيت عنها بتاتا . لا شك ان بين القضاة من وطنيين وفرنسيين ، نفر من اصحاب الضمائر الحية والوجدان الصحيح ، ولكن هناك امراً لا يوجد له شبيه في اي بلد ما . ان المفوض السامي الفرنسي هنا ، له الحق في اصدار قوانين لها حفة التشريع ، فكان هذا الحق بيده سيقاً مسلطاً على الحق والعدل ، وكان على القضاة ان يتقيدوا بشرائعه فيحكموا بموجبها كأنها مادة من مواد قانون الحقوق والجزاء . وكما مرة استعمل المفوض السامي هذه الصلاحية ، فحرم صاحب حق حقه واعطاه لمن كان اقوى نفوذاً او اقرب الى قلب المفوض السامي . ويردون لك امثالا على هذا الشدوذ ، قضايا عديدة اضرب عن

ذكرها ، ولمن رغب في التحقيق ان يسأل المحامين واصحاب
الدعاوى المختلفة . هكذا كان يضيع العدل ، وهذا ما اوجد الشك
بين الناس بالرغم من اعترافهم بوجودانية القضاة انفسهم . ومتى
كان القضاء خاضعاً في بلاد لشخص ما ، او لحاكم ، او لأمير ،
ترعزت الثقة بعدل القضاء ، وبأويل الامة التي يقضي بها قضاء
خاضع لغير العدل ، وتكون السياسة وادارتها قيمة على القضاء .

— ١٠ —

كيف فهموا الانتداب

لقد كان عمال الانتداب في لبنان يتجاهلون مبدأ الانتداب ،
ولم يتقيدوا به في اثناء قيامهم بوظيفتهم ، فالاكثرية الساحقة من
اولئك كانت من الفرنسيين الذين خدموا خارج فرنسا ، فيما يسمونه
هم ، فرنسا ما وراء البحار ، او بالاحرى في المستعمرات الفرنسية ،
فعودوا على السياسة الاستعمارية ، وكانوا ينظرون الى اللبنانيين
نظرم الى سكان المستلكات الافريقية ، وفات رؤسائهم في فرنسا
ان يلقنهم الاساليب التي يجب ان يتقيدوا بها ، والطرق التي يجب
ان يتخذوها في تصرفاتهم في البلاد الموضوعة تحت انتدابهم ،
فكانت الخطيئة الكبرى من الحكومة الرئيسية ، انها لم تحسن
اختيار عمالها ، وكانت المصيبة على سوريا ولبنان ، انها لم يمدبرين
ومستشارين ، اما كانوا جهلاً ، او من رجال السياسة الاستعمارية ،
او من الذين انتقلوا من السلك العسكري الى السلك الاداري ، وغت

فيهم روح الاثرة والسلطة ، فكانوا في اعمالهم تارة مستهينين ،
وتارة مستبدين ، ودائماً مغرورين ، وكانت الحسارة على فرنسا
نفسها ، اذ اضاع عليها عملها مكانتها التي اكتسبتها على مر الاجيال
عندما كانت فرنسا تدافع عن لبنان وthem لشؤونه ، قبل ان تأتي
اليه منتدبة ، ولما صار امره اليها ، غلبت على رجالها روح النفعية .
فارادوا ان ينتهزوا فرصة لفرض سيطرتهم واشباع مطامعهم ،
فكان مثلنا معها مثل شاب يخطب فتاة ، فيحبها ويتعشقا ، ولا
يرى له حياة بدونها ، ويبدل الصعاب في سبيل الوصول اليها ،
ولكن ما إن يتزوجها ، حتى يتعرف الى معاييبها ، فينقلب حبه الى
قصور ، وهيامه الى نفور ، هذا تشبيه ليس من ابتكاري ، بل
اخذته من حديث لبطريق الموارنة ، وقيته انه صادر من زعيم
الحزب الفرنسي في لبنان وسوريا .

لقد اخطأ الفرنسيون فهم الانتداب ، فأساءوا اليه واساءوا
الى انفسهم ، لقد كانوا يتصرفون مع اللبنانيين ، كما يتصرفون مع
ابناء المستعمرات ، وفاتهم ان لبنان بلد وضع تحت انتدابهم
ليساعدوه على الاستقلال ، ولم يوضع تحت سيادتهم ليتحكموا به .
واللبنانيون ارقى شعوب الشرق ، يناهزون بعض شعوب الغرب
في الرقي والثقافة ، في لبنان ، قلما يوجد اميون ، واهل لبنان
الذين جابوا كافة بقاع الدنيا ، واختلطوا بمختلف الشعوب ،
ودرسوا اخلاق كافة الامم ، اللبنانيون الذين كانوا همزة الوصل ،
فالتقى في لبنانهم الغرب والشرق ، فاعطاهم الاول من مدنيته
الحديثة وعلومه وثقافته ، واحتفظ الثاني عندهم بتقاليد وعادات

اخلاقية سامية ، اللبنانيون الذين اخذوا عن العرب كرمهم
وشجاعتهم وكرم ضيافتهم ، واخذوا عن الغرب روح التجدد
والتطور ، اللبنانيون الذين يشهد بفلاحهم ابناء الغرب نفسه ، انه
من ارقى فلاحي الدنيا بمعيشته وبنظافته ، بالرغم من عدم مساعدة
حكوماته له ، اللبنانيون وهذه حالتهم ، يصعب عليهم ان يكونوا
مستعبدين من اي امة اجنبية ، اكانت هذه الامة فرنسية ام
انكليزية ام سواها ، ولهذا رأوا في الانتداب ، المطبق عليهم على
هذه الصورة ، اجحافاً لا يطيقون احتماله ، فعمّ الامتناع ، وبات
اللبنانيون يرقبون الوقت الذي فيه يتخلصون من احكامه المذلة ،
ومطامعه الجائرة . وما يزيد في تألمهم انهم مقيدون عن اظهاره
بقيود غريبة في بابها ، فالحرية الفكرية لم تعرف قيوداً كذلك التي
كانت موضوعة عليها هنا ، وهذا الشعب اللبناني الراقى لا يجوز
لكتابه ان يكتبوا ما يجوز في خاطرهم ، ولا لصحافيه ان يعبروا
عن ميتهيات الناس ، ممنوع عليهم انتقاد السلطات لاسيما الفرنسية
منها ، وكان اذا قعد في المفوضية رجال اراحيون ، مكثوا سلاسل
القيود الى درجة لا يطيقها الرجل الابي ، وبالكاد يمر اسبوع بدون
ان تعطل جريدة لمقال نشرته ، او لجبر دسته بين اخبارها ، لم
يرض عنه الاسياد في قصر المفوضية ، والغريب في الامر ان هذا
التقيد الفكري كان يتزايد مع مرور السنين ، فالذي اجيز سنة
١٩٢٦ مثلاً اصبح ممنوعاً سنة ١٩٣٢ ، وهذا امسى جرماً سنة
١٩٣٩ . ومن راجع مجموعات الصحف الصادرة في لبنان ، من اول
عهد الانتداب الى آخره ، يعجب لهذه القيود تتحكم في رقاب

الكتاب ، وطالبي الاصلاح والمفكرين ، في الوقت الذي كان
منتظراً ان تحف هذه القيود ، اذا كانت القوم حقيقة ينوون ان
يدرجوا البلاد الى استقلالها ، كما فرضت عليهم جمعية الامم ،
ومعاهدات جنيف . ولكن هل ينتظر من هذه المؤسسة الوهمية ،
وليس لها من سلطة غير وضع التقارير ، والقاء الخطب ، ان تعاند
دولا انتصرت في الحرب ، واوجدتها سياسات تحفي وراءها نياتها
ومطامعها وجشع استثمارها ؟

اللبنانيون قوم اشتهروا بالمسألة ، فكانت هذه المسألة سبباً
من اسباب التعدي الذي لحق بهم من مختلف الامم والفاحين ، ولا
بد لهذه الامة من روح ثورية تنفخ فيها ، فتسنع عنها تعدي المعتدين
الطماعين ، واني عندما اقول بروح ثورية ، لا أعني اخرام ثورة
دموية ، فنحن اللبنانيين اضعف من ان تغلب على دول كبيرة
بقوة السيف ، ولكن اريد من ابناء امتي ان يتسلحوا بنفوس
ثائرة ، تأبى الاستسلام لقوى الجشع والطمع ، وتحارب المستعمرين
والمستثمرين ، المستعبدين بأسلحة قاطعة ، لكنها لا تهدر دماً ولا
ترهق روحاً ، هي اسلحة المقاطعة ، وعدم التعاون ، والعصيان
السلمي ، ولا بد ليوم يأتي تنتصر فيه هذه الاسلحة ، على كل ما
تصنع المعامل الجهنمية ، من طائرات ، وقاذفات ، ودبابات ، فدولة
الظلم ساعة ، ودولة الحق الى قيام الساعة .

الفصل الثالث

الاستثمار

- ١ -

ادعاء باطل

مهما تبجحت الدول التي خاضت غمار حرب سنة ١٩١٤ ،
بمبادئ ادعت انها حاربت من اجلها ، ومهما انتحل ساسة تلك
الحرب من اعدار دفعتهم لامتناع الحسام بوجه معتد ظالم ، اما
دفاعاً عن حق مهضوم ، او انتصاراً لامة مسالمة محايدة كانت
عرضة لاعتداء مثير ، وبالرغم من الدعايات التي نشرتها على العالم كل
من الدول المشتركة في الجريمة الكبرى ، فالتاريخ لن يقول عن
تلك الحرب الا انها حرب سداها الطمع في الاستعمار ، ولحمتها
التسابق في ميدان الكسب والاستثمار ، وقد تحاسدت الامم
الاوروبية الكبرى ، فكانت كل منها ترغب في ان يكون لها
سيطرة اوسع من مزاحمها على عوامل السياسة العالمية ، لينتج لها
من وراء ذلك سيطرة على العوامل الاقتصادية . ولم يكن هدف
المنتصر سوى انتزاع ممتلكات او مستعمرات المقهور ، ليزيد بها
غناؤه ، ولتؤول الى شعبه السلطة والسيادة في حقلي السياسة
والاقتصاد ، اما المبادئ التي كان يتغنى بها المتحاربون ، والانتصار

الحرية الشعوب على حد الفلسفة « الولسية » ، فلم يكن لها اي تأثير
 محسوس ، وباستثناء الانقلاب الذي حدث في روسيا ، وقام على
 اثره النظام الشيوعي ، فان الحرب العالمية الاولى كانت حرباً مادية
 بجته ، اضرمت نارها كتل الاستعمار والاستثمار ، واستغلها بعد
 الحرب رجال المال والرأسماليون ، وهذه الرأسمالية ، التي قامت
 على انقاض الاقطاعية بعد الثورة الفرنسية ، والتي لا تنقص شروورها
 كثيراً عن شروور الاقطاعية ، والتي كانت تحلم العامة بان تتخلص
 من احكامها وتحكمها بمقدورات الضعفاء من الشعوب لمصلحة
 رجالها ، رأينا هذه الرأسمالية القاسية تعزز قواها ، وتؤيد سلطتها ،
 وتكتسب النفوذ القوي في توجيه سياسة الدول ، حسب رغباتها ،
 ومصالح افرادها ، ولولا الثورة الشيوعية التي اندلعت في روسيا ،
 تحلوا من مظالم النظام القيصري ، المبني على استعباد الخاصة العامة
 لأجذبت حرب ١٩١٤ من اي نفع للعالم ، اذ ان المفروض
 في الحروب الكبرى ، ان تقلب الانظمة ، وعوامل المدنية الى
 الاحسن ، غير ان حرب ١٩١٤ ، شجعت روح الاستعمار ،
 وقوت في اصحاب المطامع ، الرغبة في استخدام الغير ، واستعباد
 الضعيف ، والجلشع في الاستثمار ، فكان لا بد من حرب عمومية
 ثانية ، تأخذ شكل ثورة عالمية واسعة ، فتدك سلطات الظلم ،
 وتقضي على نظم رجعية اصبحت غير موافقة لروح الزمان ،
 لتقوم على انقاضها نظم اكثر انطباقاً على المعقول والمقبول ،
 وتكون في مصلحة المجموع ، فلا يبقى هذا مستخراً لخدمة اقلية
 متحكمة ، تقرض ارادتها ، ويكون لسلطانها ونفوذها القول

الفصل في مقدرات الامم والشعوب ، والاستراكية هي ، بلا شك ، افضل النظم لحياة الشعوب ، ولعل هذه الحرب التي تتنازل فيها قوى متعددة ، وتتشابك في عراكها شعوب تبني انظمة وفلسفات متباينة ، يكون في نتيجتها ، قيام نظام مبني على حرية صحيحة ، ومساواة صادقة ، واخاء لا غش فيه ولا خداع . عندئذ نقول مرحى لهذه الحرب . انها بالرغم من ويلاتها وفظائعها ، كانت خيراً على البشرية ، وليسامح الذين اشعلوا نارها ، فانهم كانوا مصلحين . لا مشاحة في القول ان سلطان الرأسمالية ، قويت شوكة بعد الحرب الماضية . فاصبح العالم كله ، باستثناء جمهوريات الاتحاد السوفياتي ، تحت نفوذ الرأسماليين ، يتحكمون بمقدرات الناس ، بواسطة الحكومات التي كانت تتأثر بسلطتهم ، اما عن طريق المساعدة ، واما عن طريق المعاندة . وخضعت الانظمة السياسية لمقتضيات النظم الاقتصادية . واصبحت الكتل المالية والشركات الاستثمارية ، تعمل بواسطة عملائها السياسيين لما يوافق مصالحها . ودالت دولة المال ، والمال رب ثان ، وان شئت فقل ولا تخف ، هو رب أول . وانقسم الناس الى طبقة غنيمة جشعة ، تريد ان تقبض على معالم الحياة ، وتكون لها الكلمة العليا في كافة الامور ، متسلحة بقواها المالية ، وبمقدراتها على التحكم باموال العامة ، وبارواح الناس . وطبقة ثانية عاملة ، مجاهدة في سبيل التخلص من استبداد الطبقة الاولى . وهكذا كانت الحرب بين الطبقتين ، بين حاكم يعمل للاحتفاظ بسلطانه ، ومحكوم يسعى للتحرر من حيف لحقه ، من اسياده وحكامه .

وكانت الاقطار الشرقية اكثر البلدان تألماً وتوجعاً من جور المتحكمين . اذ ان هذه الاقطار تحت ستار الحماية ، او الانتداب ، او التمدين ، كانت مسرحاً لاطماع الغربيين . والشرق بنظر اولئك سوق لتجارتهن ، ومنجم يستخرجون منه ثرواتهم . والشرقيون عمال لهم اجرتهم وكفاف يومهم . اما السيادة ، اما الثراء ، اما الحكم ، فهذه امور مختصة بانباء الآفة من الغربيين . وليس للشرقي ان يطمح الى شيء من الحرية والسيادة والاستقلال والكفاف . وقد كانت الحالة في بلادنا ، مثلاً رائعاً لتسلط المستعمرين ، او المنتدبين ، اذا شئت ان تتكلم باللغة « الولسية » ، ومذ وطئت اقدامهم سوريا ولبنان ، اصبحت هذه البلاد حقلاً للاستثمار ، وسوقاً تتلاعب فيها مطاعم الشركات والكتل المالية المختلفة ، والسابق منها الجواد . ولو سعت هذه القوى لاسعاد الاهلين ، فتستفيد هي من اسعادهم ، لقيدنا لها ذلك مدة . غير انها ، واني بكل راحة ضمير ، لا استثني منها واحدة ، كانت تنظر فقط الى مصلحتها وزيادة مكاسبها وثروة اصحابها ، ولو كان من وراء ذلك اقتنات على حق البلاد ، وسلب الثروات الوطنية . كان هما ان تحصل على الربح السريع ، بدون ان تهنيء له مشاريع تنفع منها البلاد ، وتدر عليها ، بالنتيجة ، الارباح المرغوبة . وقد كانوا في اكثر اعمالهم يعملون كأنهم على سفر ، يأخذون ما تطاله يدهم ، لان غدهم مجهول . ولعلمهم كانوا ملهمين . وبالرغم من حسن نية بعض اقطاب السياسة الفرنسيين واخلاصهم ، لم تستطع هذه الصفات الشريفة ، ان تغلب على جشع الكتل الرأسمالية ، فكانت هذه الكتل ، تدير من وراء

الستار سياسة فرنسا الاستعمارية لمصلحتها ، غير آبهة لما قد تحدثه
مطامعها من رد فعل في عواطف السوريين واللبنانيين تجاه فرنسا
نفسها ، فرنسا التي احبوها على مر الاجيال ، ثم ما أن استقرت في
ديارهم في مقام المنتدب ، او الوصي ، حتى ظهرت لهم طامعة في
اموالهم ، عاملة على اذلهم ، وسلب حرياتهم ، لمنفعة شرذمة من
ابنائها النفعيين المستثمرين .

- ٢ -

البنك الجاني

وكانت فاتحة العمليات الاستثمارية البنك اللبناني السوري ، وهو
ورث البنك العثماني الذي تحول ، بموجب قرار من المفوض السامي
الفرنسي ، الى بنك اصدار ، واعطي امتيازات لم يتمتع بها بنك في
بلد ما ، ذلك كله لان معظم مساهميته من الفرنسيين . فعندما استقر
سلطان الانتداب على لبنان وسوريا ، أصدر هذا البنك الليرة
اللبنانية السورية ، واضعاً اياها بالطبع تحت انتداب الفرنك
الفرنسي . والفرنك الفرنسي ، بعد الحرب الماضية ، كان في مهب
الرياح ، تارة في الخضم وطوراً يتنفس الصعداء تبعاً للسياسة
الفرنسية ، التي ما باتت يوماً على استقرار سياسي او اقتصادي .
فلما ظهرت الليرة اللبنانية الى الوجود ، كانت تساوي اربعين غرساً
ذهباً ، ثم ما لبثت ان بدأت تتقاذفها امواج السياسة الاقتصادية
الفرنسية ، والليرة بين طلوع ونزول ، فاصبحت ، يوم كتابة هذه

السطور في آذار سنة ١٩٤٤ ، تساوي ثلاثة غروش فقط لا غير .
فكان هذا الفرق الشاسع ، خسارة على اهل البلاد ، وفي الواقع
ان الممالين يقولون لنا ان منطقة سوريا ولبنان كانت تملك ذهباً
يقدر بأربعين مليون ليرة قبل اصدار الليرة السورية ، فاصبحت
الثروة الذهبية لا تزيد على المليونين ليرة يوم تقلص ظل الاستعمار
الاقتصادي الفرنسي عن هذه الديار .

وقد كان البنك اللبناني السوري ، طوال مدة الانتداب ، ذا تأثير
ملوس في سياسة البلد . وكان التشريع الاقتصادي ، المحتكر من
المفوضية العليا الفرنسية ، خاضعاً لرغبات ومصالحه مساهميه والقائمين
على ادارته . فقانون وفاء الديون الذي اصدرته المفوضية في
أوائل عهد الانتداب ، والمعروف عندنا بقانون « رويبر ده كه »
السكرتير العام للمفوضية في ذلك الحين ، والقاضي بدفع الليرة
الذهبية ليرة سورية ، وضع خصيصاً لمنفعة البنك المذكور ، الذي
كان مديناً بأموال كثيرة ، مودعة في صناديقه . وتراكت بسبب
«موروتوريوم» الحرب ، فارجعها الى اصحابها ليرة ورقية مقابل كل
ليرة ذهبية . وكانت ثروة هذا البنك تتزايد يوماً عن يوم بنسبة
لا تتفق وقانون الارباح التجارية المعقولة . فكانت اسهمه ترتفع
باطراد ، بالرغم من التداير المشبوهة التي كان يتخذها مجلس ادارته
الجالس سعيدياً في باريس ، للتصويه على اللبنانيين والسوريين ،
وحملة الاسهم القليلة منهم . ومن اساليبه غير المشروعة ، انه كان
يدفع معاشات كبيرة لبعض اصحاب النفوذ من الوطنيين ، تحت
ستارات مختلفة ، ليُسكت الالسن النقّادة عن مخالفاته ، ومختلف

أجراءاته الاستثمارية . ولا شك في ان هذا البنك كان الوساطة الكبرى لسلب البلاد ذهبها . ولا يزال اللبنانيون والسوريون ، يذكرون ان الجنرال « دانتز » المفوض الفرنسي ، الذي ترك البلاد على اثر انهزام الفيشيين ، سحب من البنك المذكور الذي كان يتقيد باوامر المفوضية ، كافة القيمة الذهبية الموجودة في خزائنه ، وحملها معه الى فرنسا ، وهي قيمة تقدر باربعمئة الف ليرة عثمانية ذهباً كما يقولون .

- ٣ -

المصالح المشتركة

اما البالوع الاكبر لثروة البلاد ، فقد كان مستقراً في ما اصطلح الانتداب على تسميته بالمصالح المشتركة . وهي مجموعة من الدوائر التابعة للمفوضية العليا ، والغاصة بالموظفين الفرنسيين ، يعاونهم نفر من الموظفين الوطنيين ، يديرون شؤون هذه المصالح ، ذات المنافع العامة ، والمشاركة بين لبنان وسوريا .

كانت هذه الادارة ، او بالأحرى هذه المجموعة من الادارات ، تستوفي الواردات الجمركية ، وواردات عبدة مصالح كصلحة المفرقات ، والشركات ذوات الامتياز ، والفنارات ، وجوازات السفر ، الخ... فتصرف بها دون ان تؤدي اي حساب عنها للحكومة الوطنية . فبعد ان توزع المعاشات الباهظة على موظفيها ، وتسرف بمصارقات الفرنسيين وتعويضاتهم المعقولة منها وغير

المعقولة ، وبعد ان تؤدي لبعض الشركات الفرنسية ، كشركة
سكة الحديد مثلاً ، خسارتها المزعومة الناشئة عن تعهد البلاد لها
بالضمانة الكيلومترية ، بموجب قانون الحاكم « كايلا » ، وبعد ان
ترصد القيم المختلفة لمشاريع تقوم بها المفوضية على حساب وارذات البلاد ،
كمشروع مطار طرابلس مثلاً ، الذي كلف مئات الالوف من الليرات ،
وتبين بعدئذ عدم صلاحه للعمل ، والذي ما اثنى الا ليدر الارباح
على الذين قاموا به ، ومشروع توسيع بور بيروت الذي تكفلت
البلاد بنفقاته ، ثم اعطيت الاراضي الناتجة عن التوسيع لتستثمرها
شركة البور الفرنسية ، اقول بعد ان ترصد القيم الكبيرة لمثل
هذه المشاريع التي تكون معظم فائدها لغير البلاد واهلها ، توضع
القيمة الباقية لحساب الحكومات الوطنية . ولكن هل كان يصل
الى هذه الحكومات شيء ؟

سؤال لا بد من الجواب عليه بصراحة :

في بدء عهد الانتداب ، كانت ادارة المصالح المشتركة تعطي
الحكومات حصة من هذه الارباح تبلغ قيمتها بضع مئات من
الوف الليرات . ثم كانت هذه الحصة تتدنى سنة فسنة حتى
انقطعت تماماً في المدة الاخيرة . فتلجئ الحكومات الى فرض
الضرائب على الشعب بغية الوصول الى توازن الموازنة . فهل سمع
ان بلاداً تحرم من مواردها الجمركية لستمع بها جمهرة من الاجانب
عن البلاد ، يا كلون هذه الاموال بحجة انهم يديرون شؤوناً
مشتركة بين سوريا ولبنان تقصر عن ادارتها هذه الدول ، فيتسلمونها

منعاً لغبن يقع من احدى الدولتين على الثانية ، وتكون النتيجة ان يقع الغبن من الوكيل على كلتا الدولتين ، وتحرم من موارد هذه الايرادات الطائلة التي لا تقل عن ثلاثمائة مليون ليرة في اثناء مدة الانتداب . هذه هي بعينها حكاية القرد الذي وكل بقسمة الجبنة بين القطتين فاذا به ، بين تقسيم وتقضي ، يلهتها كلها وتحرم القطتان من اية حصة منها .

وما يزيد النكاي في مهزلة المصالح المشتركة ، ان الادارة القائمة عليها كانت تتفرد بالتشريع الجمركي دون ان يكون للحكومات الوطنية رأي بذلك . فكان هذا التشريع وسيلة لدر الارباح على الشارعين ، ولو تضررت اقتصاديات البلاد . فالمعقول ان الرسوم الجمركية في بلد ما يجب ان توضع لصيانة صناعة البلاد وزراعتها وحمايتها من المزاخة الاجنبية . اما هنا ، فكان الامر على عكس ذلك تماماً . فبدلاً من ان توضع الرسوم الكبيرة على المستورد من الخارج ، كان التشريع يقضي بتخفيف المكوس عنه ، اذا كان هذا المستورد من فرنسا او من بلاد اخرى لفرنسا مصلحة في مسايرتها . خذ مثلاً ، لقد أوجد الاخوان « روميّة » في الشام مصنعاً للجلد ، ابتداء عمله برأسمال كبير ، وابتداءً ينتج من الجلد اجناساً تراحم ، بمجودتها ، الوارد الاجنبي ، فقضى التشريع الجمركي بتخفيض المكوس على الجلد الاجنبي ، وقسم كبير منه يأتي من فرنسا لدرجة أوقع هذا المصنع الوطني الناشئ . بعجز أودى به الى الافلاس ، فمات وهو في طفولته ، وقضى بذلك على انتاج كان ينتظر له النجاح الاكيد . وما اصاب هذا المصنع اصاب

غيره من مصانع الصابون ، ومصانع الخمر ، ومصانع الحرير ، وغير ذلك ايضاً بما لا نستطيع تعداده الآن . اما البضائع التي لا قبل للبلاذ بضعها هنا ، فكانت تزداد عليها الرسوم الجمركية بشكل غير معقول ، لتجني ادارة المصالح المشتركة منها ارباحاً مكسدة ، ولو ارهقت البلاذ بهذه التكاليف . فالادوية مثلاً التي لا غنى للبلاذ عنها ، كان على مستوردها ان يدفع عنها مكوساً وتكاليف تزداد على اثمانها بغية زيادة الايرادات الجمركية .

ومثل الادوية مثل كثير من الواردات الغذائية ، كاللوز والسكر والبنزين والكاكاز وغير ذلك . أتريد ايها القارئ ان تتعرف الى امور اكثر غرابة ، فاسمع اذن : لقد كانت البلاذ بحاجة الى كميات كبيرة من الزيت لتفرشه على طرقاتها الكثيرة ، وكان الزيت يستورد من الخارج على يد الشركات الاجنبية ، واعطها سائناً شركة « شل » ، وكان الجمرك يستوفي رسوماً كثيرة وكبيرة عن المستورد من هذه المادة ، فجاء من يقول ان هذه المادة الغالية يوجد مثلها ، ولربما افضل منها في منطقة اللاذقية ، فلماذا لا تستفيد البلاذ من موجوداتها ، فيوفر من ثروة البلاذ ما لا يستهان به ؟ وقام عندئذ شركة اسمها شركة « زيت اللاذقية » ، ولكن لم يرق للمصالح المشتركة هذا الامر ، لانه يحرم هذه الادارة من مدخول يدر عليها مئات الالوف من الليرات ، فحاولت بشي الطرق ان تقتلها في مهدها ونجحت في محاولتها ، ولا بد لها ان تنجح ، ما دام التشريع بيدها ، فتوقف عمل هذه الشركة ، وتزلت اسمها الى حيز العدم ، وبقي الزيت يستورد من الخارج ، وصناديق المصالح

المشركة تتقبل الاموال الكثيرة من الرسوم عليه . وبقي الامر كذلك طيلة مدة الانتداب ، الى ان وقعت الحرب وانقطع وارد الزفت الاجنبي بسبب صعوبة النقل ، عند ذلك صحت من رقادها شركة زفت اللاذقية ، ولم يعد للمصالح المشتركة من مصلحة في معاكستها ، فأخذت تصدر من الزفت الكافي الى لبنان وسوريا . وكان زفتها اوفر جودة وارخص ثمناً من زفت الاجنبي . بركة من بركات الحرب التي اوجبت على السلطات الرجوع الى ثروة البلاد ، لتوفر عنها اموالاً ذهبت في ذمة اصحاب المطامع الاستعمارية طيلة ربيع قرن .

هذا مثال من امثلة كثيرة ، تكشف لك عن اساليب الاستعمار الاقتصادي الذي ناء به لبنان وسوريا في عهد الانتداب المشؤوم . واليك قصة ثانية لا تخلو من الطرافة : المعلوم ان لبنان ينتج ، من الليمون والبرتقال وكافة الثمار الحمضية ، موسماً لا بأس به ، يزيد كثيراً عن المقطوعة المحلية ، وهو يفتش عن بلدان يصدر اليها ما يفيض عنه ، والمعلوم ان فرنسا ، الوصية على لبنان ، او أم لبنان على حد قولهم ، المفتقرة الى الثمار الحمضية ، تستورد هذه المواد من الخارج ، فكان من المعقول والطبيعي ان تفضل الانتاج اللبناني من هذا النوع على أي انتاج غريب عنها ، بذلك تحصل هي على حاجاتها في الوقت الذي تشجع فيه المنتوجات اللبنانية . فهل كانت تفعل ذلك ؟ الجواب عند مزارعي البرتقال ، هم يقولون ان فرنسا كانت تضع الصعاب في وجه البرتقال اللبناني ، وتبهرج كاهله برسوم جمركية باهظة اذا دخل الى بلادها ، بينما هي تفتح ابوابها بوجه

البرتقال الاجنبي الوارد اليها من بلدان اجنبية ثانية اوروبية ،
بذلك تقضي مصلحتها السياسة والاقتصادية ، وان قضت بذلك على
مصلحة هذا الابن البائس ، كان ذلك يوم كانت فلسطين تصدر
كل برتقالها الى انكلترا نفسها ، حتى ازدهر موسم الثمار
المحضية في فلسطين وضعف هذا الانتاج في لبنان . كانوا يدعون
ان المنتج اللبناني لا يهتم ببرتقاله ، ولكن ما هو واجب الوصي على
القاصر والوصي بيده التشريع ، وبيده الحل والربط ، وبيده
وسائل التشجيع ووسائل التضعيف ؟ قاتل الله عدم الاكثريات
والاستخفاف ، لا سيما اذا كان ذلك صادراً عن ام تجاه اولادها ،
او عن وصي تجاه من وكل اليه امر مساعدته والعناية به .

هذه امثلة قليلة للسياسة الجمركية التي اتبعوها طيلة ربع قرن
مضى ، فقد كانت خراباً على اقتصاديات البلاد ، وماذا كانت
النتيجة ؟ زيادة الوارد ، وتناقص الصادر ، فكانت نسبة الاول الى
الثاني تعادل نسبة خمسة الى واحد ، وهل تعيش بلاد يخرج منها
خمسة غروش ليدخلها غرش واحد مقابل الخمسة ؟ كيف كانت
تصرف الاموال المشتركة ؟ فهذا سؤال يجيبك عليه الموظفون
الفرنسيون في تلك الادارات ، اذ ان ميزانية المصالح المشتركة لم
تكن تنشر ، بل كانت تقرأ في كل سنة مرة ، على مندوبين من
الحكومتين اللبنانية والسورية يرجع الفضل في تعيينهم لأسياد
المفوضية العليا ، بدون ان تسلم اليهم نسخاً عنها للدرس ، وكان
الله يحب المؤمنين ، ولكن الامر الذي يعرفه الجميع ، هو ان الموظف
الفرنسي كان يتقاضى من المعاشات والتعويضات ما يستنفد اكثر

المداخل ، له معاش اساسي كبير ، وله عدا عن ذلك تعويض لانتقاله من بلاده بضاعف المعاش الاساسي ، وله تعويض عائلي على حدة ، ثم تعويض تدفئة ، ثم تعويض غلاء المعيشة ، ثم تعويض اجازة في الصيف ليذهب في اثنائها الى فرنسا مع عائلته ، واذا كانت العائلة من ذوات الرحمة على الحيوانات فألفت كلباً او هراً ، فلها الحق ان يرافقها في السفر وعلى الخزينة ان تدفع النفقات ، والاغرب من ذلك ان العائلة ، اذا ما رغبت عن السفر في الاجازة ، فلها ان تأخذ بمجموع هذه النفقات وتضعها في صندوقها الخاص ، كل ذلك على حساب الخزينة السائية . ولقد كان الموظف الفرنسي يتقاضى الاموال الطائلة ، بينما زميله الوطني يتعثر بميزانيته فلا يقوى على العيش الا قانعاً بالضروريات من الحياة ، فعندما كان المدير الوطني في الدولة اللبنانية يتقاضى مائتي ليرة ، كان المستشار الفرنسي لدى ذلك المدير يتقاضى من ثمانية الى الف ليرة ، والضاربة على الآلة الكاتبة من الفرنسيات ، تتقاضى من ثلاثمائة الى اربعمائة ليرة . وفوق كل ذلك ، للفرنسي الحق في ان يعفى من كافة الرسوم الجمركية ، على ما يستورده من البضائع والمواد الغذائية والبنزين لسيارته ، كل هذه يشترها بارخص الائمان من المخازن التعاونية المختصة به وبابناء جنسه ، معفاة من كافة الرسوم والضرائب والتكاليف ، اذ لا رسوم على الفرنسيين وبضائعهم ، بينما كان على رئيس الجمهورية نفسه ان يدفع ، او ان تدفع عنه خزينة الدولة رسوماً جمركية عن الوارد له ، من سيارات او بضائع او اي مادة تدخل البلاد من الخارج . امتيازات غريبة كان يتمتع بها الفرنسيون

عندنا ، مما لم يتمتع بثقلها المنتدون الآخرون ، لا في فلسطين ولا في غيرها من الاقطار المجاورة .

وعلى ذكر الامتيازات ، لا بد من بعض التوضيح عن الشركات الاجنبية الاستثمارية التي كانت تنعم بمخيرات البلاد ، وتحكم بمرافقها ، دون ان يكون لنا منها اي حصة من الغنم ، فمن شركة الكهرباء والتراموي ، الى شركة سكة الحديد ، الى شركة الماء ، الى شركة البور ، الى شركات غيرها ، اصغر من التي ذكرت ، لكنها ليست اقل تحكماً من اخواتها الكيريات . اما شركة احتكار الدخان ، فسنفرد لها كلمة خاصة ، ان هذه الشركات واكثر مساهمها كانوا من الفرنسيين ، لها من السلطان اكثر بكثير مما للحكومة المحلية ، اذ ان كلاً منها لها تشريعها الخاص ، ولها نفوذها الاقتصادي والسياسي ايضاً . واذا كان لكل منها شروط مكتوبة ، فما من واحدة من تلك الشركات كانت تتقيد بتلك الشروط ، الا عندما تكون هذه مؤاتية لمصلحتها الخاصة ، اما عندما يكون هناك شرط يقيدھا تجاه البلاد ، او تجاه المكلف اللبناني ، فهناك في المفوضية العليا دائرة تسمى دائرة الشركات ، تفسره حسب رغبات الشركة ومساهميها ، ضاربة بحقوق اللبنانيين عرض الحائط . ولطالما ضج الاهلون وشكوا سوء معاملة هذه الشركات ، ولكن عبثاً يحتجون وعبثاً يضرّبون . فالاستثمار يقضي بالاستثمار ، والاستثمار لا يرحم ، واذا كان المفروض في الشركات الاستثمارية ان تعطي حصة من ارباحها الى الحكومات ،

فحكومتنا لم تأخذ مرة واحدة شيئاً من هذه الارباح ، لان ميزانيات هذه الشركات ، كانت لا تظهر الارباح التي كانت تربحها . ولم يكن للحكومات المحلية صلاحية للاطلاع على هذه الميزانيات ، فالمفوضية هي المراقبة الوحيدة ، هي « تدقق » في الحسابات ، وعلى البلاد ان ترضخ لتقاريرها مهما كانت وكيفما كانت ، اما الموظفون المولكون بتلك الدائرة ، والذين كانوا رقباء على الشركات ، فانهم ينعمون بالرفاه والثراء . اذن ، فلتصرف هذه الميزانيات كما تريد الشركات ، ولتقنع البلاد بالتفرج على هذه المهازل .

- ٤ -

نفخ في الهواء

وعدتك ايها القارئ بكلمة خاصة عن قضية احتكار الدخان من قبل شركة الريجي ، وها أنا أسوقها اليك باختصار :

عندما انتهت مدة احتكار الدخان من قبل الريجي في سيطرت على هذه الثروة في ايام الدولة العثمانية ، رجع الى البلاد حقها في استثمار هذا المورد . وزراعة الدخان في لبنان وفي اللاذقية زراعة واسعة ، وموسم الدخان موسم خصب ، بإمكانه سد حاجات البلاد ، وتصدير كميات منه الى الخارج ، فازدهرت عندئذ هذه الزراعة ، وانبثق عنها تجارة واسعة ، وتعددت مصانع التبغ ، وكان عمال هذه المصانع يعدون بعشرات الالوف ، ووضعت الحكومة على الدخان ضريبة « البندول » ، كما فعلت بقية الدول

المجاورة التي كانت تحت الحكم العثماني ، كفلسطين والعراق وشرق
الاردن وغيرها . وكانت ضريبة « البندول » تغذي خزينة
الدولة بإيرادات لا بأس بها ، في حين ان الوفاً من الاهلين وجدوا
في زراعة الدخان وتجارته باباً مفتوحاً للعمل والتعيش . ولكن
شركة الاحتكار ، التي كانت تنعم بامتيازاتها عندما كانت تقبض على
هذا المورد ، واغلبية مساهميها من الفرنسيين ، لم يرقها ان تذهب
من يدها هذه الغنية ، فقامت تسعى ، بما لها من نفوذ على اقطاب
السياسة في فرنسا ، لكي تستعيد امتيازاً خسرت . واقطاب
السياسة ، في فرنسا ، كانوا ينفذون أغراض اقطاب المال . وكانت
ايام المفوض السامي « الكونت ده مارتيل » ، وهو من الحزب
الاستعماري ، والكونت ده مارتيل رجل صلب ، مستبد ، لا يحترم
احداً ، ولا يبالي بآراء الغير ، قال ده مارتيل يجب ان يعود
الاحتكار ، وتندرع بسبب ظاهري ، ان في الاحتكار ربحاً للخرينة ،
ولكن ابسط الناس ايقن ان الدافع الحقيقي هو ان الشركة
الاحتكارية الماضية ، التي بقيت تعمل في لبنان كشركة خاصة بعد
سقوط امتيازها ، هالها ان تراجعا الشركات الوطنية المتعددة ،
فاخذت تلحف في الطلب ، وكان مساهموها في باريس بطالبون
حكومتهم بفتح باب الاحتكار لهم ، والبلاد الموضوعة تحت
انتدابهم يجب ان تكون مجالاً لاستثمار اموالهم ، وايدهم في طلبهم
المفوض السامي ده مارتيل ، ولا غرو فهو رجل استعماري ، وله
مصالح استثمارية خاصة في هذا الاحتكار ، فضلاً عن مصلحة
الكثيرين من بني قومه ، وقامت البلاد بأسرها تحارب الفكرة ،

وترفع حركة المقاومة البطريك الماروني، ومقام البطريك الماروني في لبنان رفيع، وهو يتمتع بزعامة روحية وزعامة زمنية، فأرسل الى المفوض السامي مذكرة في ٩ كانون الاول سنة ١٩٣٤ يطلب ان لا يزج البلاد في مصيبة الاختكار، ولما لم يأخذ جواباً عنها ارسل برفقات ومذكرات متعددة الى حكومة باريس بتاريخ ١٢ كانون الثاني سنة ١٩٣٤، و ١٥ شباط سنة ١٩٣٥، و ٢ نيسان سنة ١٩٣٥، وكلها بقيت بدون جواب. ولم يتورع عن مخاطبة جمعية الامم رأساً، ولكن من يستمع لصوت لبناني شرقي يشكو من ظلامة اوروبي استعماري، وهل تضحي الحكومة الفرنسية بمصالح ابنائها محافظة على مصلحة بلاد هي متدبة عليها؟ أياكون الانتداب عائقاً عن المضي في موجبات الاستعمار؟ وهل يحسر مجلس جمعية الامم ان يرفض ما تطلبه فرنسا مسايرة للبنان او سوريا؟ مسكين «ولسن» الرجل الطيب القلب، فما لهذا خلق جمعية الامم، ولكن هو الاستعمار الاوروبي ذهب بولسن وبمبادئه، وولسن اليوم هاديء في قبره، وروحه تتألم في عالم اللاوجود، والمستعمرون الاوروبيون لا يأبهون للارواح.

ثم قويت المشادة بين المفوض السامي ده مارتيل والبطريك الماروني، وعمد الرجل القابض على السلطة الى وسائل التهديد، وحقد على سيد بكركي، وخلق له في لبنان سلطة روحية اعلى من سلطته في شخص البطريك تبوني، بطريك الطائفة السريانية، وهي لا تريد عن الثلاثة الاف نسمة في لبنان، ففعل منه بامر الملكة البابوية كردينال، والكردينال امير من امراء الكنيسة

البابوية ، تعلو رتبته الكنسية على رتبة البطريرك ، ولكن اللبنانيين لا يعرفون في الكردينال الا اميراً دينياً ، ويحتفظون بالزعامة الحقيقية للبطريرك . واشتدت الحركة ، واضرب المدخنون عن التدخين ، ولم يجرؤ المجلس النيابي على الموافقة على الاحتكار ، وجبت الحكومة الوطنية عن القبول به ، وعمت سوريا ولبنان حركة وطنية جارفة ، ولكن ده مارتيل تمادى في غيه ، وضرب بارادة البلاد باسرها عرض الحائط ، واصدر قراراً بالاحتكار للشركة المعهودة ، فاذا كان اللبنانيون والسوريون لا يقبلون بوضاهم ، فلتكن القوة واسطة لاختضاعهم . وايدت باريس معتقدها في سوريا ولبنان ، وسكتت جمعية الامم عن هذه الجريمة ، وخرست الشرائع الدولية عن هذا العمل ، ووضع كابوس الاحتكار على البلاد ، فليضرب الضعفاء رؤوسهم في حائط المبكي القاسي ! وليطلب اللبنانيون عونهم من الله .

انا لا ادعي اني احطت بكافة الاساليب الاستعمارية التي اخضعت لها البلاد طوال ربع قرن ، ولكنني قد اكتفيت بنماذج من هذه الاساليب التي اتخذت صفة ظاهرية مشروعة ، وتغاضيت عن امور كثيرة لا تعترف بها الشرائع ، وتأبى ان تقرها الانظمة المدنية والاجتماعية . امور لا تجيزها الا القوة والجشع والاستهتار بحق الضعيف . امور اغف عن ذكرها وادفن ذكرها في صدور اللبنانيين الذين قاسوا مرارتها . وليسامخ الذين اقترفوها من اجانب او من ساعدهم عليها من الوطنيين . ولعلها تبقى عبرة يعتبرون بها في المستقبل .

الفصل الرابع

معركة لبنان

- ١ -

العودة الى القتال

في فجر شهر ايلول سنة ١٩٣٩ وقعت الحرب العالمية الثانية .
ولعلي لا اكون مخطئاً اذا قلت ، ان في ايلول سنة ١٩٣٩
استؤنفت الحرب العالمية التي ابتدأت سنة ١٩١٤ بعد هدنة مسلحة
تتخللها مناوشات موضعية دامت من سنة ١٩١٨ - ١٩٣٩ . ولم
يكن هنالك بد من استئناف المجزرة ، اذ ان المعاهدة التي وضعت
في فرسايل على اثر توقف القتال في « كامبيني » كانت افطع وخطر
معاهدة دخلت في التاريخ . فهي لم تقسُ على المغلوب لتسد عليه
طريق الانتقام شأن المحاربين في الفتوحات السالفة . ولكنها بالوقت
نفسه لم تنصفه لتؤمن له العيش في ظل السكينة والسلام ، ليقطع
عن فكرة التحفز للوثوب عندما يرى فرصة سانحة . معاهدة مبطنة
فيها الكثير من الاحاجي والمداورات ، كأنها وجدت قصداً لتكون
سبباً لمجزرة ثانية لا تتأخر الى اكثر من مدة لا تزيد على العشرين
من السنين . ومهما كان من امر ، فان معاهدة فرسايل جاءت خالية
من ضمانات للسلم العالمي الدائم . ولعل التواحم والتحاسد فيما بين

الدول المنتصرة نفسها كان السبب في ذلك. كل دولة تسعى ليكون نصيبها من قرص الخوى اكبر من نصيب شريكها . والشركاء كانوا متعددين . وهم وان جمعهم النكبة في اثناء الحرب انما فرق بينهم الغاية والثقافة والمطامع بعد توقفها ، فضلاً عن ان الجبهة المنتصرة التي دخلت الحرب انتصاراً للحرية ، ومحاربة لقوى الاستبداد ، ودفاعاً عن حقوق الضعفاء - على حد قولها وادعائها - تغاضت عن هذه المبادئ التي اتخذتها احد اسلحتها في اثناء العراك ، عندما آل اليها الامر ، وحلت في مجلس التنفيذ تقضي في الشعوب بما يوافق مصالحها هي ، دون مصالح المحرومين من وسائل الدفاع عن انفسهم ، بل يتمسكون بحق اعترفوا لهم به عندما كانوا يقاتلون ، وانكروه عليهم وهم منتصرون . فالحرب التي ادعوها حرباً لنصرة الحق على القوة ، لم تكن في نيتها الا حرباً استعمارية بالرغم مما اخلقوه من المظاهر المغرية ، وما ابتكروه من انظمة وشرائع . وما عصبة الامم ، وانظمة الانتدابات ، وحق تقرير مصير الشعوب ، الا من مداورات رجال السياسة واقطاب التوسع والاستعمار .

ان معاهدة فرساي وملاحقها ومتفرعاتها المتعددة ، بما اوجدته من حقد في صدر المغلوب ، وبما سببته من كره الضعيف للقوي ، وبما خلقتة من التحاسد بين الاقوياء ، وبما فرضته من العنف والارهاق على المحكومين والضعفاء ، كان لا بد لها من ان تكون سبباً لجزرة ثانية ، بل للاحرى لثورة عالمية شاملة ، على هذه تأتي نتيجة افضل ونظام اصلح لكافة الامم والشعوب . لا بد من

٤٥
نقلاب خطير في الانظمة المعمول بها ، والا بقيت الحرب سجالات
بين اصحاب المطامع ومتطلبي السيادة من الدول والشعوب والافراد
والمستعمرين ومحتكري السلطات المختلفة ، حكومية كانت ام
مالية ام جنسية .

- ٢ -

بين الديموقراطية والدكتاتورية

عندما وقعت الحرب انقسم العالم الى جبهتين : الجبهة
الديموقراطية ، والجبهة الدكتاتورية . الاولى تدعي العمل في سبيل
استقلال الشعوب ، ونصرة الضعيف ، وحرية الفكر ، والثقافة
والمعتقد ، والثانية تحارب تحت لواء الوطنية المتطرفة والفوارق
الجنسية ، سلاحها القوة ، وحجتها تنازع البقاء وبقاء الانسب .
وقد كنا نحن من جنود الجبهة الاولى لاتصالنا المباشر بفرنسا ،
الدولة التي تحكمنا باسم الانتداب . وفرنسا دخلت الحرب زعيمة
في المعسكر الديموقراطي . ونحن مفروض علينا الاعتراف بان
فرنسا تحكمنا حكما ديموقراطياً مهما كان اعتقادنا ضئيلاً ، وبالرغم
من التزييف المفصوح في هذه الديموقراطية .

وفي السنة الاولى من الحرب تضافر معظم اللبنانيين مع المنتدبين
وايدوا قضيتهم ، البعض عن اعتقاد بعدل القضية ، والبعض عن
خوف من انظمة الحرب واحكامها ، والبعض عن امل باصلاح النظام
بعد الحرب ، والبعض اخفوا شعورهم لعدم تناسبها مع المناخلين

في سبيل السيادة العالمية خشية ان يزيد النصر في ارهاق القوي
للضعيف . وهكذا اختلفت البواطن بالرغم من توحيد المظاهر .
والحقيقة يجب ان يقال : ان الادارة في هذه السنة كانت على
نسبة من الاصلاح لا بأس بها ، بفضل رجلين وجدا على رأس السلطة
في البلاد . المفوض السامي « غبريال بيو » . والقائد العام لجيش
الشرق « الجنرال ويغان » . الاول مشهور بنزاهته واخلاصه ،
والثاني بحزمه واقدامه ، صفات ضمنّت للبلاد مصالحها بالرغم من فساد
متغلغل في اوكر الدوائر المختلفة . هي حالة استثنائية ، وفي الحرب
يجب على المرء ان يقنع بقسم من الرفاه الذي يتطلبه في ايام السلم .
وقد كانت الحالة الاقتصادية في البلاد موفورة بفضل المواصلات مع
العالم الخارجي ، تشرف عليها وتحميها اساطيل الحلفاء في البحر
المتوسط ، فلم تبل البلاد بالحرمان الذي افقرها واجاعها في الحرب
العالمية الماضية ، وشكر اللبنانيون وبهم لوجود انكلترا وفرنسا
على جبهة واحدة . وكانت الدعاية تمجد التحالف البريطاني الفرنسي ،
وتقاوم الدعاية الالمانية الابطالية بكافة ضروب المقاومة . والناس
قانعون بمحلمهم ، يعتقدون على احلامهم آمالا يصبون الى تحقيقها في
المستقبل الزاهر الذي ينتظرونه ويتطلعون اليه .

لم يشعر اللبنانيون بالحرب طوال هذه السنة ، فلا طائرات
تطير في سماء لبنان ، ولا دوي مدافع يسمع ، اللهم الا مدافع
التمارين والمناورات ، اذ ان الجيوش كانت تروح وتجيء متحفزة
لاي طارئ ، بطراً . كانت الاستعدادات للحرب قائمة بدون ان
تقوم الحرب نفسها ، والاستعدادات وحدها لا تحيف ، بالرغم من

بعض مضايقات طفيفة كمصادرة السيارات والبيوت ، وغير ذلك
من مقتضيات الحروب. غير ان الليالي كانت مصبوغة بصفة الحرب،
اذ ان قانون خنق الانوار قد طبق منذ ساعة اعلان القتال ،
فاصبح الليل حالك الظلام . وكانت الظلمة هذه سبباً لتكاثر
السرقاات واقتراف الجرائم ، وقد تعددت هذه مبتدئة بافطع
جريمة ارتكبت في تلك الآونة ، وهي ذبح عائلة البشاش المؤلفة
من رجل كهل وشقيقته ، طمع الجناة بسلب اموالهم الوافرة ،
فانتهزوا فرصة الظلام الدامس ليقترفوا جريمة وحشية بقيت حديث
الناس والمنتديات وشغل دوائر القضاء مدة طويلة ، وانزلت الرعب
بالكثير من الاغنياء والمقترين خوفاً على اموال اختزنوها ، والغنى
اذا رافقه التقدير جعل صاحبه مطمحاً لانظار اللصوص والمجرمين .
حبذا لو ادرك اصحاب الثراء ، وايقنوا ان ثرواتهم وبال عليهم
اذا حرموا ذوي الحاجة من الاستفادة من شيء منها . والغني
الحكيم من يدرك انه قيم على ماله وليس مال كاله ، فاذا حرم الناس
منه رأوا فيه مجرمًا يستحق العقاب . والعقاب من العامة قد لا
يخلو من الاجرام ، والعامة قاسية في حكمها ، بطاشه في تنفيذ
احكامها ، والويل لبلاد تهمل سلطاتها في فصل الخلاف القائم ابدًا
بين العامة والخاصة ، بين الفقير والغني ، بين الضعيف والقوي .
انه اهمال يذكي نار الحقد في صدور الضعفاء ، ويشعل لهيب الثورة
في البلاد ، وما الثورة الفرنسية والثورة السوفياتية الا من نتائج
تحكم القوي بالضعيف ، ومساهمة السلطات الحاكمة في سيطرة الخاصة
على العامة .

فرنسا تستسلم

كان موقف إيطاليا اللامحارب في بدء الحرب من اكبر اسباب الراحة والرخاء في لبنان ، وفي كافة الاقطار العربية . اذ ان منطقة البحر المتوسط بقيت كل هذه المدة منطقة سلامة ، الملاحة ميسورة ، والبواخر تمخر آمنة ، والتجارة مزدهرة . ولكن إيطاليا حليفة المانيا ، والمانيا بالرغم من القوة الجبارة التي ظهرت بها ، تحتاج الى معونة حليفتها مهما كانت هذه الحليفة هزيلة . وإيطاليا تطمع في الكسب على ظهر فرنسا جارتها وابنة عمها ، وفرنسا تخرجت حالها عندما غزتها الجيوش الالمانية بعد غزوها النرويج ، وهولندا ، وبلجيكا . واصبحت القوات الالمانية على ابواب باريس ، وتضعض الجيش الفرنسي ، وتوالى الانقلابات في الحكومة الفرنسية ، ولغط رجالها بالتسليم وطلب الصلح من الفاتح ، وخشي العالم ان تحذو بريطانيا حذو حليفتها المغلوبة (مساكن الذين لا يقدرول صلابة الامبراطورية البريطانية وارادة الشعب البريطاني الجبار) . خشيت إيطاليا ان تنتهي الحرب ولا يكون لها يد في كسبها فتحرم حصتها من قرص الحلو . فاعلنت الحرب على فرنسا في ١٠ حزيران سنة ١٩٤٠ ، عندما كانت فرنسا تغرر في صدرها حشيرة الموت . فجاء عمل الطليان كذاك الذي يطعن ميتاً ويفخر بشجاعته ، ولكن يظهر ان الدول لا تعاب بما يعاب به الافراد ،

والتحازي الدولية يسونها سياسة ودهاء ، بينما هي في الافراد غدر
وخيانة .

عندما تخرجت الحالة على الجبهة الفرنسية طلب الجنرال وignan ،
فسافر على متن طائرة ، عليه يستطيع اصلاح الموقف اذا كان هناك
من امل يرجى . والجنرال وignan ، بلا جدال ، من اعظم قواد فرنسا ،
وصاحب اليد الطولى في نصر ١٩١٨ ، عندما كان رئيساً لاركان
حرب المريشال فوش الذي اوصى الفرنسيين ، وهو على فراش
الموت ، ان يلجأوا الى وignan عندما يداوم فرنسا اي خطر . وفرنسا
اليوم على شفير الهاوية . ولكن وignan الذي كان ضحية السياسة
الفرنسية ورجالها ، والذي ابعدته أغراض الاحزاب الحكومية عن
المركز الذي كان يجب ان يكون له دون غيره ، لم يستطع ان
يجترح العجائب في الساعة الاخيرة عندما كانت اسباب الانهيار
مهيئة كلها ، وبعد ان كانت عوامل الفساد قامت بعملها . وكان لا
بد للجيش من ان يغلب وفرنسا من ان تنهار . فاوغر للحكومة
ان لا سبيل الى اصلاح الحال ، ولا مناص من الرضوخ الى الفاتح .
فانقلبت الحكومة وتسلم الامر المريشال « بيتان بطل فردان » ،
والشيخ الذي يحبه ويتعشقه الشعب الفرنسي . فكان اول عمل قام
به ان طلب الى الفاتح الالماني وقف القتال واملأ شروط الهدنة ،
محافظة على البقية الباقية من الارض الفرنسية ، وضماً بارواح
الفرنسيين في معركة لا يرى فيها الا الفشل . ومهما تضاربت الاراء
في عمل بيتان ، وفي صوابية نظريته ، وفي انفصاله عن حلفائه ،
فالحقيقة هي ان ذلك الشيخ الوقور ما اقدم على خطوته الا مدفوعاً

عامل الاخلاص نحو بلاده التي احبها وضحى بكرامته ، وجاهد في سبيلها كل حياته . وليس هنا مجال للبحث في خطيئات ارتكبت ، او شائعات اقترفت من قبل الرجال الذين اتخذهم بيتان ليسان عدوه فاستفادوا من شخصيته ، واخفوا وراء اخلاصه لبلاده ولشعبه اغراضاً مريبة . وكان وقر الخمس والثمانين سنة على بيتان عوناً لهم على الوصول الى تلك الاغراض والغايات .

— ٤ —

السلطة الفرنسية في الشرق تعصي فيشي

وقف العالم اجمع مدهوشاً اذ رأى معركة فرنسا تنتهي بالذل والخذلان ، وامبراطورية شاسعة كالامبراطورية الفرنسية تنهار بسرعة لم يذكر مثلها التاريخ . وحزن الناس على ايجاد امة عريقة حملت مشعل الثقافة والنور والحرية الى اطراف المعمور . والامة الفرنسية كانت تتمتع باحترام دولي عز نظيره ، والشعب الفرنسي كان له لدى شعوب الارض اجمع ميزة خاصة من المحبة والعطف . وسخط العالم على الذين كانوا سبب النكبة من رجالات السياسة في فرنسا ، في الفترة التي تلت النصر في الحرب العالمية الاولى . هذه الفترة التي دامت عشرين سنة ونيف ، طغت ، في اثنائها ، على السياسة الفرنسية ، روح الفردية والنفعية الخاصة ، واصيبت اخلاق الامة بالفساد ، والامم باخلاقها ، واختل الجهاز الحكومي بطريقة لم يسبق لها مثيل ، وسادت الفوضى بين الهيئات المختلفة . وكان

كل ذلك نذيراً بانهايار لا بد منه، لا سيما واعداء فرنسا لها بالمرصاد، يتحفزون ليصوبوا اليها ضربتهم، ويقضوا على مدينة سطعت اجبالاً، ويدلوا امة كانت زعيمة بين الامم المتقدمة.

ولقد كان لتسليم فرنسا للقوات الالمانية، تأثير موجه في الممتلكات والقوات الفرنسية خارج الوطن الام. واعلن قسم من اولئك عصيانهم قرارات الحكومة الرئيسية. وكان من المتمردين عميدا السلطين الملكية والعسكرية في لبنان وسوريا غبريال بيو، والجنرال ميتلهورز الذي خلف ويغان في قيادة جيش الشرق، عندما طلب ويغان الى باريس لانتقاد الموقف. فاعلن العميدان في بيان اصدره ان جيش الشرق سيتابع النضال مع حلفائه البريطانيين غير عاجيء بالهدنة الالمانية الفرنسية، رافضين الاعتراف بالحكومة الفرنسية الجديدة التي اتخذت «فيشي» مركزاً لها، بعد ان دخلت باريس في منطقة الاحتلال الالمانى مع ثلثي مساحة فرنسا. ولدن صدور هذا البيان اجتمع ممثلو السلطين الفرنسية والبريطانية واتفقوا على السير معاً في متابعة الحرب. وتعهد ممثلو السلطة البريطانية بكافة النفقات التي تتطلبها القوات الفرنسية بدون اي فرق او تمييز بينها وبين القوات البريطانية، كما تعهدوا بتسليف المفوضية العليا الفرنسية كل ما تحتاجه للقيام بالادارة الملكية. وقد كان لهذا الاتفاق وقع حسن بين الناس، خشية قطيعة فرنسية انكليزية ينتج معها وقف الاتصال مع بقية الاقطار العربية ومع العالم الخارجي. فتكون ويلات الحصار اشد وطأة من ويلات الحرب. ولما سمع صوت «ده غول» من لندرة يدعو ابناء فرنسا،

البيعين عن الكابوس الالماني والمنتشرين في الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار، للالتفاف حوله لمتابعة الحرب، كانت السلطة الفرنسية هنا تؤيده ، واخذت الاذاعة تشجب الهدنة وتتهم رجالات فرنسا المهادين بالحيانة . وظهر التضامن الانكليزي - الفرنسي في الشرق ، وابتهج بهذا التضامن ابناء الشرق كي لا تتحقق فينا قصة «المركب والريح والبحارة» اذا وقعت الواقعة بين انكلترا وفرنسا .

ولكن لم يمض على هذه الاتفاقات غير ايام معدودة حتى نزل الرجلان «بيو» و «ميتلهوزر» على ارادة «بيتان» و «وينان» . وشاع ان ذلك تم على اثر زيارة خفية من الجنرال وينان الى بيروت ، واعترف العميد عندئذ بحكومة فيشي ، ووضع نفسه والبلاد تحت امرتها ، قالباً ظهر المجن لحركة الجنرال ده غول ، وبالتالي لبريطانيا العظمى . ومنذ ذلك الحين اصبحت مقدرات البلاد بيد الحكومة الفرنسية المغلوبة التي لم يكن امر نفسها بيدها ، بعد ان فرض عليها الالمان شروطهم القاسية ، وكلوها بقيود مذلة ، واصبحت اقرب الى دولة مستعبدة منها الى دولة مستقلة صاحبة سيادة .

- ٥ -

الذعر العام

منذ ان اعترفت السلطات هنا بحكومة فيشي اصبحت البلاد اللبنانية السورية منفصلة عن بقية الاقطار العربية ، ولكن العلاقات التجارية في بادىء الامر ظلت متواصلة لحد محدود . فقد اعلنت الحكومة

٤٧٩
 للبريطانية عندئذ انها لا تتخذ اي اجراءات عدائية ضد سوريا
 ولبنان ، الا اذا اصبح هذان القطران مسرحاً لمناورات او
 دعايات محورية. وبالرغم من القطيعة الرسمية بين السلطين الانكليزية
 والفرنسية، فقد كان يدخل البلاد بعض المواد والبضائع من الاقطار
 المجاورة . غير ان هذا السماح لم يمنع حصول الذعر في البلاد على
 اثر قطع العلاقات الرسمية بين الدولتين . فارتفعت اثمان الحاجيات
 اوتفاعاً هائلاً ، واختفت البضاعة من الاسواق ، وظهر في ميدان
 التجارة الاحتكار . وتجار بيروت ادهى تجار العالم . قلبهم لا يلين ،
 وجشعهم لا يعرف حداً . وخف الاهلون للاسواق ، الاغنياء
 يتمنون الى مستقبل يرويه مظلماً ، والفقراء يشترتون ما لا
 يستغنون عنه لدفع الجوع عنهم وعن عيالهم ، والمحتركون يمزنون
 ما يحدونه في الدكاكين لبيعه باعلى الاثمان عندما تنقر البلاد .
 وكانت اثمان البضائع ترتفع ارتفاعاً فاحشاً بين ساعة واخرى ،
 حتى بلغت حداً لا قبل للفقير به . فبلغ ثمن كيلو الحُبز المائة غرش ،
 وصفحة البنزين ثلاثين ليرة ، وصفحة الكاز عشرين ليرة ، و كيلو
 السكر مائة وخمسين غرشاً ، و كيلو البن مائتين وخمسين غرشاً ،
 وقس على ذلك بقية الاسعار . تقول الامثال « من اكسوى
 بسخونة الحليب نفخ اللبن » ، و « من عقصه الحية خاف من جرة
 الحبل » . وهؤلاء اهل لبنان ، الذين ذاقوا في الحرب العالمية
 الاولى ضائقة الحرمان ، وقاسوا مرارة الفقر والعوز والجوع ،
 وابتلوا بالاوبئة والامراض ، رأوا في بوادر الحالة تكرار المأساة
 التي رزحوا تحت اثقالها ، ولم يمض عليهم بعد ربع القرن . كان هم

العامل والفقير الحصول على الرغيف ، وكان همّ التاجر الاستفادة
 والربح ، وكان همّ المحتكر المغامرة والاثراء . والاكثرية الساحقة
 من اللبنانيين هي من الطبقة الفقيرة والمتوسطة . العامل فقير ،
 والموظف نصف فقير ، والطبيب ، والمحامي ، والمهندس ، ورفقاؤهم
 من اصحاب المهن الحرة ، يعدون متوسطين ، وان كان كثيرون
 منهم فقراء محتاجين ، حتى الملاك (اللهم الصغير) اصبح فقيراً او
 متوسطاً ، بعد ان حدد له النظام ايراد ملكه ، وترك جبل المعيشة
 على غاربه ينطلق كالسهم بين عشية وضحاها . ولذلك كان تسعون
 في المائة من اهل لبنان ينوءون تحت اعباء الفاقة والحرمان .
 وعندها اصدرت السلطة قراراً يقضي بمنع الاحتكار ، ويوجب على
 التجار التقيد بأسعار ١٠ حزيران ، وهو تاريخ دخول ايطاليا في
 الحرب ، وبدء المضاعب والعراقيل في طريق الاستيراد . قرار
 استقبله الرأي العام بالشكر ، أملاً بوضع حد لمطامع التجار وجشع
 المحتكرين . وانطلق رجال المكافحة في الاسواق ، يراقبون الباعة
 وينظمون التحالفات بحق المخالفين . وبالفعل كان لهذا العمل تأثير
 حسن ، وشتت المجموع من التجار الذين نزل بهم عقاب السلطة ،
 وادعوا السجون ليلاقوا قصاصاً على جرائمهم . ولكن - لعن
 الله لكن - ما مضى على ذلك اسابيع قليلة ، حتى ظهرت عوامل
 الحلل والفساد والفوضى في الادارة . وهي امراض مزمنة فيها ،
 اذا كبنت يوماً تحت تأثير الشدة من رئيس شريف ، لا تلبث ان
 تتخلص من كابوسه ، بطرق ألفتها ومداورات تعودتها . وباء حل
 بهذه البلاد من عهد العثمانيين ، ثم اتى من بعدهم الفرنسيون ،

فأوقدوا ناره واضرموا شعلته، وعوامل اللهب موفورة في البلاد .
هو داء الرشوة ، نقيصة الحكومات ومفسدة الامم .

كان لقرار السلطة ، بعد ان دب الفساد في القائمين على تنفيذه ،
تأثير معكوس . فرجع الذعر الى الاسواق ، واستعاد التاجر
أو المحتكر سيطرته ، متسلحاً بنفوذه لدى اصحاب السلطة ، وبما
يصدق على المسلمين مقدرات الشعب من اموال وهدايا ، لا تحسب
شيئاً بالنسبة لارباح يجنيها ، وثروات يكسبها ، لا يخشى عقاباً ،
ولا يبالي بقرارات . انني لا ارسل القول على عواهنه ، ولا ابالغ
فيما اقول ، ولدي شواهد لا تحصى تؤيد هذا الاتهام ، ولا ازال
اذكر حادثة جرت مع نسيب لي ، اهتمت لامره ، وتابعت
مصيره ، وهو تاجر من تجار البلد المعدودين ، وفي مدة الحرب
كان في عداد المغامرين والمحتكرين ، طاله قرار المكافحة في
اول امره ، وحكم عليه القانون بالفرامة والحبس ، وكلف
بالمرافعة عنه كبار المحامين ، واختفى من البلد مدة حتى لا تراه
عين الشرطة ، وقامت الدنيا وقعدت ، ولا غرو ، فهو شاب في
مقبل العمر يتحدر من عائلة معروفة ، وفي صناديقه اموال
مكدسة ، والحبس في بلادنا ليس للاغنياء والرأسماليين . ان في
خزائن اولئك اموالا تحميمهم وتدفع عنهم موجبات الانظمة
والقوانين . هكذا جرى في حادثة نسبي - الذي راقت خلاصه -
وفعلت الرشوة مفعولها ، وحكم سيف المال ، وضرب اولئك الذين
اصدروا القوانين بقوانينهم عرض الحائط عندما تبنوا من ان
الدفعه تستحق النظر . وهل تقوتهم هذه الغنيمة ليحافظوا على

قانون هو في مصلحة شعب ضعيف استعبدوه واستثمروه منذ اكثر
من عشرين سنة. اذن ليكن لنا من ارباح هذا الشاب حصة نوجها ،
وليكن الله في عون اللبنانيين .

- ٦ -

الاعاشة المجوعة

اقتصرت سياسة البلاد في هذه الآونة على مسألة واحدة
هي مشكلة الاعاشة . ولم يتطلب الشعب من حكومته ، ومن
القابضين على مقدراته سوى تأمين المعيشة له . وانشئت في
ذلك الحين دائرة سميت دائرة التموين والاعاشة . القاثوث على
أمرها كلهم من الفرنسيين الفيشيين . واحتكرت هذه الدائرة ،
مشتري وبيع ونقل الجبوب وبقية المواد الغذائية . كما انها منعت
التجار من الاستيراد والتصدير ، الا بسمح منها . هو تدبير
حكيم تلجأ اليه الحكومات في الحرب وفي الظروف الاستثنائية .
ولكنه تدبير خطر اذا اساء استعماله الذين يتولون تنفيذه .
وهو ما حدث مع الاسف في لبنان . فبهذه الدائرة اصبحت
مقرراً للتلاعب بقوت الشعب . وكانت تدابير هذه الدائرة ، بما
يستوجب الحجل « والقرف » والسخط .

اتخذ هؤلاء الموظفون ، من قضية الاعاشة ، وسيلة لتحكمهم
وتغذية جيوبهم ، غير عابئين بشعب يفتقر ويتضور جوعاً . يصدر
القرارات التي تبيع لهم المصادرة والاحتكار ، لينفخوا عن المستهلك

ما يوفر لهم المواد الغذائية ، يبيعونها بأسعار باهظة لمنفعتهم ، او يبيعونها لزبائنهم ، او يبعثون بها اعانة لذويهم في بلادهم الجائعة ، عندما تسمح لهم الفرصة بارسالها . وهكذا شحت هذه المواد ، حتى اصبح السكر اندر من الكبريت الاحمر ، والارز يباع باعلى الاثمان ، لا يستطيع شراءه الا كبار الاغنياء . لقد كانت المستشفيات والمؤسسات والمدارس تحرم من هذه المواد الضرورية ، بينما كان بعض المحظوظين يتلقونها دون حساب . ولا ازال اذكر مرة ، انه عندما كان الناس يتشوقون لحفنة من السكر كانت تأتي امرأة اجنبية ، تدير بيتاً من بيوت الدعارة ، فتحصل على اجازة من دائرة الاعاشة تبيع لها شراء ثلاثين شوالاً من السكر بسعره الرسمي ، ثم تبيعه بسبعة اضعاف ثمنه لمقهى معروف . اتي اعرف الامراة ، واعرف المحل الذي ابتاعت منه السكر ، واعرف المقهى الذي ابتاعه منها . وقد اوصلت الخبر بنفسى في حينه الى المرجع الاعلى . اما كيف استحصلت على الاجازة ، وما هي الطرق التي اتبعتها ، فذلك سر من اسرار دائرة الاعاشة . اما البنزين ، هذا السائل الذهبي المحي ، فقد ندر في تلك الايام ، واحتكر الموجود منه المحتكرون ، واكثرهم من الذين يستمعون بنفوذ الدوائر الرسمية ، حتى ان احدهم ، وهو طبيب اجنبى كبير ، جنى من وراء تجارته هذه الالوف من الليرات ، في حين ان سيارات الاطباء الوطنيين توقفت لافتقارهم اليه . وهناك في المفوضية كان الموظفون يستغلون وظائفهم لجمع الغنائم بدون حساب . هناك كانت ادارة الشؤون الاقتصادية ، يرأسها رجل لا يذكر اسمه

هنا الا مرفوقاً باللغات ، يتصرف بالاعمال ، ويحمل المحرمات ، لقاء
مبالغ معلومة حسب اهمية المصلحة . وعندما افتضح امره ، ولم
يكن في مقدور السلطات التجاوز عن فضائحه ، نقل من هذه
البلاد حاملاً معه ثروة ذهبية ، حولها الى سبائك وصواني من ذهب
مطلية بالفضة ليخفيها عن عيون الرقباء . « ر » هذا يحفظ له
اللبنانيون والسوريون ، في تاريخ الانتداب ، ذكراً قائماً مؤلماً .
والخبز غذاء الانسان وقوت الفقير اصبحت قبله الانظار وهاجس
العيلة ، واصبح القرن مزار الناس ، من نصف الليل الى ظهر
النهار ، ليحصلوا على ارغفة ، تارة سوداء ، وطوراً سمراء ، واحياناً
مختلفة الطعم والالوان ، تحوي من القمح الشيء القليل القليل ،
ومن الشعير ، والعدس ، والكرسنة ، والحمص ، والتراب ، الجزء
الاكبر . وفي كل يوم معركة تستخدم على باب القرن . النساء يولولن ،
والشيوخ يتوكأون على عكازاتهم ، والولدان تحترق صفوف
المتزاحمين ، ورجال الشرطة يدفعون هذا ، ويرفسون ذاك ،
مستعينين باسواطهم عند الحاجة ، والناس تصيح : الخبز ! الخبز !
والخبز في حيازة الاغنياء والمتسلطين ، والطجين والقمح في عنابر
تجار القمح والمحتكرين ، والسلطة تتفرج وتنظر الى الناس بعين
العجز وعدم الاكتراث ، وماذا يهمها من اولئك الجائعين ، وهم
من العمال والفقراء ، لا حول لهم ولا قوة ، مازالت الطبقة الغنية ،
واصحاب الاقطاعية والنفوذ مرتاحين ، وما زال صوت العامل
والفقير ، وصياحه وضجيجيه ، لا تتعدى باب القرن . والسلطات
في لبنان تعودت مسايرة الطبقة المتنفذة ، من المتزعمين

والارستقراطيين . اما العامل ، هذا الخلق الذي وجد لخدمة
اسياده ، ولاشباع مطامع اصحاب الثراء والرأسماليين ، والذي لم
يحظ يوماً بتشريع عادل ، ينصفه ويؤمن له الحياة ، فهو لا يستحق
اهتمام اولي الامر ، مادام اولو الامر يرون فيه الاستسلام والخنوع ،
لا ينجش منه شراً ، ولا يحسب له حساباً . وقد كانت اجرة العامل ،
وسط هذه الازمة ، لا تزيد على الخمسين غرساً في اليوم ، عندما كان
رطل الحنظل الاسود يساوي خمسة اضعاف هذه القيمة . واذا
استثنينا طبقة صغيرة موسوعة ، فان الاكثية من الاهالي ، صناعات ،
وعمالا ، وموظفين ، واصحاب اجور محدودة ، واصحاب مهن
حررة ، كل اولئك كانوا يقاسون الامر في سبيل تأمين معيشتهم ،
ومع هذا كان الناس هادئين ساكنين ، ستم ما شئت : مسالين او
آمنين ، اما انا فاسمهم : خاملين ، اذلاء ، اموات .

- ٧ -

كباب . دانتر

وفي وسط هذه الحالة القلقة ، صدر امر « فيشي » باقالة
المفوض السامي « بيو » ، وتعيين « كباب » مكانه ، فاسف اهل
البلاد لهذا التغيير ، لما كان في الاول من ضمان للنزاهة والعدل ،
بقدر ما تسمح له الظروف المضطربة ، وبقدر ما تساعد شخصيته
التي لم يشوبها غير ضعف تغلب عليه قوى الفساد والشر المتغلغلة في
الدوائر العامة . وفوق ذلك فقد تشاءم الناس من ابداله برجل

مثل كياب ، مشهور بعداثه للانكليز ، وتقربه من الالمان ، عكس ما كانوا يعتقدونه في يو . والبنانيون والسوريون يهتمون من المفوض السامي الا يكون مبعوضاً للانكليز ، مخافة ان تسوء العلاقات بين السلطين في منطقتي الانتداب الفرنسي والانكليزي ، الى حد يشتدّ عنده خناق الحصار على البلاد . فتريد الضائقة ، « بيع » اللبنانيين والسوريين . ولم تكن الميول السياسية ، وحدها ، هدف اهل لبنان وسوريا ، ففي هذه الفترة كانت هذه الميول منقسمة بين الجبهتين المتحاربتين ، والناس لا يفكرون الا بمحالاتهم الاقتصادية التي كانوا يرونها تسوء يوماً عن يوم . ولذلك عندما عين كياب مفوضاً سامياً ، اصبحوا ينتظرون قطيعة انكليزية فرنسية ، تتيحها وبال عليهم ، ولكن شاء القدر ان لا يكون قاسياً على هذه البلاد ، فقضى ان يقتل كياب في اثناء مجئيه بطيارة اصبحت خلال معركة جوية في سماء البحر المتوسط . هو القدر سيد الحاكمين ، وشفيح الاكثريّة من الشرقيين ، وموطن الضعف ، والاستسلام ، والجمود عند ابناء الاقطار العربية .

بعد ان قتل المفوض المعين « كياب » ، تمددت اقامة يو في هذه البلاد ، ريثما يعين سلف له ، ثم بشرنا الاثير بوقوع اختيار اسيد فيشي على الجنرال « دنتز » ، الذي كان حاكم باريس العسكري عندما دخلها الجيش الالماني ، واذا كان الناس لم ينشأوا من قدومه كشأؤهم من كياب ، لكنهم لم يظهروا ارتياحاً لرجل عرفوه ، عندما كان في دوائر الاستخبارات في المفوضية العليا قبل عشر سنوات مضت ، وعرفوا فيه ميولا لا تتفق ومصالحة البلاد

في ظروفها الحاضرة . وعندما وطئت رجلاه اليابسة ، كانت باكورة اعماله ان انذر الفرنسيين الموجودين في الشرق ، ومن ورائهم جميع اصحاب السلطات هنا ، انه سينفذ ، الى اقصى حد ، سياسة فيشي ومبادئ فيشي ، والويل لمن تحدته نفسه بانتهاج سياسة مخالفة . وبالفعل ، بعد وصوله بايام معدودة ، ظهرت تدابير الارهاب بحق نفر من الفرنسيين ، اتهموا بمشائهم حركة ده غول ، وقد احابت هذه التدابير عدداً من الوطنيين ايضاً ، رأت السلطة فيهم ميلاً الى حركة فرنسا الحرة وحليفتها بريطانيا . وكان ان ارسل الى السجن بعض المواطنين ، وارسل الى فيشي عدد من الفرنسيين ليحاكموا فيها . وقد قطع الحدود بعض الفرنسيين هرباً للمنطقة الانكليزية . اما المغضوب عليهم من الوطنيين ، فقد ارسلوا الى اقامة جبرية في بعض قرى لبنان . وكان اكثرها حظاً قرية ريفون في اعالي كسروان .

ان عهد الجنرال دانتز كان عهداً قائماً . ففيه ساءت الحالة الاقتصادية ، وفيه اشتدت وطأة العوز والجوع على سواد الجماهير . وفيه لجأت السلطة العليا الى تدابير الارهاب ، وفيه انتشرت الدعاية المحورية ، وظهر تأثير الضغط الالماني على شؤون البلاد السياسية والاقتصادية . وفي نهاية هذا العهد وقعت الواقعة ، وزحف الجيش البريطاني من فلسطين على لبنان وسوريا ، وشهد هذان القطران ، لا سيما لبنان ، حرباً منظمة ، ومعارك طاحنة ، من برية ، وبحرية ، وجوية ، اهلكت الكثيرين من ابناؤه ، وانزلت

الحراب ايضاً في كثير من مدنه وقراه.

والجنرال دانتر كان فيشياً متعصباً . وفيشي كانت تحت تأثير وضغط غزاتها الالمان . والالمان وحلفاؤهم الطليان كانوا ينظرون الى سوريا ولبنان بعين الرغبة ، مهمهم ان تكون هذه البقعة من الشرق تحت مطلق نفوذهم ، اذ يعتبرونها مفتاحاً للشرق الادنى والاوسط . وهذه البقاع مطمح انظار النازيين ، ولهم فيها مآرب يعملون في سبيلها . ولهذا اشتد اهتمام الالمان والطليان بمنطقة الانتداب الفرنسي ، وارسلوا لجنة منهم لمراقبة تطورات الحالة . هم اتخذوا من شروط الهدنة الالمانية الفرنسية واسطة لارسال لجنة تراقب تطبيق هذه الشروط ، على حد ادعاءاتهم . ولكن ، في الحقيقة ، لقد كانت هذه اللجنة وكراً للدعاية المحورية ، تعمل ، مع مختلف الهيئات المؤيدة ، لتمكين النفوذ الالمانى في البلاد، حتى اذا ما حان الوقت، وسنحت الفرصة، اصبحت بلادنا مسرحاً للحركات التي ينوي المحوران يقوم بها في هذه الاقطار .

- ٨ -

العرب في حيرة

ولا يسعنا، ونحن نبحت اعمال الدعاية المحورية ، لا سيما الالمانية منها ، الا ان نقول كلمتنا بوضوح وتجرد ، في شعور اهل البلاد وميلهم السياسي في هذا العراك العالمي ، والقراء يفضلون معرفة الحقائق ، على الاطلاع على الاميال والآراء .

ارتبطت مصلحة العرب والبلدان العربية بمصلحة الحلفاء في الحرب العالمية الاولى ، وقام العرب بشورتهم على الحكومة العثمانية بزعامة الملك حسين الهاشمي ، بعد مخاضات طويلة بينه وبين السلطات الانكليزية ، وانتهت باتفاقات تفتح المجال امام العرب للاستقلال ، ولوحدة الامبراطورية العربية . غير ان تلك الاتفاقات لم تخل من عوامل الغموض والابهام . وقد تجلت في مداورات ومحاولات يحفظ بها وجمال السياسة للتهرب من تعهداتهم تارة ، وللتمسك باغراض لهم طوراً ، كأن السياسة عدوة الصراحة ، ولا بد لها من اذليل واكاذيب . لقد قطع الانكليز عهداً للملك حسين بتشكيل حكومة عربية مستقلة استقلالاً كاملاً ، من آخر حدود حلب شمالاً الى الحدود المصرية جنوباً ، ومن البحر الابيض الى خليج فارس شرقاً ، مستثنياً منها بمتلكة عدن ، والى أجل محدود ، البصرة (اتفاقية الملك حسين مع لورنس في اول سنة ١٩١٦) وفي ايار ، من السنة نفسها ، عقدت معاهدة (سيكس بيكو) ، القاضية بتقسيم النفوذ بين بريطانيا وفرنسا ، على ان يكون نفوذ الاولى على العراق وفلسطين ، ونفوذ الثانية على سوريا ولبنان . وفي غضون هذه السنة نفسها صدر وعد «بلفور» المشهور ، الذي تعهدت فيه بريطانيا بانها تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . ثلاثة وعود ، وثلاث اتفاقيات ، فيها من المتناقضات ما يجعلها مسؤولة عن اكثر الاضطرابات والثورات التي حصلت في جميع الاقطار العربية ، بعد الحرب العالمية الاولى ، والتي دامت - يتخللها فترات هدنة وفتية - الى ان نشبت الحرب العالمية الثانية .

اما كيف عقدت هذه المعاهدات ، وما هي الظروف التي قضت بهذا التناقض ، فهذا لا مجال له في هذا الكتاب . غير ان امرين ، لا يستطيع المتتبع شؤون القضية العربية اغفالهما ، وهما «حرد» لورنس على حكومته ، وارجاعه جميع اوسمته اليها بعد الحرب ، لعدم قيامها بعود كان هو ناقلها الى العرب في اثناء الحرب ، وهياج العرب انفسهم ، لاعتبارهم بريطانيا ناكثة بعهودها تجاههم . وكانت فلسطين ، والقضية الصهيونية في رأس هذه الاسباب .

انقلبت محبة العرب لبريطانيا ، بعد الحرب الماضية ، الى استنكار ، ففور ، فكره . واشتعلت في العراق ثورة على الانكليز . اما في فلسطين ، وقد كان الخطر الصهيوني يتزايد فيها يوماً عن يوم ، وسنة عن سنة ، فقد قامت ثورتان ، الثانية منها ادهشت العالم بصلابتها وجهادها . وفلسطين ، القطر الصغير ، الذي لا يزيد عدد سكانه على المليون ونصف المليون ، يقف بوجه امبراطورية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها ، ومن ورائها يهود العالم اجمع !! ونفخت فلسطين النائرة في الاقوام العربية روح الحق والضعيفة على الانكليز الذين اتهمهم العرب ، بانهم ينوون قطع فلسطين من جسم البلاد العربية ، واعطاءها لليهود وطناً قومياً . وفلسطين مقدسة عند العرب ، مسلمين ومسيحيين ، فيها الحرم ، وفيها المسجد الاقصى ، وفيها قبر المسيح . ولكن ، اصحح ان الانكليز يريدون ان تكون فلسطين لليهود ، ام انهم يرغبون في ان يكون في فلسطين وطن قومي لليهود ؟ ان بين الاثنين فرقاً ظاهراً ، وفلسطين ان اقرّوا بوطن قومي فيها لليهود ، في وقت يعترفون

بها بلاداً عربية ، الا كثرة فيها من العرب ، فهم بذلك ، يضمنون
لانفسهم حق المراقبة عليها ، والتربيع في دست الحكم عند اختلاف
الشعنين : العربي واليهودي ، « وهذا لا مناص منه » فبذلك يبقى
اشرافهم مضموناً . ومصلحتهم الاستراتيجية في الشرق تقضي بأن
تبقى فلسطين منطقة من مناطق نفوذهم . أليست جارة ترعة
السويس ، شريان القلب في الامبراطورية ، ونقطة الوصل بين
اجزائها المترامية الاطراف .

انا لا اريد ان ابحث هنا فيما اذا كان لبريطانيا فضل على العرب
أم لا ، ولا اريد ان اضع في كفتي الميزان مساعدة العرب للحلفاء
في الحرب الماضية ، ومساعدة الحلفاء ، وبالاخرى بريطانيا ، للعرب
بعد الحرب ، لنرى اي الكفتين تكون الراجحة ، وليكن التاريخ
حكماً . غير ان ما اقله ، واعتمد الصراحة به ، مهما سبت هذه
الصراحة من سخط بعضهم ، هو ان العرب انقسموا في موقفهم
تجاه بريطانيا الى فئتين : فئة تؤيد بريطانيا ، وترى فيها اقرب
الدول الغربية الى التفاهم مع العرب وضمان مصالحهم . وهذه
الفئة تضم بالاكثرو ، المفكرين وابناء الطبقة المثقفة ، وهي - ايضاً
بالصراحة - بين العرب أقلية . وفئة ثانية تضم الاكثريه من العرب ،
زعماؤها يعتمدون على تأييد الرأي العام العربي وقد اثاروا فيه
روح الحقد على الإنكليز ، مستعينين بالدين تارة ، وبالقوميه طوراً ،
حتى اظهروا لهم ان بريطانيا هي عدوة العرب ، وعدوة الدين
الاسلامي . والعرب لا تثير حماسهم عقيدة كالعقيدة الدينية .
الفئة الاولى محرومة من تأييد الرأي العام . تكتم امرها وتعمل

بحذر . والثانية منسوجة بالرأي العام ، فتعمل جهراً . انا ، من جهتي ، وكما افهم السياسة - مع اقرارني اني لست من ابطالها - أرى في القضية الفلسطينية غبناً على العرب . واعتقد - دائماً على قدر مفهومي السياسية - ان الانكليز ، في هذه القضية ، انكروا على العرب امانهم الى حد بعيد . ولكن أرى خطيئة الانكليز في فلسطين تقضي بحول كل ما هنالك من تبادل المصالح بينهم وبين العرب في جميع الاقطار ؟ وماذا كان السبب في ثورات العراق الاولى ، قبل ان يتفقم الخطر الصهيوني في فلسطين ؟

قال العراقيون : هؤلاء الانكليز يريدون ان تكون لهم قدم ثابتة في العراق ، ويريدون ان تكون المعاهدة بين بلدينا ضامنة لحقوق لهم عندنا ، لا تليق بدولة مستقلة ذات سيادة كاملة . وقال الانكليز : اننا لا نضر للعراق الا الخير والنجاح ، ولا نريد ان نتدخل بشؤون العراق ، واستقلاله ، وامانيه الوطنية والقومية . ولكن ، مقابل مساعداتنا اياه على نيل الاستقلال ، ومقابل تضحيات بذلناها في الارواح والاموال ، وقبور ملائناها وتركناها في ارض العراق ، يحق لنا بعض امتيازات وامتيازات لا تضر بالعراق ، وتكون ضامناً لاستراتيجيتنا ومصالحنا في الشرق . وكما كنا شركاء في الجهاد ، ألا يحق لنا ان نشترك في المصلحة ، لا سيما ونحن لا نقف عثرة في سبيل العراق ، واستقلاله ، وتقدمه ؟ وليس هذا فحسب ، بل ساعدناه وتساعده على الوصول الى غايته ، وها هو قبل ان تمضي بضع سنوات على نجاته من الحكم العثماني ، يتال استقلالاً ومكانة بين الامم تحسده عليها بقية الاقطار المحررة .

ولكن للانكليز اعداء بين الدول الاوروبية ، وهؤلاء يجب ان يستفيدوا من نقمة العرب ، فأخذوا يوسعون دعاياتهم ، ويبذلون المعونة بسخاء لبعض الزعماء من العرب الحاقدين على الانكليز ، والناافرين منهم . وها هي قضية فلسطين موضوع مياً لهذه الدعايات ، فلماذا لا يغتنمون الفرص . وانتشرت من فلسطين الرسل ، تدعو العرب الى الثورة على بريطانيا عندما داهمتها الحرب . وكانت الضعف الذي ظهر من الانكليز مشجعاً لاعدائهم عليهم ، فقامت حركة الكيلاني في العراق ، وأعلنت حكومته الثورة على الانكليز ، وكان من الطبيعي ان يتأثر العرب في جميع الاقطار بهذه الثورة ، ويعطفون على القائمين بها ، حتى ولو لم يكونوا مؤيدين لهذه الحركة التي لم يكن منها اي نفع للعراق ، والتي أجمع أصحاب الرأي الصائب على انها بنت الطيش وعدم الروية .

وبعد هذه الفذلكة الطويلة ، لنرجع الى لبنان . فهذا القطر العربي تأثر بمجموعه بالحنة التي نزلت بالعراق ، وعطف على اخوان له يستشهدون في سبيل غاية ، اختلف فيها مفكرو العرب انفسهم . ووسط هذه المأساة وجدت في بيروت اللجنة الالمانية الطلابية ، وأخذت تسعى لاثارة الحقد على الانكليز ، وسلطات فيشي تميزها على تدايبرها : فريضة الغالب على المغلوب . وكان الجنرال دانتر يأتمر بأمر رئيس اللجنة الالمانية في تلك الآونة ، ويضع تحت تصرف الطائرات الالمانية مطارات الرياق وحلب ، عند مرورها الى العراق ، فضلاً عن ان كميات من المواد الغذائية اجتازت لبنان وسوريا عن طريق تركيا ، وهي وان لم تكن كبيرة ، فانها زادت في

تخرج الحالة الاقتصادية في البلاد ، الى درجة زاد معها الذعر والخوف من الجوع والعوز القاتل . وكان فندق « متروبول » (مقر اللجنة) مزاراً لهيئات مختلفة ، منها الناقم يأتي متظلماً ، ومنها صاحب مصلحة ، عثر عليه قضاؤها ، يأتي مستنجداً ، واللجنة لم تأتف من التدخل في جميع الامور لما كان لها من التأثير في السلطات ، حتى اصبحت المرجع الاعلى في جميع المسائل المهمة ، ان سياسية او اقتصادية . وتفاقم خطر الاحتكاك بين السلطين : الانكليزية في فلسطين والفرنسية الفيشية في لبنان وسوريا ، واصبحت الحرب بينهما على قاب قوسين .

- ٩ -

في صميم المعركة

في اوائل حزيران سنة ١٩٤١ ، تخرجت الحالة بين الجارتين الى حد لا مناص معه من الاحتكام الى المدفع . فقد أخذت الاذاعات الانكليزية والموالية لها في مصر ، وفلسطين ، واميركا ، وانقره ، تبهم سلطات الانتداب في سوريا ولبنان ، بانها تفتح السبيل امام المحور ودعائه ليكون له من هذين القطرين ملجأ لطائراته ووكراً لدعاياته . واندرت السلطات البريطانية سلطات الانتداب هناك ، بانها ستخذ التدابير القمعية لمنع هذه الامور . فأنكر الجنرال دنتر ، باذاعة من راديو بيروت ، التهمة التي وجهتها اليه لاذاعات البريطانية والحليفة . وأعطى عذراً لبعض طائرات

57
المانية حطت في رفاق او حلب ، مضطرة لعطب طراً عليها .
ولكن الحقيقة التي عرفناها نحن ، بقطع النظر عن التهمة من
الانكليز ، والتكذيب من دانترز ، هي ان الطائرات الالمانية لم
تكن تحط في المطارات الفرنسية فحسب ، بل كانت تستعمل هذه
المطارات لعملياتها الحربية عندما كانت ثورة العراق قائمة ، وكانت
تتمون منها وتتخذها ملجأ . وقد كادت تسلمها تسليماً باتاً لو لم تنته
ثورة العراق الى الفشل بوقت قصير . غير ان الاشاعات التي كانت
تشيعها بعض المحافل الغربية من انكليزية وتركية وغيرها عن
وجود جيش الماني هبط سوريا ولبنان ، فهي غير حقيقة . وما
وجد في المنطقة الفرنسية من اولئك ، غير بعض افراد وضباط من
رجال الطيران لا نستطيع ان نسميهم جيشاً . ولكن هي ذريعة
اتخذها البريطانيون ليهربوا الحطة التي اعتزموا القيام بها ،
لدفع الخطر الذي شعروا به عندما قوي نفوذ المحور على منطقة
الانتداب الفرنسي ، هذا الخطر الذي كان يزداد يوماً عن يوم .
وبرأيي انه لو لم تقع الواقعة ، ويستعجل البريطانيون قيامهم
بالمهجوم ، لكان تسرب الى هذه البلاد قوات محورية تزيد في تخرج
الموقف . هذه هي الحقيقة التي لمسناها هنا . اما وجود طائرات
المانية في اثناء المعركة البريطانية الفرنسية فامر لا يقبل الجدل . واما
النفوذ الالماني فقد كان ظاهراً ظهور الشمس في رابعة النهار . كان
ظاهراً في الادارة المدنية ، وفي الضغط على السلطات العسكرية
الفرنسية التي لولاه لنا بلغت مقاومة الفرنسيين الحد الذي
بلغت اليه ، بالرغم من اعتقاد اولئك ان مقاومتهم مهما طالت فهي

غير مجدية ، بالنظر للتفوق الحربي البريطاني في هذه الجبهة ، اذ ان القوات الافرنسية واعتمدتها كانت هزيلة جداً اذا قيست بقوات اخصائهم ، مما يدع المطلع ان يسمي هذه المقاومة انتحارا . والظاهر ان الانكليز كان في خدمهم ان المقاومة الفرنسية لن تطول ، ولربما كان لاستخبارات مساعدتهم الفرنسيين الاحرار تأثير في معتقدهم هذا . فكانت المعركة في بدئها كناية عن مناوشات تجنب فيها الجيش المهاجم لمزال الضربات القاسية . ولكن وجهة النظر تغيرت بعد اسبوع من ابتداء الحملة ، عندما رأوا الجيش الفرنسي - تحت ضغط الجنرال الالماني - يدافع مستبسلًا ويضحي بافراده قربانا على مذبح الاطماع الالمانية . وعندما اعلن تشرشل ان الحرب ستتحذ شكلاً شديداً لا هوادة فيه ، انقلبت المناوشات الى معارك محتمة في البر والبحر والجو .

وقد كانت الطائرات البريطانية تحوم في سماء بيروت ، وتنتثر النشيرات المختلفة . منها ما هو موجه الى الجيش الفرنسي تنصحه بعدم المقاومة . ومنها ما هو موجه الى اللبنانيين والسوريين ، تطمئنهم انها لا تقصد بهجومها الا القضاء على النفوذ المحوري . وانها لن تغير الا على الاهداف العسكرية ، وخزانات البترول . وبالفعل ، انه في العشرة الايام الاولى ، كانت تأتي هذه الطائرات وتذهب تواراً الى محلة الكرنتينا والدورة ، مقر هذه الخزانات ، وتضربها . وقبل ان ترمي عليها قنابلها ، تشير الى العمال والسكان المجاورين ، كي يتبعدوا عن منطقة الخطر . ولهذا بقي الاهلون كل هذه المدة

٥٨
مطمئنين لا يبدون ذعراً ، غير ان هذا لم يمنع قسماً كبيراً من
اهالي بيروت ان يترك البلد الى الجبال . ولكن الذعر زاد عندما
رأى الناس تطوراً في شكل الحرب ، وعندما حمي وطيس القتال
وظهر شبح الخطر يهدد المدينة الآمنة بالرغم من بعدها عن
جبهة القتال .

- ١٠ -

جبهات القتال

زحفت الجيوش البريطانية وشرذمة من مناصري حركة دهغول
من فلسطين منقسمة الى ثلاثة اقسام : القسم الساحلي متخذاً
« الناقورة » قاعدة له ، والقسم الثاني اتجه نحو « مرجعيون » ،
والقسم الثالث ، وهو الميمنة ، زحف مستهدفاً الاراضي السورية تجاه
« درعا » . وقد كانت مهمة الفرقة الساحلية في الايام الاولى من
المعركة اهون من سواها . اذ ان الدفاع في هذه الجبهة كان ضعيفاً ،
فلم يحض اليونان الاولان . حتى استولت على « صور » ووصلت
بزحفها الى « نهر القاسمية » ، وكانت الفرقة الوسطى تهاجم منطقة
مرجعيون ، حيث كان الفيشيون حشدوا فيها اكثر قواتهم .
فحشي هناك القتال . واستولى الانكليز على بلدة مرجعيون ، ثم
لم يلبث الفرنسيون ان استرجعوها ، وبقيت يدهم اياماً حتى اندفع
اليها البريطانيون بقوات كبيرة ميكانيكية وجوية ، فطردوا
الفرنسيين ، ووطدوا اقدامهم هناك ليجعلوا منها نقطة لحركتهم .

ببر ان هذه المعارك الطاحنة في جبهة مرجعيون ، كانت سبباً
لخراب واسع النطاق ، نزل بالبلدة وبالقرى المجاورة ، فهرب
السكان ، وكثر السلب والنهب من الجيوش ، ومن حالة الناس
الذين ينزلون الى ادنى دركات الانحطاط الخلقي ، فيغتصبون فرصة
حرجة كهذه ليستفيدوا من بلية المجموع . اما المينة ، فتقدمت
في الاراضي السورية على الخط الحديدي . فاحتلت درعا ، ومنها
زحفت على دمشق الشام ، وفي هذه الجبهة وجدت مفزة الفرنسيين
الاحرار بقيادة الجنرال كوله الذي كان قد انتقل من معسكر
« الفيشيين » الى معسكر الديغوليين مجتازاً الحدود الفلسطينية في
بدء المعركة . ومع ان المينة اصطدمت بمقاومة قوات فيشي ، بين
درعا ودمشق ، غير ان هذه المقاومة لم تلبث ان تلاشت تحت ضغط
اخصامها ، وخلصت مدينة دمشق من الخراب الذي احاب مدينة
بيروت ، اذ ان رجال السلطات الوطنية في الاولى ، عندما وجه
الجنرال « ولسن » انذاره بالتسليم ، ورأى اولئك ان لا مناص
من الامر ، اشعروا السلطة الفيشية انهم لا يقبلون ان تدمر مدينتهم
عاصمة سوريا ، لمجرد عناد لا يأتي بنتيجة لا لهم ولا للفرنسيين .
وهكذا انسحبت الجيوش الفيشية من المدينة ودخلت جيوش
الحلفاء ، وكان ذلك في الايام الاولى من تموز ، بينما كانت رحى
المعارك دائرة في لبنان ، وبينما كانت بيروت تتلقى الاغارات
الجوية الليلية .

ولم يدخل شهر تموز حتى حمي وطيس القتال على الجبهة اللبنانية ،
وكانت الجيوش البريطانية المهاجمة الساحل اللبناني من الاوستراليين .

وفي هذه الآونة كانت القوة الانكليزية قد وصلت الى بلدة الدامور، التي جعل منها « الفيشيون » نقطة الدفاع الكبرى . وكان هذا الخط الدفاعي يبتدىء من الدامور على الساحل صاعداً الى الصرد عن طريق « روم » وهي مزرعة على قمة جبل ، ماراً بشقيف « عيه » و « كفر متي » مجتازاً الى « كفر حيم » و « بعقلين » ثم « الباروك » ليتصل بحجبة « جزين »، هذه البلدة التي اصابها ما احاب بلدة مرجعيون ، اذ انها كانت هدف الانكليز ، بعد ان توطدوا في منطقة مرجعيون . وقد اخذ الفرنسيون منها حصناً لهم . وجزين هذه انتقلت اكثر من مرة من يد الجيوش البريطانية الى الجيوش الفيشية وبالعكس . وفي الفترة التي انتقلت فيها جزين من ايدي البريطانيين الى الفيشيين ، صب هؤلاء غضبهم وانتقامهم على السكان منزليين من الفطائع ما يذكره الجزينيون بألم وحقد . فعمل الجيش الفيشي في البلدة نيباً، وهرب اهل البلدة الى القرى المجاورة لينجوا من تلك الفطائع . ويسردون لك حوادث من اعمالهم تقشعر لها الابدان . وكانت نكبة جزين نكبة دامية ، بيوتها تهدمت ، واهلها هاموا على وجوههم في الفياقي والمناطق المجاورة ، تاركين وراءهم ارزاقهم واموالهم طعمة للناهبين .

ولعل معركة الدامور كانت اشد المعارك ، اذ ان الفيشيين في هذه البلدة صمدوا اكثر من اسبوعين ، وكانت مدافع الاسطول تشترك مع هجوم الدبابات والقوات الجوية في هذه المعركة . كانت قطعات الاسطول البريطاني مرابطة مقابل هذه الجبهة ، تقصف مدافعها فتصيب كافة الحكون من البحر الى يثدين . ولو لم تتجنب

هذه القوات خراب المدن ، لكان الاسبوعان اللذان صمدت في
اثنائهما هذه الجبهة ، كافيان لترك كافة القرى قاعاً صفصفاً ،
ولكن لم يكن هدف الاسطول ولا القوات الميكانيكية والجوية
تخريب البلاد ، الا عندما يتعذر عليها القضاء على مقاومة اخصامها
بدون هذه الاضرار . وقد كان عناد الفيشيين السبب الاكبر لهذا
التخريب ، ولو كان من مقاومتهم نفع يرجى لما لامهم اللاتون ،
ولكن هو ضغط المستشارين الالمان الذين كانوا يدبرون حركة
المقاومة لغاية في نفوسهم . حتى ان اكثرية افراد القطعات المحاربة
كانوا يتركون اسلحتهم هاربين ، فاذا وصلوا الى قرية ، خلعوا
ثيابهم العسكرية وارندوا اليسة يتناولونها من الاهالي ، لينجوا من
هلاك محتم ينتظرهم . وكان اكثر اولئك الافراد من فرقة القناصة
اللبنانية ، التي دفعها السلطة الفيشية الى مقدمة الخطوط النارية .
فقتل من هذه الفرقة اكثر مما قتل من كافة الجيوش الفرنسية .
مساكين اولئك الجنود من اللبنانيين والسوريين الذين احوجتهم
الحاجة فتطوعوا في هذه الفرقة ، لتقدمهم فيشي ذبيحة لاغراض
رجالها وسياستها . لو ذهب اولئك الوطنيون فدية لوطنهم ولكرامة
بلادهم ، لما اسفنا على دماء تراق ، وارواح ترهق ، ولكن ان
يساقوا الى الذبح ، اشباعاً لاطماع غريبة !! فهذا ما يثير كوامن الحقد
والكراهية في صدور الاقوام الذين استعبدتهم السياسة الدولية
الظلمة ، واستباحت ارواحهم واموالهم خدمة لمصالحها وغاياتها .
ودخلت الدامور في المعركة ، وكتب بدماء ابنائها صفحة في
تاريخ لبنان . لقد اتخذ الفيشيون منها ، ومن المرتفات المحيطة بها ،

حصناً لدفاعهم ، فنزلت بها نكبة الحرب والمدافع
 والدبابات والطائرات ، ونكبة الجيش المتحصن فيها وفي بيوتها
 وبساتينها . بعد ان تمركزت قوات فيشي في الدامور ، رأى اهلهما
 الخطر يحيط بهما ، فهجروا بلديهما الى الصرود والقرى المجاورة ،
 ولجأ منهم الكثيرون الى « دير الناعمة » ، وما دفعهم الى ذلك
 خوفهم من خطر المعارك فقط ، لكنهم هربوا من تعدي افراد
 الجيش عليهم . وبقيت الدامور صامدة اكثر من اسبوعين كاملين ،
 تتلقى من البحر قنابل الاسطول ، ومن البر رشاشات المدافع ،
 حتى انه لم يبق من بيوتها اكثر من الربع لم تصب بتخريب . اما
 بساتينها النضرة فقد اشترك في محققها عاملان : القنابل من جهة ،
 والاهمال من جهة ثانية ، اذ انه عندما هاجم اهل البلدة على وجوههم
 تجنباً للخطر ، لم يبق هناك من يعتني بالبساتين ، فماتت الاشجار
 من الجفاف . ولم تقتصر معركة الدامور على البلدة فقط ، فقد
 كان هدف الغزاة مؤخرات الجيش ومراكز تموينه . ولهذا كانت
 القرى الساحلية ، من « الدامور » ، الى « خلده » ، الى « الشويفات »
 الى « كفرشيا » ، كلها تحت خطر قنابل الانكليز من جهة ، وقنابل
 الفيشيين من جهة ثانية . فقد ركز الآخرون دفاعهم في مرتفعات
 الشويفات ، والجمبور ، والوادي ، ونقطة الوروار . واصبحت
 القرى بين منطقتي القتال معرضة لنييران المعسكرين ، ولهذا لم تسلم
 قرية من هذه القرى من بعض التخريب ، ومن بعض ضحايا بريئة ،
 ومن الذعر والهجرة الشاملة وما يرافقهما من الجوع والسلب ،
 خصوصاً عندما يفقد كل نظام ، وتحرم البلاد من اي تدبير او

تنظيم لمصلحة الاهلين . ولو لم يوضع حد للقتال في العاشر من شهر تموز ، لاصبحت هذه المنطقة كلها مجموعة خرائب . اما نحن الذين هربنا الى المناطق الجبلية ، في جوار عاليه ، فلم يصبنا من هذه الحرب غير زيارة الطائرات المغيره ، تهددنا بمشاعيلها وازيرها ، وتقذف بقنبلة هنا وقنبلة هناك ، في طريقها الى « وادي حانا » ، نجأ « الجبخانة » الفيشية . ولكننا كنا نتألم لمشاهدتنا ضرب القرى الساحلية ، فكم ليلة قضيناها ساهرين قلقين على اخوان لنا هناك ، ينظرون الى الموت قادماً اليهم ، في سبيل اغراض المقاتلين .

- ١١ -

بيروت في النهار

لم تكن حصة مدينة بيروت من المعركة ، بأقل من حصة شقيقاتها الصغيرات في جبهة القتال . فالطائرات كانت تغير عليها كل ليلة بدون انقطاع ، عدا عن الاغارات النهارية المتقطعة . اما في الاسبوع الاول من المعركة ، فكما قلنا سابقاً : انحصرت الاهداف بالمناطق العسكرية ، لا سيما في خزانات البترول في حي الكرتيتينا والدورة ، ولكن ، عندما انقلب شكل القتال ، وعندما بدا من الفرنسيين عناد في المقاومة ، تحت ضغط اللجنة العسكرية الالمانية ، وعندما اخذت جماعة فيشي ، عن نية مشبوهة ، تطلق نار مدافعها المقاومة للطيران ، من داخل احياء المدينة وشوارعها ، ومن بين بيوتها الآلهة ، عمدت الطائرات عندئذ الى القاء قنابلها على هذه الاهداف ،

متخذة من مقاومة الفرنسيين في قلب البلد ، عذراً لعملها المحرّب .
 هو عمل قاس وغير مشروع لا يخلو من وحشية ، ولعلي لا اكون
 مخطئاً اذا نسبت هذه الوحشية الى الطرفين . فالفرنسيون لم
 يكونوا مخلصي النية تجاه السكان عندما سيروا سياراتهم المصفحة في
 الشوارع والاحياء الآهلة ، يطلقون منها مدافعهم على الطائرات ،
 والانكلاز لم يكونوا انسانيين عندما رموا بقذائفهم المحرقة والمهدمة
 على البيوت ، فاخلوا بوعد نشره على الناس في بدء القتال ، بانهم
 لا يستهدفون غير المناطق العسكرية البحتة ، لا سيما وان قنابل
 المدافع في قلب البلد كانت اضعف من ان تطال طائراتهم المغيرة ،
 ولكن هو الاستقزاز ، والاستقزاز قد يخفف الجرم . وهنا لا بد
 من الاشارة الى امر استلفت انظار الناس في تلك الآونة ، ساقوله
 بكل صراحة . والواقع قد يبرر ما في الصراحة من الاتهام .
 تعددت الاغارات الجوية الليلية ، وكانت تدوم الواحدة عدة
 ساعات ، يلقي فيها عشرات القنابل . حتى وصل الناس الى معرفة
 وقت زيارة الطائرات . وكنا نحن في انجبل عندما تسدق الساعة
 العاشرة مساء ، ترقب وصول الزائرین المغيرين ، فتشرف على بيوت
 من المرتفعات ، فاذا انطلقت الانوار سمعنا ازيز الطائرات ، ودوت
 مدافع المقاومة ، ومن المستغرب ان هذه الطائرات كانت تستهدف
 الحي الشرقي من المدينة ، والحي الشرقي هو حي المسيحيين ، فما
 هذا التفريق والاجحاف من قبل القوات البريطانية ؟ فلنسمع ما
 يقوله الناس ، والسلطات ، والمحبون ، والمعرضون ، ولننظر الى
 الامر الواقع لعلنا ندفع تهمة او نؤيد حجة .

لقد كانت اكثرية المسيحيين المطلقة في لبنان : الدولة ، وفي بيروت : العاصمة ، من الناقمين على سلطات فيشي وممثليها في هذه البلاد ، ومن المؤيدين لبريطانيا وحركة الجنرال ده غول . وكانوا يرقبون بحبيء القوات الانكليزية من فلسطين ، خلاصاً من الحالة التي وصلت اليها البلاد في تلك الفترة . وكانوا يؤمنون ان خلاصهم لا يتم الا اذا احتلت لبنان الجيوش الانكليزية ، ورجعت العلاقات مع فلسطين والاقطار المجاورة الى ما كانت عليه . ولم يستثن من اولئك غير الاقلية الضئيلة من الاغنياء والموسرين الذين لم يتأثروا كثيراً بالضيق ، والعوز ، والجوع ، وبهمهم من الدنيا ان يبقوا متمتعين براحتهم ، يسهرون لياليمهم على اشعة الكهرياء ، لا تفوتهم اجتماعات اللهو والرقص واللعب ، ولا يחדش آذانهم قصف المدافع ولا ازيز الطائرات ، ولا يخشون خطراً على حياتهم العزيزة ، ولا يهمهم ان تشقى العامة او يموت الفقير . والخاصة في بلادنا مشهورة بحب الذات ، وبالعجرفة ، وبعدم مشاركة العامة شعورها ومحنها ، غير ان هذه الفئة لا تتعدى الخمسة في المائة ، اما الخمسة والتسعون ، فقد كانوا يعيشون عيشة الحاجة والذل والضيق ، ولهذا آثروا الاحتلال الانكليزي ، بالرغم مما سيكون وراءه من خطر الحرب ، التي رأوا فيها خطراً اقل كثيراً من خطر الفقر . هذه كانت حالة المسيحيين ، وهذا ما جعلهم يفرحون عندما ابتدأ الزحف الانكليزي على لبنان .

اما المسلمون فلم يكن نصيبهم من الضائقة بأقل من نصيب اخوانهم المسيحيين ، ولم تختلف حالتهم العامة عن حالة اولئك .

ولكن ، هنالك حقد يغلي في صدورهم على الانكليز ، يزيده سعيراً
 الدعاية المحورية في العالم الاسلامي . ولذلك رأيناهم يتقربون الى
 الفرنسيين الذين ما كانوا غير عمال عند الالمان ، يتصرفون بمشئهم
 ويأتمرون باوامرهم . هذا ما اوجد في الفيشيين كرهاً للطوائف
 المسيحية ، وعطفاً مصطنعاً على المسلمين . واذا امننت شر عدوك ،
 فلا تأمن شر صديقك متى انقلب عدواً لك . وتجاه هذه الحالة فتق
 للفرنسيين حيلة . ولربما دهم عليها اسياهم الالمان ، يثيرون بواسطتها
 حق النصارى على الانكليز . قالوا ، لننزل على اولئك الخراب
 من الطائرات الانكليزية . وللوصول الى هذه الغاية ، لنسيرن
 السيارات المصفحة في شوارعهم واحياءهم ، فتضرب هذه الطائرات
 المناطق التي تقصف منها مدافعنا ورشاشتنا ، لعلمهم يقولون : من
 بيت ابي ضربت . وليباركوا الانكليز . ولقد نجحت الحيلة وعلت
 من بين النصارى اصوات النعمة على المغيرين ، ولو الى امد قصير .
 هو تفسير يجيزه الامر الواقع ، والامر الواقع هو انه بينما كانت
 مصفحات المقاومة تتخطر كل ليلة في الحي الشرقي المسيحي ، لم
 تذهب مرة الى الاحياء الاسلامية . وكانت نتيجة الامر ، انه في
 كل ليلة كانت تهدم بيوت عديدة في « الجميزة » ، « ومار تقولا »
 موطن النصارى ، ولم يهدم من بيوت الحي الاسلامي الا القليل
 القليل . وذلك من تأثير قنابل سقطت بالجوار . لرب قائل يقول
 انه تفسير مغرض . ولكن هو الامر الواقع الذي دعا يوماً مطران
 الروم في بيروت ، ان يطلب من الجنرال دانتز ، عدم تعريض
 احياء ابناء طائفته للخراب ، ولكن من هو مطران الروم في ذلك

الوقت ، والجنرال دانتز واسياده الالمان ، لا يهتم اذا احترقت البلاد كلها في سبيل غايتهم الخاصة .

ويتهمهم الحثاء بتهمة ثانية ، اذا صحت اعوذ بالله من فظاعتها ، قالوا : ان التخريب لم يكن من الطائرات الانكليزية فقط . ان الطائرات الفرنسية ، والالمانية معها ، قامت بنصيبها من الجرم . ويأتونك بأدلة يشتون بها التهمة ، اذ استدلوا على ذلك من بعض قنابل وشظايا قنابل المانية ، وجدت في المحلات المحرقة ، وقنبلة كبيرة سقطت في « محلة الصنائع » ولم تنفجر ، ثم قرر الخبراء انها المانية ، وبقيت في الارض حتى بعد دخول الانكليز ، فارسلوا اختصاصيين لرفعها . وايد التهمة تقرير وزارة الطيران الانكليزي ، وقد جاء فيه انه في اثناء معركة بيروت ، بعثوا فوق المدينة ١٧ غارة . واما اهل بيروت فقد عدوا الاغارات بسبع وعشرين . فمن قام بالعشر اغارات المنسية ، وهل الفيشيون الذين اضرخوا للبلاد حقداً في قلوبهم ، واطهروا عداؤهم في مختلف المناسبات ، مسؤولون عنها . ربما يقوم التاريخ باظهار ما استقر ، وطالما بجلا التاريخ من حقائق كانت مجبولة .

تباً لتلك الايام ولياليها الواقعة بين ١٥ حزيران و ١٠ تموز من سنة ١٩٤١ . فترة من العمر رهيبة ، ذقت فيها بيروت من الجراح ما لا تنساه الى اجيال ، والبيروتيون لم يتغودوا على الحروب ، ولا عرفوا بمخاطرها ، واذا بهم اليوم يلاقون اشدها ويلاً وخطراً . هي حرب الطائرات لا تعرف جبهة ، ولا تراعي مسالماً ، ولا

تفرق بين جيش محارب وعائلات في بيوتها آمنة وهامي بيروت تقفر
من سكانها ، في الحي الشرقي بالاكثير ، يؤمها في النهار بعضهم لعدة
اشغال او مهام ، فما يحل العصر حتى يتراكم الناس الى الجبال ،
ومن تأخر الى الغروب ، هروا مسرعاً الى خارج البلد .
وكيف لا يخافون ، والطائرات تنتظر سدول الليل كي تصل
متخطرة الى سماء بيروت . وارتفعت اجور السيارات ، الى حد
قريب من الجنون . اربعون ليرة الى مئتين ، خمسون الى صوفى ،
مائة الى ظهور الشوير ، لا رادع ولا نظام ، ولا من يحزنون .
والويل للفقير . وكانت هذه الهجرة سبباً لقلّة الذين قتلوا بقنابل
الطائرات . وكانت البيوت الفارغة من السكان تهدم الواحد بعد
الآخر . وكنت انا انزل من الجبل في الصباح ، فاشاهد خراب
الليل ، واسائل نفسي ترى ايجي دورى في احد هذه الايام ،
خصوصاً عندما سقط في جوارى اربع قنابل ، احداها محرقة ، في
الليل الخامس والعشرين ، والليل السادس والعشرين من حزيران ،
فتهدم من ابنة هذا الحي اكثر من عشرين . ولكن ، هذا نصيبه
ان يخرب ، وهذا نصيبه ان يبقى ، والنصيب شقيق القدر ، والقدر
سيد الحاكمين .

في تلك الاونة ، تألفت في البلد لجنة لاعانة المنكوبين ، وهم
كثروا في البقاع اللبنانية ، من اناس تهدمت بيوتهم فهاجروا الى
جوههم ، ومن اناس هجروا قراهم فأووا الى القرى المجاورة او
البعيدة ، ومن عائلات اصبحت شريفة واطفال يتيموا وسكان
تهبوا . . . وكانت هذه اللجنة تساعد على اعالة اللاجئين بما تجود به

ايدي المحسنين . وكان للسيدات النقيب الاكبر من الفضل .
 وكانت الاجتماعات تتوالى ايضاً للبحث في شؤون البلد . وقامت
 وفود عديدة تطلب الى السلطات ان تسعى لدى المراجع المختصة ،
 لتخفيف الحجة عن العاصمة . اذ من الحرام ان تتخرب مدينة آمنة
 لا ناقة لها في الامر ولا جمل . كنت عضواً في اكثر هذه الوفود .
 قلنا للفرنسيين . ايجوز ان تترك بيروت عرضة للتهديم دون ان
 يكون من وراء تهديمها اي فائدة ترجى ، لا للبلاد ، ولا للسلطة
 العسكرية . وهل هذه المدافع التي تطلقونها من الشوارع ،
 سيكون من ورائها لكم ربح المعركة . فلماذا لا تعلن اذن بيروت
 مدينة مفتوحة فيرجع الحشم عن ضربها عندئذ !؟ ولكن الفرنسيين
 حائقون على الاكثرية في بيروت وفي لبنان لميلهم الى الانكليز .
 والفرنسي بطبيعته حسود . فلماذا يحب اللبناني الانكليز وهم اليوم
 اعداء له . وهذا اللبناني الشرقي ، يجب ان يكون تابعاً لهم حتى في
 عاطفته . لقد كانت السلطة في بداية الحرب خليفة الانكليز ، تبث
 لهم الدعاية ، وتفرض محبتهم على الناس . واليوم هي عبدة
 الانكليز ، ومضطرة لكرههم . فعليك ايها اللبناني المحكوم ان
 تكون على رأي حاكميك . ان عاطفتك ليست ملكك . انما هي
 ملك اسيادك ومستعمريك — اعوذ بالله، المنتدين عليك — ويجب
 عليك ان تكيفها لمصلحتهم واغراضهم . هي فريضة القوي على
 الضعيف . وكيف تجسر اليوم ان تطلب بمراعاة مصلحتك . وما
 هي حقوقك ؟ وما هي قيمة ارواح بنيك واموالهم ، اذا كان لنا
 بالامر غاية ؟

اغتاظ الفرنسيون من مطالباتنا . واغلظوا القول . واقسم المتحمسون منهم انه اذا كان لا مناص من تسليم البلد ، فليسلمها الانكليز خراباً . واذا لم يقووا على الانكليز ، فليكن انتقامهم من البلد الذي حكموه عشرين سنة ونيفاً ولم يكتسبوا محبة اهله . ولم يدرك اولئك القوم ان المحبة لا تكتسب بالمعاملة السيئة ، وبالإدارة الختلة ، وبجشع الاستعمار والاستثمار . والبلاد تن من استعمارهم ، ومن تضجتها على مذبح اطماعهم واطماع رجالهم . لقد كانت السلطة في هذه الآونة ، حرباً على البلاد . وعلى اهلها . وكان معظم الجنود يغلظون المعاملة للاهلين . وكثيراً ما يعتدون عليهم بقسوة . ففي الدامور قتل ضابط فرنسي بمسدسه شقيقين وجبين من سراة البلدة (الاخوان شكيان) لجرد تيمة بالرغم مما قدمه هذان الاخوان من المساعدة المادية للجيش . وفي قرية كفرشيا ، لحق جندي مغربي ، والمغاربة امتازوا بوحشتهم ، بقى من الشوفات (ط.ق.) عمره اثنتا عشرة سنة ، كان ذاهباً لشراء غذاء لابويه ، ففتكا به بعد ان اقترفا به الفعل الشنيع . ثم قطعوا جثته ارباباً ارباباً ، وطمروها في الارض اخفاء لجريمتهم الوحشية . ولم تظهر معالم هذه الجريمة الا بعد ثلاثة ايام من حدوثها . وفي كفرشيا ايضاً ، دخل نفر من اولئك المغاربة الى دكان لامرأة (و.ه.) ولما امتنعت عن قبولها ببطاليتهم الشنعاء ، قتلوها شر قتلة . وفي جديدة بيروت ، وفي مناطق اخرى تعددت هذه الحوادث ، مما جعل الناس يرفعون الاحتجاجات الصارخة الى السلطات ، ويريدون رفع الحيف عنهم بواسطة السلاح . والنظام المفقود . والحقد المتأجج في الصدور ،

والمسؤولية الضائعة ، كل ذلك كان سبباً لهذه المفوضى الخطرة .

وذهبت الوفود الى رئيس الحكومة اللبنانية تطالبه بالتدخل لدى السلطات العسكرية لتوفر الخراب على البلاد . وبما لا ارى بداً من ان اذكره للرئيس نقاش ، اهتمامه واندفاعه وسعيه الحثيث في سبيل الوصول الى تخفيف وطأة الخراب . ومع ان الرئيس نقاش كان معيلاً من قبل المفوض السامي ، وصلاحيته مستمدة من الجنرال دانتر ، فقد تعدى هذه الصلاحية ، معرضاً نفسه لملامة السلطة العسكرية . فتكررت مقابلاته للمراجع المختصة ، وازسل مذكرات شديدة المهجة ضاق صدر الجنرال دانتر عن القبول بها . وهدد الرئيس باتخاذ تدابير قاسية بحقه . ويقال ان الجنرال الالماني نصح المفوض السامي باعدامه (كذا) ، ولكن وطنية النقاش سلحته بالاقدام غير عابىء بالتهديد والوعيد . حسنة تذكرها البلاد للنقاش .

وطرقنا باب القنصلية العامة للولايات المتحدة . فوجدنا في ممثل تلك الدولة الكبيرة ، رجلاً كبيراً . لقد سبقنا المستر « انغرت » الى العمل . فراجع السلطة الفرنسية ، لكي تمتنع عن تركيز المدافع المضادة في الشوارع والاحياء ، مستفزة الطائرات المغيرة . وراجع برقية السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين كي تمتنع عن قذف المدينة بقتابها . وتوسط دولته في الامر ، وألجف في المراجعات . ولا شك في ان المراجعات المتكررة ، والمخاطبات التي دارت بواسطته بين الطرفين ، هي التي وضعت حداً للاغارات وللهدنة بعد ذلك

بيومين . ولكن من غريب المنطق ، ما أجابت السلطة الفرنسية
 حضرة القنصل ، عندما طلب منها التوقف عن استفزاز الطائرات
 بإطلاق المدافع من قلب البلد . ها كم حجبتهم كما بسطها القنصل
 للوفد ، وهو ساخر من قائلها . لقد قال له القائد الفرنسي :
 « اذا اردتم ان تنقطع المقاومة ، فبلغ انكلترا ان ترجع جيشها
 الى ما وراء الحدود ، وتقلع عن احتلالها سوريا ولبنان . » وضحك
 القنصل من جوابه كأنه يقول له ، ولربما قال : « ايها القائد دانتر ،
 لما اقترب الجيش الالماني من باريس عاصمة بلادك ، وكنت انت
 حاكمها العسكري ، هل طلبت الى الجيش الفاتح الرجوع عن
 الزحف واخلاء الاراضي الفرنسية ، عندما اعلنت باريس مدينة
 مفتوحة ، ام سلمتها الى الالماني كي توفر عنها خراباً اكيداً ؟ ائتمنع
 عن الدفاع عن بلادك ، لتدافع عبثاً عن بلاد وضعتها السياسة
 الاستعمارية تحت انتدابك ، فاستعملتها لغايتك واغراضك ؟ وها
 انت اليوم تعرضها للخراب المؤكد ، خدمة لاغراض تديجتها
 الاخفاق . أليس لارواح الناس واموالهم من قيمة عندك ؟ » وظل
 هذا الرجل الخالص يسعى لانقاذ بيروت ، حتى اضطر الفرنسيون ،
 عندما تخرج موقفهم ، الى التسليم وطلب الهدنة . ان لبنان يحفظ
 في تاريخه للمستر انغرت صفحة مجيدة ، اقراراً بفضله واعترافاً
 بحيل صنعه .

كانت الايام الاولى من تموز ، صعبة على لبنان . لقد بلغ الذعر
 اشده ، والضيق حده الاقصى . لقد كانت القرى البعيدة عن مناطق
 القتال تغص بالمهاجرين واللاجئين . الاغنياء من اولئك استأجروا

يوثاً لا يواء عيافهم . والفقراء لجأوا الى الاديرة ، والمدارس ،
والمحلات العامة . وكثير منهم لجأوا الى البراري ، يفتشون
الارض ، ويلتحفون السماء . وبلغت الحاجة درجة لا قبل للاكثرية
باحتمالها . خصوصاً عندما انقطعت داخلية البلاد عن ساحلها . فجاع
كثيرون . وتعذى بالحشيش ففة لا تملك القوت الضروري . ودخلت
الرحمة الى بعض القلوب . فبب اصحابها يتعهدون اللاجئين ،
والمحتاجين ، بما وصلت اليه ايديهم . وثارت عند بعض الناس ،
روح الطمع والجشع . فاغتسموها فرصة للاختكار ، والاثراء ،
والاستفادة من المصيبة . والمصيبة محك ، تدلك على الصالح من
الناس ، وعلى الطالح ، وعلى الجشع ، وعلى الحسيس . وبات
الناس يرقبون الخلاص . والخلاص يحمله الجيش البريطاني الزاحف ،
فهل يصل وفي لبنان رمق من الحياة ؟

ومرّ اليوم الثامن من تموز وليله . فكان سكوت يلفت النظر ،
فالطائرات لم تقذف بالقنابل . وفي الجبهة ، وعلى خط القتال ، لا
دوي ولا رعود . والسلطات في حركة مشبوهة . واعضاء اللجنة
الالمانية والايطالية يغادرون البلاد . وهناك همس بوقف القتال .
واذاع المذيع اللبناني في المساء ، ان دانتز طلب الهدنة ، وان
الجنرال ولسون وافق عليها ، وان الشروط في طريق التحضير .
هل حلت يوماً حلاً مزعجاً ، تحديق بك الاخطار ، وانت مشرف
على هوة مخيفة ، ويد الشر تجرّك الى الحافة ، لتقذف بك من عال
لتلقى الموت المحتم ، فتصرخ وتستغيث وتستجد بالله وبالناس ، ثم
تصحو من نومك مضطرباً ، وتشكر العناية على خلاصك من هذا

« الكابوس » ؟ هكذا شعر اللبنانيون عندما ابتقنوا من الهدنة .
ومع ان الخطر المحدث كان حقيقة ، وليس حلمًا ، غير ان المحنة
التي نزلت ببلدان ، مرت مرور الاحلام ، اذ لم تتعد العشرين يوماً ،
فشكر الله على الخلاص ، مترحمًا على الارواح البريئة ، التي ذهبت
على ذمة المستعمرين .

ووسط هذه الازمة القلقة ، والناس في هرج ومرج ، ورجال
السلطة العسكرية في حيرة من مصيرهم ، لم ينس الجنرال دانتر ان
هناك في البنك السوري ، كمية من الذهب الوهاج . فلماذا لا يحملها
الى بلاده ، قبل ان تزول السلطة من يده . والبنك السوري بأمر
بأمر المفوض السامي ؟ ولماذا لا نسلب البلاد من ذهبها الموجود في
المصرف على الاقل ، اذا كنا عاجزين عن خرابها ، قبل ان نسلبها للعدو ؟
وهكذا تسلم دانتر الاربعمائة الف من الليرات الذهبية . ووضع
المصرف في خزائنه وصلاً يحمل توقيع الشريف . وانتهت المأساة .



الفصل الخامس

بعد المعركة

- ١ -

وعدود ووعدود

عندما صمم الحلفاء على احتلال سوريا ولبنان ، بعد ان مهدوا السبيل لذلك ، بمختلف الدعايات ، وبالصاق التهم المتعددة بسلطات فيشي واسيادها المحوريين . وبعد ان رأوا ان الاستراتيجية الحربية توجب ، بان تكون هذه البقعة المهمة من الشرق ، تحت مطلق تصرفهم ، بدلا من ان تكون واسطة لتمرکز سلطات المحور ، ونفوذ سياسته ، التي كانت آخذة بالازدياد . اقول بعد ان توطدت عزيمة الحلفاء على هذه الخطوة ، نشر القائد العام البريطاني لجيوش الشرق ، والجنرال كلترو القائد الفرنسي لجيوش الشرق الحرة ، بيانا على السوريين واللبنانيين ، نثر في المدين وبالقري بواسطة الطيارات ، التي كانت تحلق في جو البلاد ، في الاسبوع الاول من شهر حزيران سنة ١٩٤١ ، جاء فيه : « ان جيوش الحلفاء اعترمت احتلال البلاد ، وغايتها الوحيدة هي طرد الالمان والاطليان ، وعملاتهم الفيشيين ، وانقاذ البلاد من سياسة الارهاق والتجويع ، التي درجت عليها سلطات فيشي ، خدمة لاسيادها الالمان . » وقد اعلن

٦٧

البريطانيون والفرنسيون الاحرار ، انه بحال دخولهم سوريا ولبنان ينتهي عهد الانتداب ، وتصبح سوريا ولبنان ، دولتين مستقلتين صاحبتى سيادة . وقد ايد هذا التصريح السيد « تشرشل » رئيس وزراء بريطانيا العظمى ، والسيد « ايدن » وزير خارجيتها ، في مجلس العموم البريطاني ، والجنرال « ديغول » رئيس فرنسا الحرة . اذن هم دخلوا البلاد بوعد صريح ، لا يقبل الجدل ، واعترف رسمي من اقطاب الحليفتين ، باستقلال كامل ، وبسيادة قومية تامة . واذا كانت الحكومة البريطانية اجازت لرجال فرنسا الحرة ، ان يتولوا هم المفاوضة مع الهيئات الوطنية الرسمية ، لتنفيذ هذا الوعد والتصريح ، غير انهم اشتطوا ان لا يس هذا التدخل او هذه الاستنابة ، سيادة القطرين التامة . وهم انما فعلوا ذلك ، لسياسة عالية ، تقضي بمسيرة الفرنسيين ، ولكي لا يتهمهم الاخضام ، بانهم يعتقدون على حقوق فرنسا ، وهم في ظرف يقضي عليهم بان يظهروا للملأ ، انهم لا يعملون في سبيل مصلحة خاصة ، او بقصد ضم اراضي الغير . حتى بعد سقوطها ، ظلت فرنسا تدعي بحق لها ، وبريطانيا تسير « الديغولين » طمعاً بمساعدتهم ، وخدماتهم ، وتهدة لحواطر « الفيشيين » ، كي لا يزداد خنقهم عليها ، فيرتوا في احضان عدوها الالد « هتلر » . ولكن هي خطوة اولى في خطب ود البلاد السورية واللبنانية . فليعلن الاستقلال ، ولو على يد الفرنسيين ، والمستقبل يكفل لنا حق التدخل ، ويفتح امامنا مجالا كانت ترقبه دواثرنا السياسية ، منذ قرون عديدة . والانكليز في سياستهم ، يمشون خطوة فخطوة ، متذرعين بالثبات والصبر ،

ومتحالفين مع الأناة والوقت والزمن . .

واسرف الغزاة بالوعود . وتعددت تصريحات اقطاعهم ،
بانقلابات خطيرة في البلاد لمصلحة اهلها ، من الوجبات السياسية
والاقتصادية . وتونح الاهلون ، وعللوا الآمال بعهد جديد ،
ينسيهم ما قاسوه من عذاب ، وما واجهوه من صعوبات ، ان في
الاحكام او في الاعاشة ، او في التعامل التجاري والاقتصادي .
وها هم الحلفاء يعدونهم باستقلال كامل ، وبعامل حر مع جيرانهم
من الاقطار العربية ، وتثبيت تقدمهم على الاساس الاسترليني ،
وبتموين البلاد التي افقرها « الفيشيون » . واكثر من كل ذلك ،
بتحقيق حلمهم ، وذلك برفع كابوس الانتداب عنهم . هذا الانتداب
الذي كان اشد ظلاماً ، واقسى حكماً من الاستعمار . فاطلقوا على
الجيوش الفاتحة لقب « جيوش الانقاذ » ، واستقبلوها بالفرح
والسرور والزغردة . وباتوا يرقبون تحقيق الآمال . وكانت
الاحتفالات تتوالى هنا وهناك ، في المدن ، وفي القرى ، وفي
البيوت ، حيث يدعى افراد الجيش الفاتح من ضباط وافراد ، بما
دعا البريطانيين الى ان يصرحوا بانهم لم يلاقوا بلاداً استقبلتهم
بحسن وفادة وبضيافة ، كما استقبلوا من اللبنانيين . فاحبوا لبنان ،
وسمعت من كثيرين منهم ان هذه البلاد هي احب البلدان اليهم
بعد بلادهم . والانكليزي يحب العيلة ، ويسر بالاجتماعات العائلية .
وعليّ ان اعترف لهم ، وانا في هذا الحديث ، بطيب الاحدوثة ،
وبآداب السلوك ، في محالطتهم الاسر ، ودخولهم الى بيوت
المستقبلين . واذا غاب البعض على فئة منهم ، تصرفهم في الشوارع

والمقاهي ، عندما كانت تلعب في رؤوسهم الحجرة ، فما كان هذا
كافياً لحرمان المجموع من ميزات وصفات ، اتصفوا بها وكان منها
فائدة للبلاد ، والكثيرين من اهلها .

- ٢ -

يقظة الطمع

لا شك في ان دخول الجيش البريطاني الى لبنان ، فتح باب
الرزق بوجه الكثيرين من اصحاب الاعمال والارتفاق . فمقاولات
السلطة العسكرية البريطانية ، ومشروعاتها ، والاشغال الكثيرة التي
كانت تقوم بها ، باسراف ، اوجدت عملاً للمتعبدين ، والمهندسين ،
والعمال ، والتجار ، واصحاب المصالح . ورمت في اسواق البلاد
كميات وفيرة من النقد . فازدهرت التجارة . وكثرت الارباح .
وارتفعت الاسعار ، الى حدود جنونية . ناهيك بالبذل السخي ،
الذي تميز به الاستراليون المترفون . فكانت المقاهي بالوعة لاموال
اولئك الجنود ، وكان المتاجرون بالجنة (البيرة) في رأس الرابحين .
واني اعرف مصبغاً للجنة كان معدل ربحه اليومي ، الف ليرة ولربما
الالفين . والمعالون من الناس قالوا انه بلغ الاربعة آلاف ، ولم تقل
ارباع غيره من المصانع والمتاجر عنه بكثير . ولم يبق هنالك
عاطلون عن العمل ، اذ لم يحرم الاستفادة ، الا من كان كسولاً
متقاعساً . حتى الاولاد كانوا يربحون . والبريطانيون ، لا سيما
الاستراليون منهم ، يعطفون على الاولاد . هي شعلة انسانية في

صدورهم ، تم عن خلق طيب . ولا بأس في ان اذكر عن اولئك
الجنود ، استبازهم بالانظمة ، وتبذيرهم مقتنيات الجيش ، اذ كانوا
يفرطون بها ، حتى عن طريق السرقة ، فيبيعون ما يسرقونه بأسعار
بخسة لبعض المنتفعين ، والمنتفعون كثيرون . وكانت هذه الارباح
سبباً لتضخم النقد ، مما لم يسبق له نظير . وكثر التعامل بين الناس ،
وازدهرت الاسواق ، واثرى عدد كبير من اصحاب الاشغال
والاعمال . ومع ان الغلاء الذي تفشى في البلاد ، كان مثيراً
لشكوى الكثيرين من اصحاب المداخل المحدودة ، واصحاب المهن
الحرّة ، فان المجموع لم يشعر بالفاقة التي استحوذت عليه ، في اثناء
الحرب الماضية . ولو كان في البلاد حكومة ساهرة كغيرها من
حكومات البلدان الاخرى ، لما كان لهذا الغنى التي طافت به
البلاد غير الاثر المستحب . ولكن بلية هذه البلاد كانت دائماً من
حكوماتها المستبثرة الفاسدة . فبدلاً من ان تكون هذه عوناً للضعفاء ،
وحرباً على الجشعين والمحتكرين ، فقد كان اولئك يمزأون
منها ، ويستخدمونها بشئ الاساليب المغرية لمصالحهم الخاصة ، لا
يردعهم رادع ، ولا يوجهم ضمير ، حتى خلتهم في اعمالهم ومتاجرهم ،
ينقلبون الى ذئاب ضارية يسعى واحدكم لافتراس غيره . اني لم
اشهد في حياتي تكالباً على المال ، وطبعاً اشعباً مخجلاً كهذا الذي
شهدته في هذه الآونة . لقد جعل اولئك من الغنى عرساً تربعوا
فوقه . ولعب بهم الغرور ، فتوهوا انهم يفوقون اقربانهم ذكاه
ونباهة ، فانصرفوا الى التبعج ، وادر كسهم الحيلة . لله من قوم
تضخمت جيوبهم ، وضربت عقولهم ، فحاولوا ان يروا في المال فقط

٦٧

١

سبيلاً الى العلاء. وقد غاب عن مداركهم الهزيلة ، ان العالم الذي يتخبط اليوم في ديجور حرب عالمية مضنكة ، ستهب بكثير من النظم القديمة البالية ، لن يرضى بان يقيم من ابنائه حراساً على اموال اغترفها بعضهم ، وجعلوا منها آلهة تستحق التمجيد والتقديس . وهذه الدماء التي سفكت بسخاء ، لم تهدر لتروي مطامع الطامعين . من اصحاب الثراء ، ورؤوس الاموال والاقطاعين . فما هذه الحرب الا ثورة عالمية شاملة ، ستقلب المدينة بعدها الى مدينة تسود فيها الاشتراكية الصحيحة والديمقراطية الحقيقية ، المؤسسة على العمل والانتاج : مادياً كان ، ام فكرياً وثقافياً .

- ٣ -

محاولة لانسكث باليهود

بعد ان هدأت الحركات العسكرية ، واستقر الامر للجيش ، بدأت المساعي السياسية تنجلي ، فكان على السلطات الخليفة ، ان تبرر بعuroها وتعترف باستقلال لبنان كدولة مستقلة ذات سيادة ، وكان ان سبق الاعتراف بدولة سوريا في شهر ايلول . وانتظر اللبنانيون ان ينالوا من الحلفاء ما نالته سوريا ، ولكن الفرنسيين ، الذين هالهم ان تقلت من يدهم مقدرات لبنان ، وهم يعتبرونه « فرنسا الشرق » ، ويطمعون في ان يبقى نفوذهم فوق كل نفوذ ، اخذوا يعدون العدة لحملة سياسية في هذا السبيل ، لا سيما بعد ان لاحظوا اهتماماً مستتراً ، من قبل حلفائهم البريطانيين . وكان

اللبنانيون قد اظهروا بشى الاساليب تقريهم من السلطات البريطانية
 التي رأوا فيها ، ضمانات اجدى من ضمانة فرنسا بعد انهارها ،
 وسوء تصرف عمالها هنا ، ورأوا في السلطة الانكليزية مساعداً لهم
 على انتقاذهم من براثن الازمة المستحكمة ، بما بذلته هذه السلطة من
 الجود في سبيل تموين البلاد ، وتشغيل عمالها وازدهار الحركة التجارية
 فيها . وفوق هذا فهم لا يخشون من الانكليز طمعاً يهدد كيانهم
 الاستقلالي ، وابتغوا ان اولئك لا يخشون من مزاحمتهم لهم ، في استثمار
 مرافقهم كما كانت الحال مع الفرنسيين ، ولولا خشية البعض من
 « ببيع » الصهيونية ، التي كانت السبب في ابعاد العرب عن الانكليز ،
 لكانت البلاد كلها تظاهرت علناً تأييداً لهم . ولذلك احتفظ هذا
 البعض متربصاً الى ان ينجلي موقف الحلفاء . والانكليز في سياستهم
 كتمومون ، وهم يتظاهرون بحياء تام من القضية اللبنانية السياسية ،
 فسياستهم مع « الديغوليين » تقضي بعدم التدخل في شؤون لبنان ،
 فلفرنسا حق المفاوضة معه وعلان استقلاله ، وهم لا يتدخلون الا
 لتسهيل هذه المفاوضة . ألا يكفيهم الآن حق اثبته وزير الدولة
 « ثلتون » ، في مكتوبه من نزل صوفر ، الى الجنرال ديغول في
 شهر ايلول يعترف فيه باستقلال لبنان وبيادته ، ويحصر حق
 المفاوضة معه بفرنسا الحرة الى ان يعلن هذا الاستقلال ، وباستعداد
 بريطانيا للتدخل لتسهيل هذه المفاوضة ، وبجواب ديغول رسمياً انه
 اخذ علماً بذلك ؟ اذن لقد اصبحت لبريطانيا سهم في القضية اللبنانية ،
 وهي به قانعة في الوقت الحاضر . فلتفاوض فرنسا الحرة ، ولتعترف
 باستقلال لبنان وبانتهاء عهد الانتداب في حفلة رسمية ، وعندما

يصبح هذا حراً مستقلاً له الصلاحية المطلقة ، بالتعامل والتعاقد مع الدول الاجنبية بدون ضغط السلطات الفرنسية ، وعندما يصبح لهذه الدول الحق بمخاطبته رأساً ، وبدون واسطة الدولة المنتدبة ، فلا خوف اذ ذاك على السياسة الخارجية البريطانية ، ان تفشل في جذبه اليها ، وعوامل الجذب في « دونغ ستريت » اكثر من ان تحصى ..!

ولكن ، هل يسكت الفرنسيون عن هذه البلفة الانكليزية ؟ وهل يرضيهم استقلال كامل في لبنان يمنع عنهم لذة الحكم وطعم الاستئثار ، ويجردهم من امتيازات تمتعوا بها ، وحقوق مارسوها بدون رقيب او محاسب ، وارباح جناها افرادهم وموظفونهم وشركائهم ، نيفاً وعشرين سنة ؟ واولئك الذين وجدوا منهم هنا ، في هذه الظروف التحق منهم من التحق ، بالحركة « الديغولية » طمعاً بسعة العيش الذي كانوا يأملون به من هذا الالتحاق ، وليس حماساً للمبدأ الذي اعلنه الجنرال ده غول ، والقلائل الذين تبعوه ، وقد كنا ، نحن اللبنانيين ، نعرفهم واحداً واحداً . هم في داخلهم « بتانيون » ويكرهون الانكليز ، تتأجج في صدورهم نار الحسد منهم ، وينتقمون ممن يتظاهرون بميله لاولئك ، والفرنسي بطبيعة حسود ، والحسد رفيق الضعف والمسكنة . هم تناسوا حالة فرنسا وانهارها ، وسقوط حقها في الانتداب ، بعد ان اصبحت مستعبدة . حتى دولياً ، لم يبق لها حق في انتداب اعطتها اياه جمعية الامم ، التي انسحبت منها رسمياً بعد ان ماشت حكومة فرنسا سياسة المانيا . وحكومة فرنسا هي حكومة فيشي ، والدول باجمعها بقيت تعترف بها حكومة فرنسا

الحقيقية . وما الحركة الديغولية ، الا حركة شرود اذا كانت
تعمل في سبيل خلاص بلادها بمساعدة الحلفاء ، فالقوانين الدولية
لا تجيز لها ان تكون وارثة حقوق فرنسا وامتيازاتها . وهؤلاء
الفرنسيون الموجودون هنا ، لا يهمهم من خلاص بلادهم وبعضها ،
الا ان يبقوا في هذه البلاد يستعمرونها ، ويستثمرون خيراتها
ومرافقها ، حتى اذا حظوا اي مسعى لحرماتهم من هذه الامتيازات ،
طفغوا وتجيروا ونادوا بالويل والثبور ، وذكروا امجادهم وتقاليدهم ،
ورجعوا الى اصدقائهم التقليديين ، يسترضونهم ويستعطفونهم ،
واستعملوا سلطة تركيا بيدهم السياسة البريطانية . وكان سلاحهم ،
كما كان دائما ، بعث الغنعات الدينية والمذهبية ، في بلد تعددت
طوائفه ، وتحاسدت ابناءؤه ، وبلاه القدر بادبانه وزعمائه .
والانكليز هم اشد رغبة منهم في استعمار هذه البلاد ، ولكنهم
الآن يتفرجون ، اذ ان السياسة العليا تقضي عليهم بتطويل الجبل ،
الى ان يأتي يومهم فيعملون . المهم كسب الحرب ، واذا كسبوها
يكون لكل حادث حديث .

— ٤ —

الجنرال ديغول على المسرح

وها هو الجنرال ديغول يصل الى بيروت ، بعد ان استقرت
فيها جيوش الحلفاء ، ليفتح سياسة فرنسا الحرة فيها . والجنرال
ديغول لا يزال في طور الشباب ، طويل القامة ، مهيب الطلعة ،

٧١
تبدو على وجه امارات العزم والحزم . وهو الذي تورد على
الحكومة الفرنسية ، ولم يدعن لاستسلامها للعدو . ففضل النضال
بجانب حلفائه الانكليز ، ففتحت له حكومتهم ذراعيها ، ووعدته
بالمساعدة المادية الى اقصى حد . عاهدته على المحافظة على كيان
فرنسا وعظمتها بعد النصر . وهذا الجنرال الشاب ، ذو تاريخ مجيد
في حياته العسكرية ، وقد دعي للوزارة الفرنسية . قبل الانهيار
بقليل ، واستطاع ان يغادر بلاده الى انكلترا قبل الاستسلام
بيضة ايام . ان في صدر ديغول روحاً وثابة نائرة ، وفي عقله شعلة
من الذكاء نادرة ، يظهر على محياه الاقدام ، ويتجلى في خطبه
الاخلاص . هو خطيب مصقع ، ذو بيان وذو جاذبية خاصة تحببه
الى مستمعيه ، والمقرئين اليه . هو يعرف اغلاط مواطنيه ، وبلوم
الرجال الذين قاموا على مقدرات بلاده ، ويسعى لاصلاح
الحطيات . ولكن ليس كل ديغولي ديغول في اخلاقه وعقيدته
واخلاصه .

منذ ان وطئت اقدام الجنرال ديغول ارض لبنان ، ابتدأت
الحركات والمناورات السياسية . وكثر المشغولون في القضية
الوطنية . بعضهم يرون الفرصة سانحة للتخلص من نير الحكم
الاجنبي القاسي . هذا الحكم الذي سموه انتداباً ، ولم يكن في
الحقيقة الا استعماراً قاسياً . وآخرون يرغبون في ان يكون
لبريطانيا العظمى يد في مقدرات البلاد ، لانها اقدر على المساعدة
من فرنسا . وهناك فئة من الانتهازيين ، لا يهمهم من الامر ، الا
ان يتربعوا في دست الاحكام ، ولو على يد اي كان . وها هو

الجنرال ديفول يشرع في مفاوضاته . ومن الطبيعي ان يحصر استشاراته بالزعماء الذين سبق توليهم الحكم ، في السنوات العشرين التي مضت ، والرجال الذين كانوا يسمونهم نواباً ، معينين او منتخبين ، باشارة وتأثير رجال الانتداب . (راجع التعليق على الانتخابات في الفصل الثاني) . وهؤلاء المستشارون كلهم من صنائع الفرنسيين وعملائهم ، ولا يزالون يسايرونهم ويعقرون وجوههم ، امام سلطانهم ويرغبون في دوام نفوذهم في لبنان ، لمصلحتهم الشخصية لا سيما وهم قد رأوا من السلطة البريطانية حياداً (ظاهرياً) تجاه القضية اللبنانية .

لذلك كثرت اجتماعات هؤلاء الرجال الى الجنرال ديفول ، وتعددت الولائم والزيارات . وتناثرت البلاغات عن هذه المجاملات ، وقطعت الوعود والعهود ، وارتاح ديفول ومعاونوه الى هذه المحادثات ، وأمل في دوام العز الذي كان لفرنسا في هذه الديار ، وبدأوا يهيئون العدة لمعاهدة تعقد بينهم وبين السلطات الوطنية في لبنان ، تبنى على اسس العلاقات القديمة ، وتفرض على لبنان مساعدة فرنسا دون سواها . والمستقبل كفيل بتفسير هذه المساعدة . قديماً فسروا في جنيف وباريس ولندرة الانتداب . وغداً يقوم ساسة غير الاولين ليفسروا هذه المساعدة . ولكن هنالك فئة من اللبنانيين ادركوا مغزى هذه المناورات ، ووقفوا حائلاً دونها ، وطالبوا السلطات الوطنية والبريطانية والفرنسية ، بالاكفاء بالغاء الانتداب والاعتراف بالاستقلال الكامل ، وتأجيل عقد المعاهدات الى ان ينقشع الجو وتضع الحرب اوزارها ، وتستقر السياسة الدولية ،

لا سيما وان الحركة الديغولية لم يُعترف لها بصفة الدولة التي يحق لها عقد المعاهدات السياسية . وها هي بريطانيا نفسها واميركا لا تعترفان بها ، الا حركة قائمة بوجه الحكومة الفرنسية الحقيقية . فما الفائدة من معاهدة تعقد معها ؟

اما استشارات الجنرال ديغول لبعض الشخصيات المختارة ، فكان لها وقع سيء ، واوجبت احتجاجات وانتقادات لم يكن هناك يد من توجيهها للقائمين بها ، لعدم شمولها فئات مفكرة معروفة بنبوغها الاستقلالية وتزعاتها السياسية . وفي ذلك الحين وجه احدهم الى الجنرال ديغول الرسالة المضمونة التالية ، ومع انه اخذ علماً من دائرة البريد بارسالها بتاريخ ١٢ اب سنة ١٩٤١ . ورقم ٤٥٩ ، ووصولها الى دائرته في ١٣ منه ، فانه لم يتسلم عنها جواباً . فقبل كان ذلك استهتاراً من حضرته ، او ان بعض اعوانه وقفوا صدىً دون وصولها اليه ، واولئك الاعوان الذين ذقت منهم بلادنا الامرئين ، في اثناء وجودهم فيها ، لا يرغبون ان يتصل به الا من كان على هواهم ، عاملاً لهم ، خادماً لاغراضهم ونياتهم ومصالحهم . وهذه هي الرسالة :

يا فخامة الجنرال .

اسمح لي ان اتجاسر واخاطبكم رأساً ، هرباً من ديكتاتورية المراقبة المتطرفة ، التي قد تمتع وصول كلمتي الى فخامتكم ، في حال اتباعي الطريقة الرسمية .

ان البلاد قادمة على وضع سياسي ، يضمن لها استقلالها بعد ان

اصبح الانتداب ملغى كما صرحتم فيخامتكم ، وهي مع شكرها
الجزيل تأمل الوصول الى اهدافها على يديكم .

ولقد بادرت في الآونة الاخيرة ، للاتصال ببعض الشخصيات
الوطنية ، لتقفوا على رغبة البلاد ، فبرهنتم على انكم تعتمدون الطرق
الديموقراطية في عملكم المقبل .

ولما كان الاستفتاء الذي تقومون به ، لا يكتسب من الوقوف
على آراء مختلف الطبقات ، اذا انه ينحصر في بعض الشخصيات الذين
تجتمعون بهم ، واكثرهم من الذين تولوا المناصب والمراكز في
العهد الفائت . ولما كانت الصحافة هي الطريق الوحيدة ، لا يصل
آرائنا اليكم نحن الذين لم نتبوا ، ولن نطمح الى تبوء اي مركز
حكومي ، ولا مصلحة خاصة توجه افكارنا .

ولما كانت المراقبة التي ظننا انها ستكون اخف وطأة
من ذي قبل ، تكتم افواهنا اذا صار لنا ذوي السلطة برغبات
البلاد الحقة .

لهذا اتينا بكتابنا هذا ، راجين الى فيخامتكم ان تعزوا
للموكل اليهم امر المراقبة ، كي لا يجعلوا من تشدهم المتطرف
عثرة في سبيل ابلاغ السلطات برغبات الشعب وشكاويه وآماله .
بهذا فقط يا صاحب الفخامة ، يأتي استفتاءكم منطبقاً على الروح
التي اظهرتموها في تصريحاتكم . اما اذا دامت هذه القيود ، وبقي
الاستفتاء محصوراً بفئة من اللبنانيين ، لا يسمح ماضي اكثرهم بان
يكونوا ممثلين للرأي العام باجمعه ، فاسمح لي يا صاحب الفخامة ان

اصارحكم بكل تواضع ، ان العمل الذي يقوم على رأي هذه
الشخصيات فقط ، لن يُضمن له النجاح الذي نرغبه نحن ، وترغبونه
فخامتكم . واني ارجو ان تتنازلوا باجابتي على هذا الكتاب ، كي
اتيقن من ان الذين لا يريدونكم ان تتعرفوا الى رأي المجموع ،
لم يعشوا به قبل وصوله الى فخامتكم وتفضلوا »

- ٥ -

الحرية الفكرية في سلسلها

ولكن يظهر ان الايدي عبثت به على باب مكتبه . ولا بد ان
اذكر ان المراقبة كانت في يد السلطة الفرنسية ، تقبض عليها بيد
حديدية تسيورها لغاياتها ، تجيز ما كان يوافق اغراضها وتمنع ما كانت
لا ترغب فيه ، ولو قضت به المصلحة الوطنية . واذا عرفت انها
القارىء مدى الاهتمام الذي كانت تظهره السلطة الفرنسية في سياسة
البلاد المحلية ، ادر كنت معي شدة وطأة المراقبة على حرية القول
والفكر في هذا البلد . لقد كانت هذه سلاحاً بيد الفرنسيين تحارب
به ، بلا هوادة ، كل من كان خارجاً عن ارادتها ، عاملاً في سبيل
استقلال يمنع على الفرنسيين تدخلهم في صلب حياتنا الداخلية .
لقد اتخذوا من الحرب ذريعة لابقاء هذا السلاح بايديهم . اذ انهم
يمثلون السلطة العسكرية . فلماذا لا يستعملون هذا السلاح لمصلحة
رجالهم وعملهم ؟ ايرمون سلاحهم امام اللبنانيين كما رموه امام
عدوهم الخيف في اوروبا ؟ لا ، ان اللبنانيين شعب ضعيف لا يقوى

على مجابيتهم بقوته . والشعب الضعيف اذا كان من شعوب الشرق ، لا يلاقي بين الامم الغربية من يساعده على احداها . وها هم البريطانيون ، مع انهم تعبدوا باستقلال لبنان استقلالاً تاماً ، ومع ان سلطتهم اليوم هي فوق كل سلطة في هذه الاقطار ، لا يرون ، لحكمة نجلها ، ان يساعدوا اللبنانيين اذا اشكى هؤلاء من تبرم الفرنسيين من عبودهم ، واذا طالبوا بحقوق اعترفوا لهم بها ظاهرياً ، انما هم يعملون على انكارها بشئ الاساليب التي وضعتها في يدهم القوة : هذه القوة التي تراها متجلية في بعض الامور ، ثم تضل اتجاه سياسات وبماحكات ، احياناً تقليدية ، واحياناً طائفية ، ولكنها دائماً هدامة ومضرة . وليت المراقبة اقتصر على الشؤون العسكرية والسياسة الدولية ، اذن لحقت المصيبة نوعاً .

غير ان المراقبة كانت عثرة في سبيل كل من طلب اصلاحاً : ان في حقل السياسة الداخلية ، او في الحياة الاجتماعية ، او فيما يتعلق بالعقائد الدينية . اكتب كلمة او جملة ، يشتم منها انتقاد احد الموظفين الفرنسيين ، او قل ان اللغة العربية مغبوة في معاملات الدواوين ، او كن من مؤيدي التآلف والتآخي بين الاقطار العربية ، او انتقد احد التقاليد الدينية والطائفية ، والطوائف في بلادنا تعد بالعشرات ، ورجالها يغذون غنعتها المفرقة ، او قم بجملة صحفية ضد رئاسة دينية ، او ضد ارسالية اجنبية ، لا هم لها الا بـث الدعاية المغرضة ضد الاتحاد الوطني وخدمة الاستعمار ، او كن من مؤيدي الطبقة الفقيرة العاملة ، ضد جشع الاغنياء والمحتكرين ، او بين الفساد المتغلغل في تدابير السلطة في حقول الاعاشة ، وفي

المحاكم الاستثنائية التي اقاموها في هذه الآونة ، فكانت وكراً
 للفضائح والرشوة والاختلاسات ، ما لم تسمع بها اذن في بلد من
 بلدان الله . واذا تجرأت على قول الحق ، وكان الحق لا يوافق
 رغباتهم ، فكن واثقاً من ان ما تكتبه ، سيمر عليه القلم الاحمر
 في دائرة المراقبة ، التي بقيت رغم الاعتراف بالاستقلال من
 صلاحيات السلطة الفرنسية . قالوا ان الحرب توجب المراقبة .
 ولكن تناسوا ان هذه المراقبة وجدت فقط في جميع البلدان المحاربة
 لمنع التحرش بالامور العسكرية ، والتي قد يستفيد منها العدو ، او
 لمنع دعايات هي ضرر على سير الحرب . ولكن هنا اخذوها وسيلة
 للضغط على الحرية الفكرية ، ولتسيير الامور حسب رغباتهم
 ولمصلحتهم . ولا عجب ان يكون هذا امرهم ، ففي السنوات
 العشرين التي حكمت فيها دولة الانتداب في هذه البلاد ، لم يكن لحرية
 القول والكتابة الضمانة التي كانت لها في بقية البلدان الديمقراطية .
 فكان بالمفوضية قلم للمراقبة في دائرة المطبوعات . واذا كانت
 هذه الدائرة لا تستلزم مراقبة الصحف قبل نشرها ، غير انها كانت
 تعطل الصحف ، عندما تنشر هذه شيئاً تعدد دائرة المطبوعات غير
 مطابق لآرائها وغاياتها . وسياسة قلم المطبوعات كانت قائمة على قتل
 الروح الوطنية ، وانعاش السياسة الاستعمارية ، واطلاق المجال
 للمصالح والمعاهد والمؤسسات الاجنبية ، ومسايرة الارشالات
 الدينية ، والسلطات الاكليريكية ، والاحزاب الطائفية ، بليّة
 لبنان في كل ادواره . واني استطيع القول ، بدون ان اتهم
 بالمغالاة ، انه لم يكن يمضي اسبوع او اسبوعان ، حتى يصدر امر

هذه الدائرة المستبدة بتعطيل جريدة ، او اقبال مجلة ، او توقيف
نشرة ، او منع بيع كتاب ، او انزال عقاب ، بحق كاتب او
خطيب . انه يكفي لبطريك ، او مطران ، او مفتي ، او مدير
شركة اجنبية ، او اقطاعي متنفذ ، او موظف كبير ، لاسيما اذا
كان فرنسياً ، ان يحنج على مقال نشر ورأى فيه اجحافاً على حقه
المرعوم ، او افتئاتاً على امتيازاته المقدسة ، لتتحرك سلطات
الانتداب وتنزل ضربتها على المدعى عليه ، متسلحة تارة بالمحافظة
على الامن العام ، وطوراً بالتوازن الطائفي ، ودائماً بالغيرة على
المصلحة العامة . والفرنسيون ، الذين كان همهم الوحيد التسلط على
هذه البلاد واستعمارها ، لم يلاقوا سلاحاً افضل من التفرقة الطائفية ،
والحزبية ، والثقافية ، للوصول الى اغراضهم . فكانوا يعملون لمقاومة
اية فكرة تقضي على هذه السياسة الهدامة العاشمة . وبالرغم من
كل ذلك ، وبالرغم من هذا التقيد ، هم يقولون ، والامم الاوروبية
تصدق اقوالهم ، وجمعية الامم توافق على تصريحاتهم ، انهم انتدبوا
على هذه البلاد ليسيروا بها الى الاستقلال . هذه هي مهازل السياسة
الدولية ، وهذه هي مقاصد الدول الاوروبية في الشرق ، عندما
خلاها الجو بعد حرب ١٩١٤ .

- ٦ -

زاعم باطل

وفي وسط هذا الجو الموبوء ، وتحت الضغط على الحرية الفكرية ،

زعم الديغوليون انهم خلفاء فرنسا المنتصرة، في حرب سنة ١٩١٤،
 ووارثو حقوقها، متناسين او متجاهلين ان فرنسا الحقيقية بعد
 انهارها في حزيران ١٩٤٠، واستسلامها لعدوها وعدو الحلفاء،
 وانسحابها بعد الاستسلام من جمعية الامم التي انتدبتها على سوريا
 ولبنان، لم يبق لها من حق، يخولها السيطرة على مقدرات هذين
 القطرين. فكيف بالديغولين الآن، وهم شرذمة من الفرنسيين
 الناقمين على فرنسا، التحقوا بانكلترا، تمرداً على دولتهم، كيف
 بهم يدعون ارثاً لا حق لهم به. وها هي انكلترا نفسها، واميركا،
 وبقية الحلفاء، لم يعترفوا بهم دولة لها حقوق الدول وعليها واجباتها.
 وهؤلاء لا يزالون يعترفون بان الحكومة الفرنسية الرئيسية
 والاصلية هي حكومة فيشي، اكانت تلك حليفة، ام عدوة،
 امينة ام خائنة. ولكن الانكليز قوم دهاء: هم لم يعترفوا
 بديغول وحكومته دولة قائمة بدل فرنسا الام، بل قالوا لهم انتم
 قسم ثائر، نحن نؤيدكم في نضالكم، ونساعدكم، بعد ان نضمن النصر،
 على بعث فرنسا المغلوبة. غير انهم فتحوا لهم باب السلطة في سوريا
 ولبنان، طمعاً في مساعدة يأملونها من فلول جيوش التقطوها من
 هنا وهناك. وما هي سوريا، وما هو لبنان، ليغضبوا من اجل
 هذه او ذاك، بضعة الوف من الفرنسيين المحاربين. فليكتف
 لبنان وسوريا باستقلال يعترف به اولئك الفرنسيون، ونحن
 الانكليز، نقضي سياستنا وغاياتنا، ان نغضض اعيننا عن مغايرات
 في تصرفات الديغولين، ولو كان بذلك غبن على حقوق هذين
 القطرين. ان هما الاقطران شريان، والشرقي مقروض فيه ان

لا يكون متغنّاً تجاه ابناء الغرب .

- ٧ -

استقلال مزعوم

كان على السلطة الفرنسية بعد الاستقرار ، ان تبر بمهودها التي قطعها ، بالاتفاق مع السلطات البريطانية ، للبنان ، فتعترف باستقلاله استقلالاً كاملاً بدون وصاية ولا انتداب . فرأت نفسها تجاه خطوة لا بد لها من ان تخطوها . ولكن هل تعلن هذا الاستقلال ، وتحتجب هي عن مسرح السياسة اللبنانية . ولبنان في نظرها نقطة الارتكاز لسياستها في الشرق العربي ؟ ومتى عادت فرنسا الى مصف الدول العالمية ، أ يكون لبنان خارجاً عن منطقة نفوذها ، وهل تجد في غيره بلاداً فيها من التفسخ الطائفي ، والاختلافات المشربية والثقافية ، وسيطرة المعاهد والمؤسسات الاجنبية ، لاسيما الفرنسية منها ، ما يساعدها على التغلغل في مصالحه ، والتدخل في ادارته ، والاشراف على مقدراته ، والاستفادة من تفرق طوائفه واخزابه ؟ اذن ، اذا كان لا بد من هذه الخطوة فلتخطها بحكمة وحذر . ولتكل امرها الى ممثلها السامي في هذه الديار الجنرال كاترو . ان فيه من الدهاء واللباقة السياسية ما يؤهله للقيام بهذه المهمة الشاقة .

قبل الجنرال كاترو المهمة . وانبوى لها بعزم وضلابة . فكان عليه ان يهيء الجو لاستقلال لا يخرج نطاقه عن الاستقلال الذي

وقع عليه مندوب فرنسا : « ده ماريتيل » ورئيس الجمهورية اميل اده ، ورفضت ابرامه الحكومة الفرنسية ، (راجع الفصل الثاني) ، وهو استقلال اسمي ظاهري . يقيد لبنان بفرنسا الى خمس وعشرين سنة ، قابلة التمديد من نفسها ، اذا لم يتفق على الغائها الطرفان ، ويجعل مندوب فرنسا حكماً عند اول اختلاف يقع بين الطوائف . واثارة هذه الاختلافات ، لا تحتاج الى كبير عناء في هذه البلاد ، وفيها من الرؤساء الدينيين ، والمعاهد الاجنبية ، والعنعات الحزبية ، والطائفية ، والمصالح الشخصية ، ما يكفل وقوعها لدى الطلب .

وقال كلترو ، لا بد من استفتاء البلاد قبل اعلان الاستقلال . واذا كانت ظروف الحرب الاستثنائية غير مؤاتية لاجراء انتخابات شعبية ، فاني اقوم برحلة استفتاءية في انحاء لبنان ، اقف فيها على رغبات الشعب ، واستمع الى آراء زعمائه واحزابه ، وابني بعد ذلك صرح الاستقلال المقبل . طريقة سياسية غريبة عجيبة . ان يذهب ممثل فرنسا الى منطقة من مناطق البلاد ، بعد ان يكون قد هيا لزيارته ، بالاوامر المعطاة للسلطات المحلية والبلديات ، اقامة الزينات والمهرجانات ، واعداد الخطب في بيروت ليلقيها الخطباء في لبنان . فاذا قال الناس « لتحي فرنسا » ، قال هو ، لبنان لا ينسى ما يربطه بفرنسا من اواصر المحبة وروابط التاريخ . واذا ما زار بلداً او مقاماً وجرى له استقبال مرموق ، ولا اهون من الاستقبالات والحفلات في هذه البلاد ، قال الا ترون في هذا ، ما يدلکم على ان الشعب لا يرضى بان تلقى مقدراته في غير يدي ؟

ولقد كان المحافظون والقائمون في المناطق يتبارون في اقامة الحفلات ، يعطون الاوامر للبلديات والمخاتير ، ليحشدوا الاهلين ، وينشدوا الاناشيد في حضرة القادم الكبير ، مسرفين بالوعود لبعضهم ، ومهددين بالوعيد للآخرين . واكثر اولئك كانوا من ضنائع الدولة الفرنسية ، التي يرونها للان قادرة على الثواب ومستعدة للعقاب . والموظفون في بلادنا ، تعودوا على الخنوع ، ومما لقة اصحاب السلطان . وكانت هذه السلطات تنظر بعين الحذر ، للمنطقة التي تشعر بعدم اندفاعها في تمجيد السلطات الفرنسية ، وتضمحل الحقد التي تعرف فيها ميلاً للبريطانيين ، حتى بلغ الامر ببعضهم ان منعوا رفع الراية الانكليزية في اثناء هذه الاستقبالات . هو الحسد ، وهو الخوف من ان يحتل الانكليز في قلوب الناس ، مركزاً يرون فيه خطراً على فرنسا في لبنان . ونذكر بلدة « الشوفات » وما نزل عليها من نقمة السلطة ، عندما فرضت هذه « غرامة السلاح » على لبنان ، فاصابها من وطأتها ما يرجع سببه الى تباطؤ الشوفاتيين في الاستقبال المفروض ، عندما قدم اليها كاترو في رحلته الاستثنائية .

وعند كاترو الى مسامرة المقامات الدينية . والمقامات الدينية في لبنان كلمة مسبوقة . ولرؤسائها تأثير كبير في البلاد ، يتبارون في التقرب من السلطة التي تقضي لهم مصالحهم الشخصية والطائفية . وكان الزائر السياسي يسعى لارضاء الجميع والتقرب الى الجميع . فاذا زار مقاماً من اولئك اعدوا العدة ليكون الاستقبال فخماً . هنا القلانس المتعددة الالوان ، وهناك العمائم المزركشة ، بيضاء ، وخضراء ،

٧٧
وسوداء . والجنرال كاترو يفيض بلاغة بخطبه ، وهو اديب موهوب ،
فصيح الكلمة ، طلق اللسان ، ينثر الوعود على المحتشدين فيضحون
« ليحي كاترو ولتحي فرنسا » فتشتر البلاغات في الجرائد والراديو
عن تعلق البلاد بفرنسا وبرجالها . والبلاغات صادرة من قلم
المطبوعات . وقلم المطبوعات في قصر المفوضية هيمن عليه
الفرنسيون وحدهم . والمراقبة تمنع النشر الا اذا كان هذا تمجيداً
لهم دون سواهم . هكذا شاءوا ان يظهر الرأي العام ، واليه
استندوا في تنفيذ عهودهم الاستقلالية .

وانتهى كاترو من زيارته ورحلاته . وعين يوم ٢٦ تشرين
الثاني سنة ١٩٤١ موعداً لاعلان الاستقلال . فازدان قصر الحكومة
بالرايات المتعددة ، وارسلت الدعوات الى السلطات والمقامات .
فوقف كاترو في الجمع خطيباً وقال : ان الاستفتاء الذي قام به في
لبنان ، على طريقته الغربية ، اظهر تعلق اللبنانيين بفرنسا ، وعدم
قبولهم الا ان تلقى مقدراتهم بيدها ، وهو يعدهم بقبول رغباتهم
(كذا) ، وان فرنسا ستساعدهم وتدافع عنهم ولن تتخلي
عنهم . ولذلك فهو يعلن استقلال لبنان معتمداً بذلك اتفاق
سنة ١٩٣٦ ، الى ان يعقد بين البلدين معاهدة تجدد العلاقات
بينهما . وهو يعين السيد « الفرد نقاش » رئيساً للجمهورية
الجديدة « المستقلة ... »

ثم اجابه الرئيس ، وكان جوابه اكثر تحفظاً ،
فلم يأت على ذكر اتفاق سنة ١٩٣٦ ، لمعرفته ان ذلك لا يرضي
اهل البلاد . واطلقت المدافع ايذاناً واحتفالاً بالعهد الجديد .

الفصل السادس

استقلال جديد

- ١ -

استقلال وتحفظ

من سنة ١٩٢٠ ، الى سنة ١٩٤١ ، شهد لبنان اربعة انواع من الاستقلال : فمن استقلال لبنان الكبير الذي اعلنه الجنرال غورو ، الى استقلال السيد جوفيل الذي تطور فيه لبنان الكبير الى الجمهورية اللبنانية ، الى استقلال الكونت ده مارتيل الذي بني على اساس معاهدة بين حليقتين هما فرنسا ولبنان ، الى هذا الذي اعلن اخيراً في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ . وانا الذي عشت في لبنان طوال هذه المدة ، اشهد بضمير مرتاح ، انه لم يكن في هذا البلد يوماً من معالم الاستقلال سوى اسمه . انهم كانوا يعيدون له ، وكانت الحكومة تتشبه بالحكومات المستقلة ، فتتألف من رؤساء ووزراء ومجالس نيابية . وكانت المحاكم تحكم باسم الشعب اللبناني . ولكن - لعنات الله على لكن - كان هناك في قصر المفوضية قوة ، تارة ظاهرة ، وطوراً خفية ، تتدخل في كل امر من امور الدولة ، وتقرض ارادتها غير عابئة باستقلال معلن او سيادة موهوبة . فاي قرار يصدر ، او اي تدبير يتخذ ، كان عرضة للرفض ، او للتعديل

باسم المفوضية . وكثيراً ما كان هذا الرفض نزولاً عند ارادة شعبية من شعبها ، او شركة اجنبية ، او ارسالية من الارساليات الدينية ، او محافظة على مصلحة شخص له في دوائرها نفوذ مرموق . ولم يخل عمل من الاعمال في هذه البلاد ، من تدخل مباشر او غير مباشر من قبل السلطات هذه . حتى اتفه الامور كان لها فيها الرأي الاول . وما هو هذا الاستقلال الموهوم ، اذا كانت السلطة الوطنية لا تستطيع ان تستأثر بعمل ما ، او بتعيين موظف ، كبير أو صغير ، حتى ولو كان مختاراً او كاتباً او ناطوراً ؟ ولماذا لا يتدخل المستشار او الموظف الفرنسي ، اذا كان باب التدخل مفتوحاً لديه ، وله من ذلك منفعة ؟ والفرنسيون الذين مارسوا السلطة في هذه البلاد ، في اثناء الانتداب ، كانوا يطمحون الى السيادة ، ويطمعون في الثراء . وفي لبنان ميل الى الوظائف . واللبناني شغوف باحتلال المراكز الحكومية ، مستعد لشراؤها من اي بائع ، او على يد اي سمسار ، يساعده على الاستمتاع بها .

ولكن الحرب ، ومركز فرنسا الدولي بعد انهيارها سنة ١٩٤٠ ، ووجود السلطة البريطانية ، التي رغبت في ان يُعترف باستقلال لبنان ، اوجبت على السلطات الفرنسية ان يكون استقلال سنة ١٩٤١ ، غير ما سبقه عندما لم يكن هناك رقيب ، او شريك ، اللهم ما عدا رقابة جمعية الامم الاسمية . والآن ، منذ السادس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، اصبح لبنان مستقلاً استقلالاً لا بأس به ، اذا ما اُسيماه استقلالاً فعلياً . واذا كان لم يخل من بعض الشوائب ، فهي ترجع الى حالة الحرب الاستثنائية من جهة ،

وسيادة السلطات العسكرية من جهة ثانية، والى ضعف وميوع اكثر الرجال الوطنيين، الذين عينتهم السلطة الفرنسية، ليدروا مقدرات البلاد بعد تنازلها عن الانتداب من جهة ثالثة. وكان من الطبيعي ان اولئك الذين تعودوا على الخنوع والاذعان، لرجال الانتداب في الماضي، لا يجرؤون على مجابتههم وانتزاع الصلاحيات من يدهم. فممارسة الاستقلال الفعلي، يلزمه رجال غير الذين كانوا يمارسون قبلاً استقلالاً موهوماً.

وللمرة الاولى تعترف الدول الكبرى باستقلال لبنان، وتعين من قبلها معتمدين سياسيين تجاه حكومته، كما تفعل تجاه الدول المستقلة. فقد عينت حكومة صاحب الجلالة البريطانية، الجنرال «سيروس» وزيراً مفوضاً. وعينت حكومة الولايات المتحدة، «المستر وادسورث» معتمداً سياسياً. وقد قدما اوراق اعتمادهما الى رئيس الجمهورية اللبنانية بصفة رسمية. واذا كان موقف الحكومة البريطانية، فيه شيء من الابهام السياسي، مسايرة للفرنسيين المنضمين اليها، والحائذين من ان يقلت لبنان من يدهم، كما عودتنا المداورات السياسية الاوروبية الاستعمارية، فها هو المستر وادسورث الوزير الاميركي، يعمد الى الصراحة الاميركية في خطابه، عندما قدم اوراق اعتماده الى الرئيس، فيقول فيه: «اني اعلن بتأكيد قول الرئيس روزفلت، ان قصد الحكومة الاميركية من تعييني، هو ان تظهر بصراحة عطفها على امانتي الشعب اللبناني نحو الاستقلال التام. ان حكومتي لتدري بان ممارسة حكومة فخامتكم للسلطات المطلقة، مقيدة اليوم بمحدود

تقتضيها ظروف الحرب . ولكنها تتطلع بيقين الى اليوم الذي
تصير فيه هذه القيود غير لازمة ، الى ذلك اليوم عندما يتمتع العالم
بمنافع السلام . فيتمتع الشعب اللبناني ، بالحقوق والتبعات العائدة
الى الدولة المستقلة ، استقلالاً ناجزاً . » وبعد ان يشجّب اعمال
اقطاب المحور يقول : « وتجاه كل هذا ، تقف بوضوح سياسة
حكومتي واهدافها في الحرب ، كما نشرها على العالم ميثاق الاطلنتيك .
ولست بحاجة ان اذكّر فخامتكم ، انها تشمل احترام حق جميع
الشعوب لاختيار شكل الحكومة التي تريد ان تعيش تحت لوائه ،
وان اذكركم بما كرره حديثاً وزير خارجيتنا . »

انه اعتراف صريح ، لالبوس فيه ولا اهام . والحكومة
الاميركية معقل الحرية والديموقراطية الصحيحة ، ستحافظ على
مبدئها ، ولن تتعزل بعد الحرب هذه ، كما فعلت بعد الحرب
الماضية ، فتترك الساسة الاوروبيين يقضون في الشعوب كما يريدون .
هكذا كانت يصرح القنصل الاميركي السابق المستر « انغرت » ،
وهذا ما اعاده حرفياً المعتمد السياسي الجديد « وادسورث » ،
وكرره مراراً هو ورجال دائرة الاخبار الحربية الاميركية . لقد
قالوا لكل الوفود الوطنية ، التي ذهبت اليهم ، ان الخطأ الذي
ارتكبه الحكومة الاميركية بعد الحرب الماضية ، بانسحابها من
السياسة العالمية ، لن ترتكبه هذه المرة . اذ هي قد رأت ان لا
مناص لها ، من ترك سياسة العزلة واتباع سياسة دولية تقربها من
جميع الشعوب ، وتكون ضماناً للشعوب الصغيرة . والحكومة
الاميركية تعطف على لبنان واللبنانيين بصورة خاصة . وهام

الآلاف منهم يعيشون تحت لوائها، ويتمتعون بحرياتها، ويعملون في أرجائها الواسعة . وفي هذه الحرب لا اقل من ثلاثين ألفاً منهم ، حملوا السلاح في صفوف مقاتليها ، وهي لا تترك مناسبة لتظهر رضاها عنهم ، واستعدادها لنصرة قضيتهم وقضية بلادهم ، وما هذه القضية الا قضية استقلال لبنان ، استقلالاً كاملاً .

- ٢ -

الفرنسيون يندمون

لا مشاحة في القول : ان الاستقلال الذي اعترف به هذه المرة ، لم يكن كغيره في السابق . اذ ان السلطة البريطانية اعترفت به ، وضمنته رسمياً ، ولو تغاضت عن اعتداءات بعض الديغوليين عليه . والحكومة الاميركية اعترفت به رسمياً ، وبارسها معتمداً سياسياً . ولكن ما لم تستطع السياسة المحلية ، والسلطات الانكليزية والاميركية ، في هذه البلاد ، ادخاله في عقول الفرنسيين الموجودين هنا ، هو ان ينظروا الى هذا الاستقلال نظرة جديدة . فهم تعودوا ان يروا في لبنان بلداً يحكمونه لمصلحتهم ، ويدبرون مقدراته لما يوافق اغراضهم . فهل يبنازلون اليوم عن امتيازات تمتعوا بها زمناً ، وموارد استثمروها ، مدة ربع قرن ، وهم باشد الحاجة اليها في الوقت الحاضر ؟ لقد قبلوا ان يتنازلوا عن بعض صلاحيات ، وبقبوا بعض مظاهرات ، يقضي بها استقلال البلاد . ولكنهم غضبوا ، عندما طلب اليهم ان يسلموا الى البلاد

مواردها الجركية ، وأبوا بشدة ، والحكومة المحلية عجزت عن ارغامهم ، اذ ليس بيدها قوة تساعد على الارغام . والسلطة البريطانية - سياسة عليا دائماً - لا تريد ان تخرج عن سياسة المسايرة مع الفرنسيين ، مهما بلغ من ضرر يلحق بالبلاد من هذه المسايرة . هذه المسايرة التي جعلت الديغوليين ، يتأدون في اعتداءاتهم على استقلال البلاد ، واغتصابهم حقوقها . فيينا كنا نراهم في الفترة الاولى التي تلت اعلان الاستقلال ، ينكمشون ويقتنعون بالقليل من بقايا امتيازاتهم القديمة ، اذا بهم يعودون الى التمسك بحقوق يزعمونها لهم ، عندما رأوا من السلطة البريطانية سكوتاً عن اعمالهم . والسلطات المحلية لا سلاح بيدها لتجاربهم به ، غير سلاح الحق ، وهو سلاح لا يقطع ، متى كان بيد الضعيف ، ومتى كانت القوة تتدخل مختلف الاعذار الحرمان حاجه اياه ، اذا كان من ذلك الحرمان خدمة لاغراضها وغاياتها . وبيل للضعيف من جشع القوي ، في نظام ماكر يتزيا بازياء مزيفة من الحرية والديموقراطية الكاذبة ، وفي داخله ينخر سوس المالمقة والجشع والاستعمار . وما هي حقوق الضعيف بنظر اولئك ؟ ليكتف هذا ببعض العطف الذي قد يرمقه به القوي . اما ان يتطلب حقاً له ، قد يجرم بواسطته القوي من جزء ، ولو ضئيل ، من سيطرته وتعسفه وكبريائه ، فان ذلك يعد منه تجاوزاً مستنكراً ، وشروداً على السلامة الاجماعية ، والنظام الاجتماعي ، الذي سنوه وطبقوه ووصفوه بالديمقراطية ، وحكموا به طوال العشرات من السنين . وفرنسا ، وان كانت غلبت على امرها ، وانكسرت في عراكها ،

مع عدوها الالمانى، واحاها من الذل والهوان ، ما افقدها المركز
الذي كانت تتبناه بين الامم الكبرى ، الا انها ما تزال في اعين
اولئك الامم في مصاف الاقوياء ، بالنسبة الى شعوب الشرق
المستعمرة . اذن واجب الاخوة يقضي على تلك الامم ، بان تحفظ
لفرنسا مقامها تجاه الشعوب الشرقية الضعيفة ، حفظاً لهبة الغرب ،
وتبعاً لمقتضيات السياسة الاوروية الاستعمارية . وماذا يكون
لبنان ، وسكانه يكادون لا يبلغون المليون ، تفرقهم دول مختلفة
وعقليات متباينة ، يتمذهبون بعشرات المذاهب الدينية والثقافية ،
تتحكم بناسئتهم ارساليات علمية متفرقة الاهداف ، وتزورع البغضاء
في قلوبهم طائفية عمياء ، هوجاء ، تتغذى على موائد الحكام
والمتزعمين ، وبعض معاهد التعليم ، ورجال الدين ، ويغازلها اولئك
الذين يرون فيها اساساً ، يبنون عليه سيادتهم وسيطرتهم ، على
بلاد جاؤوها مستعمرين مستثمرين ؟ هل يستحق لبنان هذا ، في
نظر السلطات المحاربة الخليفة ، رعاية وانتباهاً اكثر من فرنسا مها
خسرت هذه من قواها ونفوذها ، بين الامم ؟ اذن فليبق لبنان
مرتعاً رجلاً لجماعة تربعوا فيه زمناً ، فاسترضاءهم أفيد للقضية
الحربية ، من استرضاء خفنة من الناس يعيشون في بقعة من بقاع
الشرق ، يقال لها لبنان .

وهكذا استيقظ الفرنسيون ، من السبات الذي تحكم بهم في
بادى الامر ، ورجعوا الى اقتناص السيطرة ، وكان رئيسهم
الاعلى هنا ، الجنرال « كاترو » ، رجلاً سياسياً فظناً ، عرف وجهة
نظر الحكومة البريطانية الرئيسية ، فانتبهزها فرصة للتسلك بحقوق

وصلاحيات ، كاذب الاستقلال يحرم أبناء وطنه منها . والجنرال
 كاترو فرنسي . وغاية مبتغاه ان يحافظ على مركز بلاده في الشرق
 لا سيما في لبنان . ففرنسا في نظره لن تدوم غفلتها ، وستعود الى
 اليقظة السياسية . فعلى ابناؤها العاملين والمشتكين في مختلف الاقطار
 التي كانت تحت نفوذها ، ان يعملوا ليحفظوا بهذا النفوذ ، لكي
 لا تخسر فرنسا سلطاتها الاستعمارية . والجنرال كاترو رجل سياسي
 اكثر منه عسكري ، بالرغم من رتبته العسكرية العالية . اذ ان
 حياته العملية الماضية ، كان اكثرها في الناحية السياسية ، وليست
 في الناحية الحربية . هو جنرال سياسي ، وبحق استحق هذا اللقب
 هنا ، اذ انه عرف كيف يسير السلطات البريطانية ويقاومها
 بالوقت نفسه . فاستفاد من ضعف ساستها احيانا ، ومن عدم
 صراحتهم احيانا اخرى . واني استطيع القول ، انه في كل الاوقات
 عندما كانت تتصادم النظريات ، بين السلطة الفرنسية والسلطة
 البريطانية هنا - وطالما كان يقع هذا التصادم المستتر - كانت
 النظرية الفرنسية في النهاية هي الراجحة ، أضعفاً كان ذلك ام دلالة ،
 ام مسaire ، ام سياسة ، لا اعلم . ولكن ما اعلمه ، هو ان هذه
 البلاد كانت هي الخاسرة ، بعد كل من هذه المصادمات الخفية .

- ٣ -

ديغول يغضب

في صيف ١٩٤٢ ، قدم الجنرال ديغول ، رئيس الفرنسيين

الاحرار ، هذه البلاد . والجنرال ديغول في تلك الفترة كان عاتباً
على الحلفاء ، لا سيما الاميركيين ، لعدم اعتباره حليفاً لهم بالمعنى
الكامل . وكان قد وجه خطاباً يرد فيه على كتابات الصحف
الاميركية ، وتصريحات بعض رجالها ، وتربصهم من موقفه ،
ومواصلة العلائق السياسية ، بين حكومة الولايات المتحدة ،
وحكومة فيشي . فهو يريد ان يعتبره اميركا ، كأنه فرنسا .
والولايات المتحدة تقول ، ان فرنسا هي باقية في الاراضي الفرنسية
ومها كان من موقفها ، فانها فرنسا الام . وغضب ديغول على
الاميركيين ، واصيب الانكليز بشراة من غضبه . ولكن
الاميركيين لا يهمهم غضب ديغول ، ما داموا يتمشون على سياسة
تقرب اليهم الرأي العام الفرنسي ، وتكثفهم يوماً من انضمام
الامبراطورية الفرنسية في افريقية اليهم . وها ان الجنرال ديغول ،
الذي مضى على انضمامه الى صفوف الحلفاء اكثر من سنتين ، لم
يستطع كسب هذه الاجزاء من الامبراطورية . وهم لم يعتبروا
انضمام سوريا الى الحلفاء فوزاً لحركة ديغول ، اذ ان سوريا فتحت
بقوة الحراب ، وكان فتحها على يد القوات البريطانية . وما
تسليمها الى ادارة فرنسية ، الا من قبيل المجاملة التي درج عليها
الانكليز مع حركة ديغول . وافريقية الاستوائية التابعة لفرنسا
الحررة ، ان هي من تلك القطاعات الهائلة من افريقية الشالية
والغربية ، التي لم تزل تدين بسياسة فيشي ، وتقاوم حركة ديغول
مقاومة شرسة ! اذن على الاميركيين ان يعملوا في سبيل كسب
هذه الامبراطورية الشاسعة . وليست قطيعتهم لفشي وتمسكهم

٢٢
 يدعول ، هو ما يوصلهم الى هذه الغاية . ولكن دعول ، اما جهلاً
 لمقاصد الاميركيين ، او تشبهاً وغروراً ، اراد من اولئك ، قطع
 علاقاتهم مع فيشي ، واعترافهم به كما فعل البريطانيون . غير ان
 اميركا غير بريطانيا . وهي سياستها تلك ، كانت تخدم المصالح
 الانكليزية كما كانت تخدم مصالحها ، والبريطانيون عارفون بذلك ،
 وراضون عن سياسة الولايات المتحدة . لذلك غضب دعول على
 الولايات المتحدة ، واشرك الانكليز في غضبه ، ولكن « القافلة
 تمشي » . وكان مجيء دعول الى لبنان وسوريا هذه المرة ، مثبواً
 لتأويلات مختلفة . فمن قائل انه اتى لبعث الروح الفرنسية اللبنانية
 القديمة ، وتذكير اللبنانيين بالروابط التاريخية والتقليدية التي
 تربطهم بفرنسا ، بعد ان رأى هذه الروابط تعمل على تفكيكها
 عدة عوامل ، منها وجود الانكليز في هذه الديار ، وتقرب الكثيرين
 اليهم . ومنها السياسة السيئة التي يتمشى عليها رجال فرنسا الحرة ،
 الذين يفسدون سمعة فرنسا باعمالهم وتصرفاتهم ، لا يهمهم الا ان
 يستفيدوا من الحالة الاستثنائية التي تركت السلطة في ايديهم ،
 فاستعملوها لجمع الارباح عن اي طريقة كانت ، حتى اصبح معروفاً
 لدى الخاص والعام ان لكل شيء ثمناً عندهم . لقد قالوا ان من
 اختصاص هذه السلطة ، محاكمة المخالفين ، ومكافحة المحتكرين ،
 فانبروا يطوفون المخازن ، وينظمون المحاضر ، ويسوقون المتبهين
 الى المحاكم والسجون . واذا بالاحكام تبلغ آلافاً من الليرات ،
 تذهب كلها الى رجال السلطة . ناهيك بما تبذل لهذا ، ولذلك ،
 ولتلك ، من السامسة عندما يكون هنالك وجيه ، او غني ، يسرف

في البذل كي لا يدخل السجن ، ولو يوماً واحداً . ورجال السلطة يعرفون هذا الضعف ، ويعرفون كيف يستغلونه . وماذا يفيدهم سجن زيد من الناس ، فليكن هناك ثمن لهذا القصاص يقبضونه ، اما سرا على يد عمال معروفين ، او جبراً تحت ستار التبوع للصليب الاحمر ، او لجيش فرنسا الحرة ، وغير ذلك من المختلقات المؤدية الى هدف واحد : هو جمع المال .

وكانت هناك ابواب مفتوحة ، يكسبون منها الارباح الطائلة ، ان خربنا صفيحاً عن ذكرها فلا يسعني الا ان اذكر مسألة تجارة الادوية . ففي هذا العهد ارتفعت اسعار الادوية الى حد الجنون . والسبب الاول لذلك لم يكن قلة الموجود فقط ، بل هو الاحتكار الذي فتح القبور لكثيرين من المرضى الذين لا تمكّنهم حالتهم من الوصول الى العلاجات . انا لا انكر ان ابطال الاحتكار كانوا من تجار الادوية الوطنيين . ولكن عندما يعرف القارئ ، ان المراقبة على تجار الادوية كانت بيد فرع الاعاشة الباقية بيد الفرنسيين ، وعندما يعرف ان هذه التجارة كانت خاضعة لتدابير يسنها مستشار فرنسي ودائرته ، وعندما يعرف ان هذا المستشار وحده ، له الحق بتسعير الادوية ، او عندما يعرف ان زجاجة « المغتزيا بيليكيرينو » ، بعد ان كانت تباع بستين غرشاً ، اذا بها بين ليلة وضحاها ، يرتفع سعرها بامر المستشار الى مائتين وخمسة وثلاثين غرشاً ، قبل ان تبلغ ارباح وكيلها المحفوظ بكمية لا تقبل عن عشرة آلاف زجاجة ، اكثر من عشرين الف ليوة . ويقول الحبناء ان وضع السعر الاجباري ، لم يكن اكراماً لسواد عيون الوكيل

فقط ، وعندما يعرف القارئ ، ان تموين البلاد بالادوية كان من
 خصائص هذا المستشار وحده ، بحيث لا يباع ولا يشترى شيء
 بدون علمه وارادته ورقابته ، وعندما يعرف ان الادوية الجاهزة ،
 كانت لا تصرف الا بعد تأشير دائرة حاضرة المستشار ، وان هذا
 التأشير قد لا يجيء قبل مرور بضعة او عدة ايام ، والمرض اللعين
 يأبى الانتظار ، فيلتجئ اهل المريض الى السوق السوداء ، التي
 يسيطر عليها المحتكرون ، واكثرهم مشمولون برعاية صاحب القول
 الفصل ، وعندما يعرف ان سعر الدواء في السوق السوداء ، لا
 يقل عن عشرة امثال السعر العادي . عندما يعرف القارئ كل
 هذه الامور وغيرها ، مما لا يتسع لي المجال لذكره ، يدرك سوء
 الحالة التي كانت تتخبط فيها مسألة الطبابة والصحة العامة في لبنان ،
 بينما اصحاب الصلاحيات ، لاهوت باصدار القوانين التي لم يستفد
 منها المرضى ، بل استفاد من مخالفتها المستثمرون ، الذين عرفوا
 كيف يعضون اعين الذين وكل اليهم امر السهر على مصلحة
 العباد . مسكين لبنان ، ومساكين اللبنانيون . لقد تاجروا
 بمصالحه ، واستغلوا اعاشته ، وها هم يجعلون من منكوبيه ومرضاه ،
 سوقاً يجنون منها الارباح . لو كان من آداب الكتابة ان اذكر
 الاسماء ، لاستعنت بقلم اسود ، اسود به صحيفة اولئك المجرمين ،
 ليعرف الناس ما الذي حل بالطبقة العامة في لبنان ، في هذا
 العهد المشؤوم .

طالت اقامة الجنرال ديقول في سوريا لبنان اكثر من
 شهرين ، قام في خلالها بزيارات متعددة لـ مختلف النواحي والمقامات ،

وبدلاً من أن يعمل لوضع حد لتصرفات الموظفين الفرنسيين
السنة ، إذا به يقف خطيباً في نادهم في أحد الأيام ، ويلقي خطاباً
نارياً يمجّد ما عملته فرنسا المحاربة ورجالها ، ويذكر اللبنانيين ، أن
فرنسا وحدها دون سواها لها الحق والصلاحية في أن تعطيهم استقلالهم ،
وهي وحدها لها الحق بضمانته ، ولا لأحد غيرها من الحلفاء حق
التصرف بمقدراته . وإذا به يذكر اللبنانيين ، أن الانتداب الذي
فرض عليهم منذ ربع قرن ، يعطي فرنسا هذا الحق المطلق . وقد
تناسى ، عفا الله عنه ، أن فرنسا الحرة لم تدخل لبنان وسوريا ، إلا
على حراب الجيش البريطاني ، وأن اللبنانيين والسوريين ، لولا
هذه الجيوش ، كانوا قضوا بمجاعة أشد هولا من مجاعة الحزب
العالمية الأولى . والغريب أنه عندما كان يخطب في الاجتماع ، كان
يتصدر الحفلة الجنرال « سيرس » ممثل جلالة الملك البريطاني ،
وكانت البواخر الانكليزية ، تفرغ المواد الغذائية في مستودعات
البلدة ، وكان الفرنسيون يتلقون المساعدات المالية من الانكليز ،
وكان نفوذ الفرنسيين ، قائماً على تأييد السلطة الانكليزية وحراب
جيشها . ولكن الجنرال غاضب على سياسة الولايات المتحدة ،
وعاتب على مفاشة الحكومة الانكليزية لها ، فوجد في ربوع لبنان
مجالاً لظهار سخطه ، وأراد تأييد سلطته على هذه البقعة الضعيفة
الآمنة ، فإذا به ينثر الوعود تارة ، ويلوح بالتهديد طوراً ، متخذاً
لنفسه صفّة رئيس دولة ، ذات سيطرة وبطش . أما تلميحه عن
خلفائه بل مناصريه الانكليز ، ومشركاّتهم الاميركيين ، فقد
كان مثله مثل ذلك الذي شرب من بشر ، ورمى فيه حجراً .

ولكن المعتمد الانكليزي في تلك الحفلة كان اول المصنفين .

ان من تتبع سياسة الفرنسيين الاحرار في هذه البلاد ، رأى ان رجالها ازدادوا في هوسهم الاداري ، بعد ان سمعوا خطبة زعيمهم الجنرال ديغول ، اذ رأوا فيها مشجعاً لهم على التادي في غرورهم ، وتصرفاتهم هنا - فهو بدلا من ان يضع حداً لاعمالهم غير المشروعة ، وسياستهم الخرقاء ، اذابه بظنهم ، ان فرنسا الحرة تحتل مكانة رفيعة - ويأوم الخلفاء لعدم تقديرهم اعمالها المجيدة . اذن فليسدل الستار على محنة فرنسا ، وليرجعوا هم الى تحكمهم في هذه الديار . أليس لبنان لهم ؟ لبنان هذا الذي يتغنى بتقاليده ، وعلاقاته مع فرنسا ، منذ عهد لويس الملك ، الى نابوليون الامبراطور ، الى بوانكاره رئيس الجمهورية . واذا كان رجال فرنسا حرموا سيادتهم على فرنسا نفسها ، فلتبق لهم سيادتهم على لبنان واللبنانيين .

ورجع اولئك الرجال ، الى اعمالهم الاستبدادية المستمدة من سياسة الاستعمار التي درجوا عليها ، منذ وطئوا سوريا ولبنان . ورجع المستشار الى سابق عزه ، وكان من بعض الموجودين منهم في الملحقات ، ان عينوا فرقاً خاصة حرساً لهم ، تنفذ اوامرهم على الناس . لا سؤال ولا جواب . وطالبوا استعمال اولئك الحراس السلاح ، تنفيذاً لهوس رؤسائهم المستشارين .

انه لمؤلم حقاً ، ان يظل الفرنسيون بعد اعلان الاستقلال المطلق ، واعتراف الدول به رسمياً ، وارسال ممثليها السياسيين الى حكومة البلاد صاحبة السيادة ، متمسكين بحقوق وامتيازات ،

يستغلون بواسطتها البلاد ، ويتحكمون بمقدراتها لمنافعهم وغاياتهم .
وانه لمؤلم ايضاً ان تكون السلطة البريطانية ، التي كفلت هذا
الاستقلال وتعديته وضمنته ، ايام كانت على ابواب سوريا ولبنان ،
تنازع الفيشيين السيطرة على هذه البقعة الاستراتيجية ، بينما هي
تقف الآن على الحياض كما تقول ، يشاهد ممثلوها جرائم الفرنسيين ،
وتعدياتهم المتواصلة على هذه البلاد ، وسيادتها ، واستقلالها ، وهي
معتصمة بالسكوت ، غير آبهة لارهاق ينزل بانباء البلاد ، وبارهاب
وتهديد يلوح بها عمال فرنسا الحرة ، لكل من تظهر عليه روح
وطنية او استقلالية ، مما ساعد هذه الشرذمة من الفرنسيين الحائرين
على متابعة مسلهم ، الذي لم يكن في يوم من الايام مستهدفاً
مصلحة لبنان واللبنانيين . ولكن ما هو اشد ايلاماً على النفس ،
ان يستبتر الرجال الوطنيون ، الذين قاموا على مقدرات البلاد ،
بالوديعة التي تسلموها ، ولم يحرصوا عليها . ولعل السبب هو في ان
اولئك الرجال ، كانوا ايام ايام الذين تقلدوا المناصب في عهد
الانتداب ، وتعودوا الاذعان والخضوع امام سلطته وجبروته .
فالشعور بالاستقلال ، والتفاني في سبيل المحافظة عليه ، لا يرتجل
ارتجالاً ، اذا لم تتغير عقلية الموكل اليهم امره . وهذه العقلية لا
تتغير بمجرد قرار يعطى . والرجل الذي كانت بالامس ، يخضع
لسلطة اجنبية ، ولا يعمل الا بما توحى له ، تسيره فيسير ، وتأمره
فيطيع ، ان رجلاً كهذا ، لا يستطيع قرار ، او ناموس ، ان
يرتجله مستقلاً ، ابي النفس ، عزيز الجانب . والفرنسيون الذين
تنازلوا عن الانتداب ، واعترفوا باستقلال البلاد ، اما جبراً او

مسايرة ، ظلوا يعملون لحفظ سلطانهم على لبنان . وكانت طريقتهم الى ذلك ، بعضاً من رجال لبنان الذين عرفوا فيهم ميوعاً ، وجنباً ، وعقلية وصولية ، فاستخدموهم لغرضهم ، واعتبروهم معبرين عن رأي المجموع . وقالوا لحلفائهم من الانكليز والاميركان ها هي البلاد تطلب تدخلنا ، ولا ترضى ان تحرم مساعدتنا . ولا اعلم اذا كان اولئك الحلفاء ، آمنوا باقوالهم او كانت تصديقهم مسايرة ، بغية الوصول الى غايتهم . ولما كانت دوائر الامن العام كلها ، تحت سيطرة الفرنسيين ، باعتبارها من المسائل العسكرية ، كان بيد اولئك سلاح طالما جردوه ليقاوموا الروح الاستقلالية ، منتجلين اسباباً مختلفة للانتقام من اي شخص ، شعروا انه غير مؤيد لهم . والناس في هذه البلاد ، لم يعودوا تحمل الاضطهادات في سبيل العقيدة الوطنية . انه نقص في تربيتنا السياسية ، بل قل في تربيتنا الاخلاقية ، اتخذها الغرب ذريعة لبيسط سيطرته علينا ، مدعياً انه ما انتدب احدي عاملاته : فرنسا ، الا لاصلاحه فينا ، فما كان همها في البلاد ، الا ان تجعل منه واسطة لاستعمارنا ، فارجعنا القهقري ، وظهرت لنا اغراض المستعمرين ، ومدى اخلاصهم الموهوم .

— ٤ —

تواطؤ استعماري

وقضت سياسة الحلفاء بان تعود الحياة اللبنانية الى لبنان ،

فاتفقت الحكومة البريطانية ، ولجنة فرنسا المحاربة ، واذاعتا من
لندرة ان استقرار الحالة الحربية في الشرق الاوسط ، بعد معركة
طرابلس الغرب ، وانسحاب المحور الى ما وراء حدود تونس ، لما
يزيل كل العقبات من امام اعادة الحياة الدستورية . وأوكلا الى
الجنرال كاترو ان يمد السبيل الى هذه الغاية . فقام حضرته
باستشارة بعض رجال البلاد ومقاماتها . وكان همه من كل هذه
المناورات ، ان يأتي للبلاد بمجلس نيابي يصدق معاهدة ١٩٣٦ ،
التي تجعل من فرنسا الدولة الوحيدة ، ذات النفوذ على لبنان وتمتعها
بامتيازات لا يتمتع بها ، رسمياً ، حتى الانتداب . ولذلك كان
سعيه في اول الامر ، ان يعاد المجلس القديم الذي جله المسيو
١٩٣٩ ، وهو المجلس الذي عقد هذه المعاهدة ، في عهده ماريتل ،
وقد كان مؤلفاً من واحد وعشرين عضواً عينتهم السلطة ، واثنين
واربعين عضواً منتخبين بطريقة ، اذا بقي في عالم السياسة حياء ،
فيجب ان ينكمش خجلاً ، الرجال الذين تسلموا في ذلك العهد ،
مقدرات البلاد ، واداروا تلك الانتخابات المزيقة المحجلة . غير ان
السلطات البريطانية ، كانت تعاكس ارجاع هذا المجلس .
واصرّت على وجوب انتخاب جديد . وهنا لا بد لي ان اذكر
الازمة التي وقعت بين الاستاذ نقاش رئيس الجمهورية اللبنانية ،
والجنرال كاترو المندوب العام لفرنسا المحاربة ، فيتين منها نيات
مندوب فرنسا من جهة ، وموقف رئيس الجمهورية من جهة ثانية ،
ليحكم التاريخ على تعدي الاول ، وعلى موقف الثاني المشرف ،
الذي اكسب اعجاب وتقدير الرأي العام ، المفكر والنزيه ،

بالرغم من انه اندحر امام القوة الاستعمارية : قوة السلطات من فرنسية وانكليزية ، وقد كانت تعطينا يومياً ، برهاناً جديداً على العقلية الاستعمارية المهيمنة على جميع اعمالهم فينا ، بالرغم من وعود تنبئها ، ومبادئ تتغنى بها الدول المسماة ديموقراطية ، وما هي الا مخدرات ، لا يلبث ان يزول تأثيرها ، فتظهر من بعد ذلك نيات اولئك المستعمرين .

عندما رجع الجنرال كاترو من لندرة ، بعد اقرار الحلفاء عودة الحياة الدستورية الى سوريا ولبنان ، اخذ يعمل لهذه العودة باستشارة بعض الرجال السياسيين ، وكلهم من الذين تولوا الحكم في عهد الانتداب . وكانت استشاراته تلك ، مقتصرة على الذين يرغب حضرتهم بأرائهم ، ويعرفهم مؤيدين لرغباته وغاياته . ولم يقم اي وزن للسلطة الوطنية القائمة ، ولا حسب اي حساب الرئيس الجمهورية ، بل اتخذ لنفسه حقة التشريع ، واحتكر سلطة كانت تنازل عنها ، عندما اعلن استقلال البلاد في ٢٦ تشرين ثاني سنة ١٩٤٢ ، ذلك الاستقلال الذي اعترفت به رسمياً ، الدولة البريطانية ، بايفادها وزيراً مفوضاً من قبلها ، هو الجنرال «سيروس» الذي قدم الى رئيس البلاد اوراق اعتماده ، كما هي الحال في الدول المستقلة . وحذت حذو الدولة البريطانية ، كل من الولايات المتحدة الاميركية ، وبلجيكا ، وتشيكوسلوفاكيا وغيرها . عندهذا التعدي على حقوق البلاد ، كتب رئيس الجمهورية الى الجنرال كاترو ، يحث على استئثار الجنرال بعمل لم تكن صفته كوزير مفوض ، تحوله اياه . فما كان من الجنرال الغاضب ، الا ان

اجاب الرئيس ، بكتاب ينقض فيه استقلال البلاد ، ويدعي انه ،
هو ، لا يزال يمثل الانتداب الذي وضعته جمعية الامم ، ولا يزاله ،
في عرفه ، الجمعية الامم . مهزلة والله لا تبررها غير القوة . فابن
هي هذه الجمعية ؟ الم تمت فدفت واقتبل التعزية بدفنها ، اركانها
من انكليز وفرنسيين وغيرهم ؟ وبمن كانت تتألف هذه الجمعية ؟
ألم يكن اعضاؤها هم الانكليز والفرنسيين وحلفاؤهم الذين اعترفوا
باستقلال لبنان ؟ وفرنسا ، الدولة التي يدعي باسمها الانتداب ،
حضرة الجنرال الم تلعن جمعية الامم ، وتحكم عليها بالموت ، عندما
انتقلت الى الجبهة الثانية ١٩٤٠ ؟ وها هو الجنرال « كلترو » باسم
فرنسا المحاربة ، وهي لا تشكل دولة معترف بها ، لا من الانكليز
ولا من الاميركان ، انما هي فئة من الفرنسيين المجاهدين الذين شقوا
عسا الطاعة لدولتهم ، وابوا الاستسلام للغالب ، ها هو حضرته ،
ينتحل لنفسه حفة الممثل الرسمي للدولة الفرنسية ، ويتمسك بحقوق
خولتها اياها جمعية زالت من العالم السياسي . كل ذلك ليحتفظ
بحقوق وامتيازات على بلد صغير ، ليس له من سلاح يدافع به
عن استقلاله ، غير سلاح الحق ، واستعطاف الدول الكبرى
التي تدعي نصره الضعيف . ولكن في هذه الازمة المستحكة ،
لم يكن للرأي العام الا ان يوقن ان ادعاءاتهم مزيفة ، وعطفهم
كاذب . وها هو الوزير البريطاني ، في عشية اعلان « حدث كلترو »
بذيع بواسطة الاثير ، تأييد حكومته لهذا العنل .

هذا موجز للازمة التي اثارها حضرة المندوب العام في اواخر
شهر اذار سنة ١٩٤٣ ، والتي شهدها لبنان بآلم . وشعر اللبنانيون

ان مقدراتهم يتلاعب بها رجال الدول المتجاربة لمصلحتهم ،
ولمصلحتهم فقط . وقد خيل اليهم ان الدول الديموقراطية الحليفة ،
التي اقامت نفسها نصيرة للشعوب الصغيرة ، والتي ادعت انها لم
تدخل هذه الحرب ، الا مدافعة عن حرية الشعوب ، والتي
وضعت عهدة الاطلتيك ، ان هذه الدول كانت السابقة الى
الاستخفاف بهم ، وتضحياتهم على مذبح المطامع ، والحقوق التي
تدعيها احداهن . فاذا كانت هذه نياتهم ، وهم لا يزالون في صميم
الحرب ، فماذا ينتظر منهم غداً عندما يتم لهم النصر ، ويجلسون هم
وحدهم في مناصب القضاء والحكم ، لا يخشون مناظراً ، ولا
يابون عدواً ؟

لقد اعترفت فرنسا المحاربة ، وبريطانيا العظمى ، والولايات
المتحدة ، في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، باستقلال لبنان استقلالاً
كاملاً ، لا تقيده الا بعض ظروف عسكرية ، تقتضيها حالة الحرب .
ولم يرض على هذا الاعتراف ، اكثر من خمسة عشر شهراً ، حتى
تقوم فرنسا المحاربة بمحاولات سياسية ، يتخذها القوي تجاه
الضعيف ، لتتقض هذا الاستقلال ، فتؤيدها بريطانيا ، وتسيكت
الولايات المتحدة عنها .

واذا اوجب علي القاري ، ان اجيبه بتصریحات رجال
الدول الحليفة ، والمعتمدين السياسيين ، فاني سأضع امامه
مجموعة من هذه المتناقضات ، واترك له ان يرى فيها ما تنويه
سياستهم ، وغايتهم في مقدراتنا ، نحن الذين علقنا عليهم كل

آمالنا ، ورضينا بجرمان وتضحيات ، اذا انكروها ، يكون
انكارهم من قبيل الاستهانة ، وعدم الاعتراف بما يأتيه الغير ، متى
كان هذا الغير ضعيفاً .

عندما قام الجنرال كاترو في ٢٦ تشرين ثاني سنة ١٩٤١ ، يعلن
اعترافه باستقلال لبنان ، قال في خطابه : « ان فرنسا الحرة ،
الامينة على تقاليدھا الحرة وتعهداتها ، تريد ان تكون باكورة
اعمالھا بعد دخولھا سوريا ولبنان ، بالرغم من حالة الحرب ومقتضياتھا ،
ان تعلن استقلال لبنان وتعترف باستقلاله ، وسيادته الكاملة .
لقد جعلتكم احراراً مستقلين ، واصبحت امانكم محققة ، ومنذ
الآن تتمتع الدولة اللبنانية بالحقوق والميزات ، التي تتمتع بها الدول
المستقلة ذات السيادة ، وهذه الحقوق والميزات ، لا تخضع الا
للقیود التي تفرضها حالة الحرب الحاضرة ، وامن البلاد ، وسلامة
جيوش الحلفاء . ان استقلال لبنان اصبح امراً واقعياً مفروغاً
منه . ان هذا الاستقلال ، هو الغاية التي عينها لفرنسا الانتداب ،
الذي تسلمته من جمعية الامم . » ومنه « ان واجبي الاول في هذه
الظروف ، هو ان اسلم امر تنظيم العهد الجديد ، وادارته الى
شخصية تتوفر فيها ، في الظروف الحاضرة ، الصفات العليا ، للقيام
بابعاء هذه المهمة الدقيقة . وبعد استشارات قمت بها ، للهيئات
المختلفة ، والمقامات العالية ، رأيت اتجاھ البلاد الى شخصية
الرئيس نقاش . »

لقد فهمت البلاد من هذه التصريحات ، ان استقلال لبنان

اصبح امراً واقعاً ، لن يقع عليه اي اعتداء . ولذلك قامت الحكومة الوطنية ، بالرغم من ضعفها وتهاونها في كثير من المناسبات ، بأعمال لم تكن تستطيع القيام بها الحكومة الماضية .

وفي ٣١ كانون الاول سنة ١٩٤١ ، توجه الى سراي الحكومة الكولونيل هاملتون ، القائم بأعمال بعثة « سيرس » ، وهنا الرئيس نقاش مأموراً من حكومته ، ومؤيداً استقلال لبنان ، وقد اختتم خطابه « نحن مقتنعون بان الجمهورية اللبنانية ، ستأخذ مقاماً مرموقاً في عيلة الامم الحرة . عاش لبنان مستقلاً . »

وفي ٢٧ آذار سنة ١٩٤٢ ، وصل الى السراي الجنرال « سيرس » ، الوزير المفوض البريطاني حسب البروتوكول الرسمي ، وقدم اوراق اعتماده لحضرة رئيس الجمهورية ، وكان كتاب صاحب الجلالة ملك انكلترا وامبراطور الهند الى رئيس الجمهورية ، لا يختلف في شيء عما يكتبه عندما يقدم سفراء لاية دولة مستقلة . وفي ٩ كانون الاول سنة ١٩٤٢ ، ابرقت الحكومة البلجيكية بشخص رئيس حكومتها المسيو « بيار لو » ، الى رئيس الجمهورية معترفة باستقلال لبنان .

وحذت حذوها حكومة تشيكوسلوفاكيا .

وفي ١٩ تشرين ثاني سنة ١٩٤٢ ، قدم الى السراي المستر وادسورث ، اول معتمد سياسي الى جمهوريتي سوريا ولبنان ، مقدماً اوراق اعتماده مع كتاب موجه من الرئيس روزقلت ، الى الرئيس نقاش . وفي خطابه بهذه المناسبة قال : « اذا كانت ظروف

الحرب ، توجد بعض قيود لهذا الاستقلال ، حرصاً على مصلحة الحلفاء وجيوشهم ، فالتناظر ينظر بثقة الى اليوم الذي يتم به النصر ، وتصبح هذه القيود ملغاة ، فنتمتع الجمهورية اللبنانية بجميع معالم الاستقلال والسيادة ، في عالم يتمتع بحسنات السعادة والسلام .»

وهكذا توالى تصريحات رجال الدول الخليفة ، باستقلال البلاد استقلالاً كاملاً ، لا يقيد به الا بعض اعتبارات عسكرية محضة توجبها حالة الحرب . ويفهم من هذا ان مصلحة الحلفاء تقضي بالاشراف على ما له علاقة بالستراتيجية الحربية ، والامن العام والتموين . وهذه قيودات قبلتها البلاد ، ويشهد الله انها عملت وسعياً وجهدها ، لتسهيل مهمة الجيوش الخليفة ، لا تضن بمساعدة ممكنة ، ولا تعاباً بحرمان يفرض ، ولا تستعظم تضحية .

ولننظر الى الجبترال « كاترو » نفسه ، الذي قال في ٢٦ تشرين ثاني سنة ١٩٤١ : « ان استقلال لبنان اصبح امراً واقعاً مفروغاً منه » ، يكتب الى رئيس الجمهورية في ٢٧ شباط سنة ١٩٤٣ ، على اثر المشادة التي وقعت بينهما : « اني اذكرك بما كنت اردت ان اتجنبه ، وهو بالرغم من اعلان استقلال لبنان بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤١ ، فان فرنسا تبقى منتدبة على لبنان ، الى الوقت الذي تحلها فيه جمعية الامم ، التي وكلت اليها هذا الانتداب ، ثم قال : « اما التدابير التي اتخذتها ، فقد حادفت تأييداً من الدول التي اعترفت بالانتداب .»

انه رجوع غريب عن سياسة فرنسا المحاربة الاولى ، وقد كنا

لمسناه في تصريحات ادلى بها الجنرال « كاترو » ، الى الصحافيين في مصر ، في عودته من لندرة ، واحتجت عليها بعض الهيئات : اولها نقابة الاطباء ، وجريدة « العمل » لسان حال « الكتائب اللبنانية » . « والكتائب » هي الحزب اللبناني الضيم ، الذي طالما حادف اضطهاداً من السلطات ، لاخلاصه للقضية اللبنانية واستقلال لبنان . فما هو الدافع لهذا الرجوع ؟ لقد قال الحثاء ، والحثاء صريحون ، ان ما اقدم عليه الجنرال كاترو باسم فرنسا المحاربة ، كانت نتيجة تواطؤ اللجنة القومية الفرنسية في لندرة مع الحكومة البريطانية ، اقراراً للسياسة الاستعمارية ، التي ما تزال تسيطر في ذهنية قوى الاستعمار . ولقد ساء الرأي العام اللبناني ، نكول مندوب فرنسا المحاربة ، عن اعتزافه باستقلال لبنان . ولكن ما ساء اكثر ، هو تأييد وزير بريطانيا المفوض الجنرال سيرس لهذا النكول ، بخطاب اذاعه من محطة الاذاعة في عشية اليوم الذي وقع فيه هذا الاعتداء المستنكر .

ومن مهازل الديمقراطية التي يتغنون بها ، ان السلطة اوجبت على المراقبة ان تمتنع نشر اخبار هذه الازمة . ولم تسمح باي تصريح لرئيس الجمهورية . فلم يستطع حضرته ان يلقي بياناً عن الحوادث ، وعندما اقال الجنرال كاترو الجهاز الحكومي ، كانت دوائر الامن العام الفرنسي بالمرصاد للكثيرين من الذين اظهروا تأييدهم له ، واستنكارهم لعمل مندوب فرنسا الاستبدادي . وقد كانت خاتمة هذا المشهد الروائي ، ذلك الكتاب الذي اذاعه الجنرال ديغول من لندرة ، في شهر نيسان ١٩٤٣ ، الى بقايا محطة من جمعية الامم

يقول فيه : ان انسحاب فرنسا من هذه المؤسسة لا يقره حضرته ،
وحيث انه لم تكمل الستنان على هذا الانسحاب ، والانسحاب لا
يعتبر امراً مفروغاً منه الا بعد ان يمتطي عليه ستنان كاملتان ، فانه
يرجع عنه ويعتبر نفسه عضواً في جمعية الامم ، له الحقوق التي
كانت لفرنسا ، ويقبل المسؤوليات الملقاة عليها ، ويعني بها
مسؤوليات الانتداب .

هي مبهلة والله تضحك التكللي . ان يقوم قائد فرنسي ، ثار
على حكومته ، ويدعي انه هو فرنسا . وفرنسا لا تزال قائمة في
بلادها دولياً بالرغم من انكسارها . وحكومات العالم كلها ،
صديقة كانت ام عدوة ، تعتبرها فرنسا الاصلية . ولكن هو
التلاعب السياسي الاستعماري ، يميز للمستعمرين هذه المداورات
السياسية ، لهضم حقوق الامم الضعيفة . ومن المؤسف ان يبقى
هناك نفر من الشعوب المحكومة ، يثق بوعود رجال الدول
المستعمرة . ولعل ما احاب لبنان في هذه الفترة ، يكون عبرة له
تربط الطريق التي يجب ان يسلكها للوصول الى امانه . هذه الطريق
التي لا يعبدها ، الا التفاهم بين ابنائه وتوحيد جهوده واعماله ، والحد
من مواعيد ينثرها عليه غريب ، لم يعمل يوماً الا لمصلحته وغاياته .

- ٥ -

حكومة تذهب ، وحكومة تجي . ، بامر المندوب الفرنسي

تسلمت حكومة الدكتور ايوب ثابت الحكم ، في ٢٥ آذار

سنة ١٩٤٣ . ووجب عليها قرار تعيينها اجراء انتخابات نيابية
بمدة ثلاثة اشهر ، ينشئ عنها مجلس نيابي يبدأ اعماله بانتخاب رئيس
للجمهورية . ولم يكدر يصدر هذا القرار ، حتى ابتدأت المناورات
السياسية في البلاد ، ان من الاحزاب الوطنية ، او من المراجع
الاجنية . كل منها تستهدف غرضها وغاياتها . فكانت فترة نشاط
وعمل ، سأسعى الى ان اخلها . وعساني ان اعطيك ايا القارىء ،
صورة مجملة عن الحالة السياسية ، والأعبى القوى الاستعمارية .

الدكتور « ايوب ثابت » رجل يناهز السبعين . لم تستهوه
المرأة فبقي عازباً . ولربما لم تصقله معاشره النساء فنشأ حاد الطباع
ولازمته عصية المزاج ، لا تتفق مع ما تتطلبه السياسة من
مرونة ودهاء . ولكن الدكتور ثابت حريماً ، متصلب بارائه ،
حتى ما كان منها متطرفاً او مخطئاً . ومع انه بروتستانتي المذهب
(اسماً) ، لكنه لا يتمسك بالطائفية ، ولا يميل الى العباداة . اما
مبدؤه السياسي ، فقام على استقلال لبنان ، وجعله وطناً قومياً
مسيحياً ، تضمن سلامته الدولة الفرنسية ، التي يرى فيها افضل
الدول للمحافظة على هذه القومية . غريب من رجل كالدكتور
ثابت ، معروف بعلمانية متطرفة ، ان يتمسك بمسيحية لبنان ، مع
ما فيها من خطر عليه وعلى مستقبله ، وهو محاط باقطار اسلامية ،
من شرقه وشماله وجنوبه ، الا اذا سلم بضمونية فلسطين ، شرارة
النار في هذا الشرق . ولكن الدكتور ثابت صلب العقيدة ، يعمل
الممكن وغير الممكن في سبيلها ، مستعيناً بعوامل غريبة لا يسع
اللبناني التلخص الا ان يرى فيها عنصراً من عناصر الهدم لحياته

الاقتصادية ، وتقدمه وعمرانه . انا لا اتهم الدكتور ثابت انه يماشي
الفرنسيين ، طمعاً بجاه او كسب شخصي . ولا يجرؤ احد على
هذه التهمة . هي عقيدة راسخة في ذهنه ، لاشك انها مبنية
على مبدأ يعتقده صواباً . والدكتور ثابت لا يجادل في عقيدة
يؤمن بها .

وقوي النشاط الانتخابي في لبنان ، ونشط الفرنسيون
وعملآؤهم ، يعدون العدة لتأيي اكثرية تماشي سياستهم . وخافوا
من انتخابات حرة ، قد لا تكون نتيجةها كما يرغبون ، وهم لم
يتعودوا الجهاد في الانتخابات . واذا كانوا اتفقوا مع حلفائهم
الانكليز ، على اطلاق الحرية للبنانيين في هذه الفترة ، لكنهم ابوا
الا التدخل لضمان الفوز لمصلحتهم . فكانت مشادات عنيفة بين
رجال الحليفين : تارة ظاهرة ، وطوراً مستترة . وقال الحثاء : ان
الانكليز ايضاً كانوا يتدخلون ، لاحباط مساعي الفرنسيين ، ولكنهم
كانوا يعملون من وراء الستار . اما الفرنسيون فلا يتسترون ،
ولكل من الجبهتين عملاء ومريدون واصدقاء . وتسعى كل جبهة
لتأييد اصدقائها ، والنكاية باخصائها . والفرق فقط في لباقة هذا
وخشونة ذاك . هاك فصلاً من فصول الرواية .

« عنتر » زعيم اقطاعي ينطبق عليه لقب « شيخ قبضيات »
تحافه العامة ، وتحذره الخاصة ، لغته لغة السيف . لا يظاله عقاب
ولا تقيده شرائع . حالته السلطة الفرنسية في اثناء الانتداب ، فماشي
سياستها ، وكان احد اخصائها ، فايدت زعامته ، ومكنت اقطاعيته

ليخدم غاياتها . وما ضر المجتمع الانساني ، اذا اضطهد هذا الزعيم الناس ، واستعبد العامة ، او احتكم الى سلاحه ، اذا ما عصاه عامل او خصم ، ما دام هو يطبع السلطة ، ويؤيدها في سياستها ، ويخضع بني قومه وعشيرته لارادتها ، فتحقق بواسطته رغائبها . وكان الزعيم عضواً في المجلس النيابي ، عندما كان الانتخاب والتعيين بيد السلطة ، تعين من تريد ، ويُنتخب من ترغب بانتخابه . وها نحن اليوم على عتبة انتخابات جديدة ، وهو يتشي الى الندوة النيابية ، بالطريقة نفسها التي كان يسلكها من قبل . وهو زعيم القائمة التي تؤيدها ، وترغب في نجاحها ، وتتوكل عليها السلطات الفرنسية . وهو قوي جبار بطاش . ولكن هناك همساً ان الرجل يتجر بالحشيش ، وتجارة الحشيش من الجرائم الدولية ، واذا تغاضت عنها سلطات الامس لغرض في نفسها ، فلا يسع سلطات اليوم المرور بها مر الكرام . ووشى الواشي به للسلطة العسكرية البريطانية فاخذت هذه الامر بيدها ، واعتقلت الزعيم بالجرم المشهود ، ثم سلمته الى السلطات الفرنسية ، لتجري محاكمته كما تقضي الاتفاقات بين الحليفين . ولكن السلطة الفرنسية لا ترغب في معاقبة الزعيم ، حديقها المحلص لاسيما والانتخابات النيابية قد اعلن موعدها بعد شهر او اثنين ، فاذا ادين هذا الزعيم افسح المجال لخصامه السياسيين ، وخسرت الجبهة الفرنسية ، اكبر عضد لها في مقاطعتها . واشتدت المنافسة بين الحليفين ، وكانت محاكمة المتهم ، ووثقت الجبهة البريطانية من ان حليفها ستبرئه ، فتحفرت لاعتقاله فور التبرئة ، وقال الحباء : ان السلطة الانكليزية دبرت هذه المؤامرة ، للايقاع

بجليفتها ، ولكن السلطة الانكليزية أمسكت بيدها الجرم غير
المشكوك بصحته . اذن لا مناص من العقاب . وشهدت البلاد
مشهداً من مشاهد المنافسة المستترة بين الجيشتين . ولكن قضت
السياسة العليا ، ان تنكفي النظرية الانكليزية ، وخرج الزعيم
من السجن بعد ان لزمه شهرين . وسكتت السلطة الانكليزية على
مضض ، لتجارب الرجل اذا ما عمل للوصول الى الندوة النيابية ،
بالرغم من اشتهاار الامر في الاوساط السياسية . قال الراوي :
سئل « عنتر » مرة لماذا هو يصانع الفرنسيين ضد الانكليز ؟ ولماذا
يرغب في الدخول الى الندوة النيابية ؟ فقال : « انا لا تهمني النيابة
ولا ارجب فيها . ولا فرق عندي بين فرنسيين وانكليز ، فما رغبتني
في المجلس ومصانعي السلطة الفرنسية ، الا لاؤمن بذلك نفوذي
بين عشيرتي ، وامنع الشرائع ان تطالني ، اذا ما اتيت عملاً بجرمه
القانون . والسلطة التي تحميني اذا قتلت ، او اجرمت ، او خالفت ،
هي السلطة التي اؤيدها واعمل لها ، لتكون هذه انكليزية او فرنسية
او صينية او » هذا ما رواه الراوي . والراوي وان كان من
الحجباء ، فهو من المطلعين على المحابي والحفايا .

وكانت ردة الفرنسيين من جنس العمل ، ولكنهم لم تكن
محكمة ففشلت في مهدها .

« كميل شمعون » محامٍ غض الشباب ، ظريف العشر ، لا
يتجاوز الثالثة والاربعين من عمره . هام بالمرأة والسياسة معاً .
فتزوج وهو في العقد الثاني ، ودخل معترك السياسة ، وهو في عهد

الفتوة . انتخب نائباً في مسهل العقد الثالث ، ودخل الوزارة وهو في السابعة والثلاثين من عمره ، ولمع في الاثنتين ، متسلحاً بشعبية لا تقف عند حد ، وتقاف في خدمة الناس ، حالاً بينه وبين الثروة ، وبقي قانعاً بالكفاف من رفاه العيش ، مبدؤه السياسي المحافظة على استقلال لبنان ، مستعيناً بسلطات الانتداب . وقد كان من مؤيدي معاهدة ١٩٣٦ . غير انه بعد تعاون وثيق ، مع هذه السلطات ، انكفأ عن هذا التعاون ، عندما رأى فيه ميلاً الى سياسة العزلة اللبنانية ، التي تجعل منه وكرراً للنفوذ الفرنسي في هذا الشرق العربي ، بصرف النظر عن مصلحة لبنان القومية والاقتصادية . وبعد ان رأى من رجال السلطة المنتدبة تحيزاً ظاهراً لأولئك الرجال الذين يخدمون غاياتها . وعندما دخل الجيش البريطاني الاراضي اللبنانية ، تظاهر بنفوره من سياسة الانتداب ، وكان من الذين طالبوا السلطات الخليفة بالعهود التي قطعتها باستقلال لبنان ، والغاء الانتداب الغاء تاماً . فكان ذلك سبباً لامتعاض الفرنسيين ، واقصائه عن اي مركز سياسي ، اذ عدوه من عملاء الانكليز . وقد ايد فيهم هذا الاعتقاد ، صداقته لكثيرين من رجال الجيش البريطاني ، وتزاوره معهم ومحبتهم له ، وهو من الذين يدخلون بسهولة ، الى قلوب معاشره .

وعندما اعلنت الانتخابات النيابية ، اتجهت الانظار الى هذا الشاب ، وكان لا بد من نجاحه . واستصعبت السلطات الفرنسية كسر شوكره فيها ، اذا لزمته هي الحياذ في الانتخابات كما تعبدت عند اعلانها . ومن الصعب ان تتظاهر بتدخلها ، والبريطانيون في

البلاد يراقبون . وقوي نشاط كميل شمعون لتأليف كتلة من
 رفاقه يدخل معها الندوة النيابية . فرأى الفرنسيون خطراً
 يحاجهم ، فقصدوا للعمل . واذا بهم يتهمونه انه يحرض الناس على
 الاخلال بالامن العام ، والامن العام لا يزال تحت سيطرتهم .
 واشترك بهذه المؤامرة نفر من اخصام شمعون ، واستقدموا
 شهوداً عليه ، واعتقلوا بعضاً من اخصائه ، وساموهم عذاباً اشبه
 بالتعذيب في القرون الوسطى ، ليأخذوا منهم اقراراً بتجريمه .
 وهمس في اذن شمعون ان دوائر الامن العام ستعقله . فتوارى
 عن الانظار بضعة ايام ، واومات سلطات حليفة ، ان عملاً كهذا
 يعدونه عدائياً ، بعد ان تحققوا ان هذه المؤامرة مختلقة من اساسها
 يقصد منها الخط من شعبية الرجل ونفوذه ، وابعاده عن الوصول
 الى المجلس النيابي . وهكذا خابت خطتهم ، وبقي شمعون يواصل
 جهوده الانتخابية ، ويجمع بين العناصر المتنافرة ، قصد تأليف
 جبهة قوية ، تقاوم السياسة التي درج عليها المنتدبون في لبنان
 اثناء ربع قرن . والفرنسيون يتأثرونه ، ودوائر الامن العام تعد
 عليه حركاته ، لعلها تستطيع ان تأخذ عليه مأخذاً لها ، غير ان
 الامور تعقدت عليهم ، فلم يستطيعوا اراء غلتهم . ومشى
 شمعون ورفاقه الى الانتخابات ، بالرغم من معاكسة الفرنسيين ،
 وما استعملوه من بقايا نفوذهم ، في الدوائر والمراكز الحكومية
 وغير الحكومية .

وحدث في هذه الفترة الاستعدادية حادث لا يخلو من الطرافة
 المحزنة ، لا بد من ذكره في هذه الوثيقة . رأى رئيس الدولة

الدكتور ايوب ثابت ، انت من صلاحيته تعديل عدد النواب في المجلس المقبل . والدكتور ثابت ، كما قلنا ، من القائلين بمسيحية لبنان ، وجعله وطناً قومياً مسيحياً ، تضمن سلامته واستقلاله فرنسا . وشاء الميمنون على هذه الفكرة ، وهم فئة من الوطنيين يتوهمهم الاستاذ اده رئيس الجمهورية الاسبق ، ومن الفرنسيين في المندوبية العامة ، ان يضمنوا لهذه الفكرة ، اكثرية مسيحية كبرى في المجلس التشريعي . فاستألوا الدكتور ثابت الى اصدار مرسوم استراعي يعدل فيه التمثيل الطائفي ، على اساس احصاء المهاجرين اللبنانيين ، ولم يكن سبق تمثيلهم بعد ، في المجالس النيابية السابقة فضمنوا بطريقتهم هذه ، اكثرية اثني عشر عضواً في مجلس يتألف من ستين .

اذا رجعنا الى القوانين الدولية في البلدان الديمقراطية ، رأينا مشروعية احصاء المهاجرين . ولكن في الظروف الاستثنائية الحالية ، وبالنظر لكون احصاء المهاجرين لم يكن احصاء بدون سائبة في حينه ، قامت خبة الفئات التي رأت فيه غبناً عليها . وكانت هذه الفئات مؤلفة من الطوائف المجدية ، اذ ان اكثرية المهاجرين من المسيحيين . فلما رأى المسلمون ، انت هذا التعديل سيوجد في المجلس اكثرية كبرى من المسيحيين ، قامت قيامتهم عليه ، وتنادوا لعقد مؤتمر اسلامي عام محتجين بشدة . واندروا بمقاطعة الانتخابات النيابية . وكان لعملهم ردة مسيحية ، اذ عقد اولئك ايضاً مؤتمراً من رؤسائهم ، وطالبوا باقرار هذه الزيادة المبنية على احصاء المهاجرين . ولما قويت المشادة كان لا بد لرئيس

الحكومة : الدكتور ثابت ، الذي بقي مصرأ على عزمه ، من ان يستقيل . فصدر قرار من المندوب « هيلو » ، بتعيين السيد يترو طراد ، رئيساً مؤقتاً لاجراء الانتخابات فقط . وبقيت تتوالى مؤتمرات الطوائف ، وكثرت المشادات والمشاحنات الطائفية منذرة بعواقب وخيمة . والغريب في الامر ان هذه المؤتمرات كانت تعقد في ظرف كانت ممنوعة فيه الاجتماعات العامة ، بما جعل مجالا للخباء ان يتهموا السلطات برضاها عن هذه المعركة الطائفية . ولكن يظهر ان السلطة البريطانية ، التي يهمها ان تصير الانتخابات ، فرضت حكمها بين الفريقين ، وهكذا دغيت البلاد لانتخاب مجلس يتألف من خمسة وخمسين عضواً ، بنسبة ثلاثين من المسيحيين ، وخمسة وعشرين من المحمدين . وقبل الطرفين ، وكل منها يشكو غبناً ، وايد الحكم السفير الفرنسي ، نازلا عند ارادة زميله البريطاني .

وقوي النشاط السياسي في البلاد . وكثرت الاجتماعات الحزبية والشعبية ، وللمرة الاولى ظهر العراك الانتخابي على وجه الصحيح ، اذ اطلقت الحريات للكتل وللحزاب لتقوم بدعاياتها . وبرز الى الميدان نشاط الحزب الشيوعي ، بعد ان اقبلت بوجه ابواب الجهاد مدة طويلة . ولربما كانت انتصارات السوفيات ، يد في اطلاق باب العمل له . والسوفيات حلفاء الدول الديمقراطية في الحرب ، فلا يجرؤ رجال السلطات على مقاومة الاحزاب الشيوعية كما كانوا يفعلون في الماضي . ولكن السلطات مع عدم مقاومتها حركات الشيوعيين ، لم تكن راغبة بنجاحهم في الانتخابات . وظهر

تأييد المرشحين الشيوعيين ، من عامة الشعب ومن بعض خاصته .
غير ان القوى المستورة حالت دون نجاح مرشحين . ولكن بالرغم
من عدم فوز الشيوعيين في الانتخابات ، لعراقيل مستورة اقيمت
بوجههم ، فقد اظهرت البوادر والاتجاهات الانتخابية ، ميل
الشعب لتأييد مبادئ الجبهة الشعبية . وكيف لا يكون هذا
الميل ، والبلاد التي قاست الامر من قوى الرجعية والاستعمار ،
تئن من وطأة المستثمرين والاقطاعيين ، وبملاة السلطات لهم ، في
الماضي البعيد والقريب . ومع ان الجبهة الشعبية غلبت على امرها
هذه المرة ايضاً ، غير انها وضعت اساساً لمستقبل ، يؤمل معه
النجاح للطبقة العامة من الشعب .

* * *

وكانت معركة الانتخابات حامية الوطيس ، لم يسبق لها مثل
في جميع الانتخابات الماضية ، اذ انه في الماضي ، لم يكن هنالك
انتخابات حرة قط . فقد كانت السلطة تفرض مرشحين ، وتستعمل
نفوذها تارة بالوعود وطوراً بالوعيد ، لتأتي النتيجة مطابقة لرغبتها .
غير ان السلطة هذه المرة لم تستطع فرض ارادتها ، وبجانبها
سلطة ثانية يهيم بها امر الانتخابات . ولكن لم يخل الامر من مداخلات
مشبوهة . فالسلطة الفرنسية لا تزال آخذة ادارة الامن العام بيدها .
ورجاله وطينين كانوا ام فرنسيين ، يعملون بوحيا . والحفاظ على
الامن العام ، ذريعة تستطيع هذه السلطة ان تؤثر بها في سير
الانتخابات . ولا اظن ان السلطة البريطانية وقفت على الحياض

في اثناء هذه المعركة . لكن البريطانيين المشهورين بالدهاء ، عرفوا كيف يتدخلون دون ان يحدثوا ضجة في عملهم ، على عكس الفرنسيين الذين اقاموا الدنيا واقعدوها ، فكان من وراء ذلك مشادات عنيفة بين رجالهم وبعض الناخين ، اودت بحياة بضعة قتلى ، احدهم قتل بيد احد رجال الامن الفرنسي .

وكانت الانتخابات معركة بين جبهتين متشاكستين . جبهة تنسب الى الشيخ بشاره الحوري ، الفرنسيون يعاكسونها ، والبريطانيون يعطفون عليها . وجبهة تنسب الى الاستاذ اميل اده ، الفرنسيون يريدونها ، والبريطانيون لا يرغبون فيها . وقد اتخذت الفئة الثانية لها سلاحاً دينياً بل طائفيّاً ، اذ اتهمت الفئة الاولى باخيازها الى السياسة العربية ، وافراطها بحقوق لبنان واستقلاله . فدعت البلاد الى محاربتها محافظة على لبنان ، وعلى قوميتها المسيحية . وحيث ان الاكثرية المسيحية موجودة في محافظة جبل لبنان ، فقد اشتدت المعركة في هذه المحافظة ، ونجح في الدورة الاولى من قائه الاستاذ اده خمسة نواب ، بينما لم ينجح من قائمة بشاره الحوري ، الا نائب واحد هو الاستاذ كميل شمعون . وعندما اعيدت الدورة الثانية (البالوتاج) ، كانت حماسية لم ير مثلاً لبنان . وكثرت نفقات الانتخابات ، ولعبت التدخلات دورها الكبير . وتدفقت الوف الليرات ، بلع مئات الالوف تطغي الناخين . واسفرت الدورة عن تساوي محمد الناجين في القائمين في هذه الدورة .

ولما اكتمل انتخاب المجلس ، اذا بالحزب الذي يقول بالتفاهم

مع الاقطار العربية ، وبتوثيق عرى الالفه والصدقة ، يفوز على حزب العزلة . واذا بالشيخ بشاره الحوري زعيم هذا الحزب يفوز برئاسة الجمهورية، بعد مناورات ومشادات طريفة وعنفية . فدخلت البلاد بعد هذا الانتخاب ، في عهد الاستقلال الفعلي . وتألفت اول وزارة دستورية برئاسة رياض الصلح . وتقدمت الى المجلس ببيان مبني على استقلال لبنان استقلالاً كاملاً ناجزاً ، وعلى تسلمه جميع الصلاحيات التي كانت بيد السلطة المنتدبة . ورياض الصلح الرجل الذي كان في سياسته سلبياً ، كل مدة الانتداب ، والذي اعتقل ونفي اكثر من مرة ، من السلطة الفرنسية ، والذي كان يتهمه البعض انه عدو لبنان واستقلاله ، وانه يسعى لضم لبنان الى سوريا . والذين اتهموه كانوا بنظري مغالين . ان رياض اتخذ من بيانه الوزاري ، فرجة يعلن بها تمسكه باستقلال لبنان ، استقلالاً كاملاً لا يختلف في شيء عن استقلال بقية الاقطار العربية ، يمد يده الى هذه الاقطار ، كما يفعل النذل لند ، دون ان يمس استقلاله او سيادته . واذا به يعلن ايضاً انه يريد ، ان يكون الاستقلال هذه المرة استقلالاً فعلياً ، لا يمسحه انتداب او حماية ، او وصاية ، او اي تدخل اجني ، يجعله شكلاً من اشكال الاستعمار ، ويتخذ من لبنان طريقاً ، يدخل منها الى بقية الاقطار العربية . هذا ما قاله رياض بالحرف في بيانه عن علاقة لبنان بالاقطار العربية . قال : « نحن لا نريده للاستعمار مقرأ . وهم ، اي ابناء الاقطار العربية ، لا يريدونه للاستعمار اليهم نمراً ، ونحن وهم نريده اوطناً عزيزاً ، مستقلاً ، سيداً ، حراً . »

اما وقد انتهينا الآن الى عهد الاستقلال الذي اعترفت به
الدول ، واصبح الانتداب ملغى ، بالرغم من ادعاء بعض المتطرفين
بعقلياتهم الاستعمارية من الفرنسيين الحازنين ، فاننا نقف عند هذا
الحد ، اذ اننا اردنا من هذا الكتاب وصفاً لحالة لبنان في عهد
الانتداب الذي ابتكرته محجلة ولسون ، ووافق عليه اقطاب
الدول المنتصرة في الحرب العالمية الماضية ، فعسى ان يكون
انتداب الامس ، درساً للذين ابتدعوه ، وعبرة للبلدان التي نعمت
بنعمه وبركاته .

الفصل السابع

نورة واقارب

« ملحق رقم : ١ »

- ١ -

بوادر الازمة بين ليسان وفرنسا

بعد ان كنت اختتمت الكتاب ، اعتقاداً مني ان العهد الذي دخلت فيه البلاد ، بعد الانتخابات النيابية ، وانتخاب رئيس الجمهورية ، وتأليف الحكومة «الرياضية» ، لايت الى الانتداب بصلة ما ، بل هو استقلال صحيح ، اذا بالازمة تثيرها اللجنة الوطنية الفرنسية ، ورجالها في هذه البلاد ، الذين ساءم ان يروا لبنان يفلت من قبضة استعمارهم . فهم اذ قبلوا باستقلال لبنان وسوريا ، فانما فعلوا ذلك مسaire للسياسة الدولية ، ولطلبات الامم المتحدة ، ولكن عندما رأوا ان الحلفاء جادون بوعودهم للبنان ، وان اللبنانيين نوا استعمال الصلاحيات التي منحهم اياها الاستقلال الصحيح ، وعندما شعروا بتضاؤل سيادتهم ، وخشوا ان يخسروا نفوذاً وامتيازات كانت تدر عليهم الارياح الطائفة ، وعندما رأوا ان بين ليلة وضحاها ، خاع سلطانهم المطلق على هذه البلاد ، جن

جنونهم . ولا شك ان مؤامرتهم كانت من نوع الجنون المطبق .
فدبروا مؤامرتهم على البلاد ، وعلى دستورها ، وحكومتها ، غير
آبهين لما قد تؤدي اليه هذه المغامرة . من النتائج في لبنان ، وفي
الاقطار العربية الشقيقة ، وفي الدول الديموقراطية ، التي تحارب
في سبيل الحرية ، ومقاومة الطغيان . ولكن يظهر ان الفرنسيين
الذين يعانون باسم لجنة الجزائر في هذه البلاد ، اصبوا بصدمة في
ذهنيتهم اعمت بصيرتهم ، فظنوا ان بوسعهم القيام باجراءات قسرية
اذا كان لها من حدى غير مستحب في الرأي العام ، فلا يلبث هذا
ان يخضع لها كما في السابق . وبالطبع لقد شجعهم في مغامرتهم هذه
نفر من الحونة الوطنيين الذين كانوا دائماً حرباً على لبنان ، ومطية
للمستعمر الفرنسي . ولكن هالهم ما رأوه من الوعي القومي
اللبناني هذه المرة . فكان لمغامرتهم هذه ردة استحقوها ، رجعت
بهم اشواطاً الى الوراء ، وافقدتهم ولاء الباقين من اصدقائهم .
لقد ارادوا تحطيم العهود ، وتحكيم القيود برقاب اللبنانيين ،
فاجابهم اللبنانيون بثورة لا هوادة فيها ، الى ان عاد اولئك
المغامرون الى رشدهم ، بل الى ان اعيدوا الى رشدهم وكانوا
خاسرين . وسأثبت فيما يلي ما وقع من الحوادث الخطيرة في اثناء
الازمة ، التي هزت لبنان والاقطار العربية كلها ، وكان لها دوي
عظيم في الدنيا قاطبة ، فلم تخل من اخبارها اذاعة من اذاعات
الغرب والشرق ، واهتمت لها حكومات الدول المتحاربة ، ولا
سما الحليفة منها ، واعتبرتها محكاً للمبادئ الديموقراطية والتحريرية
التي تحارب هذه الدول في سبيلها .

جلسة تعديل الدستور

لم يغتبط الفرنسيون بالانتخابات ولا بنتيجتها ، ولا بانتخاب الشيخ
بشارة الحوري رئيساً للجمهورية ، وما سرهم ان يؤلف الوزارة
رياض الصلح ، ويعتمد في تأليفها على عناصر الشباب . والشباب
قوي الشكينة ، صلب العود ، ورياض ذاك الرجل الذي عرفوه
وطنياً عنيداً ، واضطهده كل المدة التي كانوا فيها منتدين على
سوريا ولبنان ، رياض هذا سيعمل على تطبيق مبادئه التي ما برح
يقاوم ويناضل من اجلها . فالانتداب ورياض لا يأتلفان . وعندما
رأوا رياضاً وحكومته ، يعمدان الى وضع البيان الوزاري موضع
العمل ، ايقنوا انه لن يمضي بعض الزمن حتى تقتنص الحكومة
صلاحياتهم ، فحرمهم امتيازات ومكاسب ، تمتعوا بها مدة ثلاث
وعشرين سنة باسم الانتداب . فما كان من لجنة الجزائر الا ان
اصدرت بلاغاً ، ابلغه مدير المطبوعات الى الصحفيين ، قبل ان
يبلغ رسماً الى الحكومة ، جاء فيه : « ان اللجنة المذكورة لا
تعترف باي تعديل في الدستور اللبناني ، من قبل الحكومة اللبنانية
والمجلس النيابي اللبناني وحدهما ، بدون موافقة السلطات
الفرنسية . » فلما رأت الحكومة ان هذا البلاغ وزع على الصحفيين
قبل ان يقدم رسماً لها ، ورأت بذلك تحدياً ، امتنعت عن
تقديم اي جواب للندوبية ، ودعت المجلس النيابي للانعقاد في ٨

تشرين ثاني سنة ١٩٤٣ ، في جلسة رسمية طرحت فيها مشروع تعديل الدستور ، فصادق المجلس على المشروع بالإجماع . اما التعديل فقد اصاب جميع المواد التي تقيد البلاد بالانتداب . كما اصاب المادة المتعلقة بالعلم اللبناني ، الذي كان علماً فرنسياً في وسطه ارضة ، رمزاً الى استغلال لبنان العلم الفرنسي ، والحماية الفرنسية ، او الاستعمار الفرنسي . اما المادة القائلة : ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، واللغة الفرنسية هي لغة رسمية ايضاً ، في حالات تحدد بقانون خاص ، فان هذا القانون الخاص بقي كل مدة الانتداب دون ان يصدر . ولهذا طغت اللغة الفرنسية على الدواوين الرسمية ، واصبحت لغة المعاملات كلها . وفيما عدا بعض دوائر حكومية ، لم يكن للغة العربية شأن في الحكومة . وصارت اللغة الفرنسية ، والمعاهد الفرنسية ، قبلة كل اللبنانيين . ولا يخفى ما كانت تنفته هذه المعاهد من السموم ، بغية قتل الروح الوطنية في البلاد . فعندما تسلمت الحكومة الرياضية الحكم ، كان اول امر اصدوته : هو ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة . اما اللغة الفرنسية فيحدد استعمالها بقانون . وعندما وضع امر الوزارة موضع التنفيذ قامت قيامة الجانب الفرنسي ، وغضب اليسوعيون وعمالهم ، غلبة مضرة ، وشنوها حرباً لا هوادة فيها على الوزارة . وانبرت جرائدهم ودعائيتهم ، تكيل القذح لرجال الحكومة ولهذا العهد ، كيف لا وقد رأوا بذلك بدء انهيار نفوذهم وسلطانهم !

الازمة تشتد

لقد كانت جلسة ٨ تشرين الثاني جلسة تاريخية ، وهي ، دون شك ، اعظم ما قام به المجلس النيابي . ولقد اسرعت الحكومة ، (ولم تتسرع كما اتهمها الجانب الفرنسي) ، بطرح مشروع التعديل ، فكانت سرعتها ضرباً من ضروب الدهاء السياسي ، الذي امتاز به رياض الصلح ، اذ هو أدرك من نية الفرنسيين ، وتهيؤهم لنسف الاوضاع السياسية في لبنان ، وحل المجلس وتعليق الدستور . وما كان تدخل « دافيد » مندوب المندوب ، بطلب تأجيل الجلسة ، ريثما يصل المندوب هيللو من الجزائر ، الا من قبيل الشرك . اذ ان الحوادث اظهرت ان جريمة ١١ تشرين الثاني كانت مدبرة مقدماً . اما تنصل لجنة الجزائر من اجراءات هيللو الاجرامية ، فانه يزيد على فظاعة الجرم ، التهرب من تحمل المسؤولية .

وصل السفير هيللو في ٩ تشرين الثاني ، عائداً من الجزائر . وكانت السفارة الفرنسية ، تستعد للاحتفال بعيد الهدنة في ١١ منه ، وارسلت الدعوات الرسمية الى رئيس الجمهورية والوزراء والنواب ، فقبلت الحكومة الدعوة . غير ان الدائرة السياسية في السفارة الفرنسية ، عادت فسجت دعواتها من الحكومة والنواب ، في صباح ١٠ الشهر ، وابقتها فقط لرئيس الجمهورية . بادرة تنس

بالعدوان ، وتعلن ابتداء الازمة . ولكن فخامته رفض الدعوة
تضامناً مع حكومته . كما ان الحكومة سحبت قوى الدرك التي
كانت ستشارك بالاستعراض العسكري . وعندما علم رجال السلك
الديبلوماسي ، من ممثلي الحلفاء لدى الحكومة اللبنانية ، اجتمعوا
برئاسة وزير بريطانيا ، وقرروا عدم حضور الحفلة التي لا يحضرها
رئيس الجمهورية اللبنانية ، وحكومته التي يمثلون دولهم لديها .
وبالواقع لم تقم الحفلة مطلقاً ، اذ ان الثورة ما لبثت ان اندلعت
يوم الهدنة . وشاء الممثلون الديبلوماسيون ، ان يستبقوا الحوادث ،
ويرتقوا الحرق بين الحكومة اللبنانية والسفارة الفرنسية ، فتطوع
تجسين بك قدري ، وزير العراق ، للقيام بالمهمة . ولكنه اصطدم
بانكار الفرنسيين لاي اجراء قسري ينتوونه .

وفي عشية ١٠ تشرين الثاني ، اقام وزير بريطانيا جلالة الملك
بطرس اليوغسلافي مأدبة تكريمية ، دعا اليها السفير هيللو ووزير
خارجية لبنان . وكان حديث الازمة اللبنانية الفرنسية على كل فم ،
فاكد السفير هيللو اكثر من مرة للسفير البريطاني ، انه لن يقوم
باي عمل فيه مظهر من مظاهر العنف . هذا تصريحه الرسمي قبل
الاعتقال ببضع ساعات فقط ، عندما كانت قوات الامن العام
الفرنسي تضع التصميم لتنفيذ اوامر « هيللو » الذي يمثل رسمياً
اللجنة الوطنية الفرنسية .

— ٤ —

النار تشتعل

واصبح صباح ١١ تشرين الثاني ، واذا بلبنان يهوج ويهوج .

فقد سرى نبا الاعتداء الشنيع الذي تمخضت به جماعة الفرنسيين في البلاد ، على لبنان وعلى الامة اللبنانية . هذا الاعتداء الذي ، الذي تورعت عن اقترافه سلطات الطغيان الفاشستي والنازي . فاذا بهؤلاء الفرنسيين الاحرار الذين شردتهم الحرب ، واذلتهم الهزيمة التي انزلها النازيون ببلادهم ، ولم يعتبروا ، اذا بهؤلاء ، وقد رضيت بقبولهم هذه البلاد ، نزولا على مقتضيات السياسة الدولية ، ينصبون انفسهم جبابرة ، تغمرهم الحياء ، فيتحكمون ببلاد كانت اول من آستهم ، عندما نزلت بهم محنة ١٩٤٠ . وقد ثار ثائر حقدهم اليوم ، عندما قام لبنان يطالب بحقه الذي اعترفت له به جميع الدول و اقرروا به هم انفسهم ، عندما دخلوا هذه البلاد مع الجيش البريطاني . ولكن أيننازلون عن امتيازات تمتعوا بها مدة الانتداب المشؤوم ؟ انقلت من يدهم صلاحيات كانت تدور عليهم ارباحاً طائلة ، ويقبضون بواسطتها على مرافق البلاد ، وعلى مصالحها ، وعلى جميع مؤسساتها ، مالية كانت أم ثقافية ، أم عمرانية ؟ أيتراكون هذه الموارد ، تنعم بها بلاد تناسوا حسن صنعها ، عندما احتضنتهم اباان محتهم ، فيقوموا اليوم ليسلبوها حقوقها ، ويطمعوا بثروتها واموالها ؟ لقد تجاهلوا انهم مغلوبون على امرهم في هذه الحرب ، وما من امة تعترف لهم بحقوق الدول الكبرى ، وتجاهلوا انهم بحاجة الى عطف الحلفاء ، وتجاهلوا عدم قانونية تسليم السلطة في هذه البلاد . تجاهلوا كل ذلك ، وارادوا ان تكون لهم السيادة المطلقة ، فقاموا بمغامرتهم الجنونية في صباح ١١ تشرين الثاني . عند الساعة الرابعة صباحاً ، طوقوا بفلول قواتهم

من بحارة وسنغاليين ، بيوت رئيس الجمهورية ، ورئيس الحكومة ،
 ووزير الداخلية والخارجية ، ووزير التموين ، والزعيم عبد الحميد
 كرامي ، نائب طرابلس . فارتدوا الكل منزل شردمة من خمسين
 جندياً . واقتحموا البيوت شاهري السلاح . فلم يراعوا حرمة
 النساء والاطفال ، بل كانوا يصوبون بنادقهم الى النائمين في اسرتهم ،
 حتى اذا افاقوا من نومهم ، ذعروا من مشهد لم تأت بمثله وحشية
 الغصابو الهنارية . وهكذا اعتقلوا فخامة الرئيس بشارة الحوري ،
 ورئيس حكومته رياض الصلح ، ووزير الداخلية كميل شمعون ،
 ووزير الخارجية سليم تقلا ، ووزير التموين عادل عسيران ، ونائب
 طرابلس عبد الحميد كرامي ، بعد ان فتشوا بيوتهم ، وصادروا
 اوراقهم . ثم اقتادوا كلا من المعتقلين ، في سيارة ملاءى بالجنود
 المسلحين ، الى « قلعة راشيا » . ولقد كانت تصرف الجند في بيوت
 المعتقلين يختلف باختلاف الضباط واخلاقهم . فالضابط الذي تولى
 الجرم في بيت رئيس الجمهورية كان فظ الاخلاق ، رأى ان يظهر
 بطولته بترويع العيلة كلها . وكانت اول من اصطدمت به وبرجاله
 الآنسة الصغيرة كريمة الرئيس ، وهي لا تتجاوز الثالثة عشرة بعد .
 وما ان افافت ، حتى رأت سلاحاً مصوباً اليها ، فصرخت ، ولكن
 اولئك الجنود « الابطال » اسكتوها مهددين ، الى ان وصلوا الى
 غرفة فخامته . وعبثاً حاولت زوجة الرئيس الاتصال بطبيب
 العيلة ليسرع الى الابنة ، اذ ان الابطال مانعوا بذلك ، وهم في اثناء
 معركة تتوقف عليها امجادهم ، ولا مجال للاهتمام بمعاملة المقتضيات
 الانسانية . اما الضابط الذي كان على رأس القوة في بيت رياض

الصلح ، فيكفي ان يذكر اسمه ، ليعرف الجميع بفظاعة تداييره وعمله . هو « بوتيليون » الذي كان مثالا اعلى ، للاخلاق السيئة ، وللأعمال الوحشية ، التي كانت بطلها في المدة التي كان فيها من اولي الامر ، في دوائر الامن العام الفرنسي ، في هذه الديار . وكانت ابشع معاملة ، تلك التي انزلوها بعبد الحميد كرامي . ولا شك ان لعبد الحميد ، ميزة خاصة في قلوب المستعبرين . فقد اقتلعوا هذا الزعيم من فراشه ، ولم يتركوا له فرصة ليتردي لباسه ، بل اخذوه بالقميص و « الكلسون » ، حافاً ، ورفضوه الى السيارة ، فخرج جبينه وسال الدم منه ، فوضع على رأسه منديلاً في الطريق ، حتى اذا وصل الى راشيا ، وكان رفاقه كلهم قد وصلوا اليها قبله ، دهش اولئك اذ رأوه على هذه الصورة ، وبادر الوزير كميل شمعون ، الذي كان قد تمكن من اخذ ثيابه معه ، تعطفاً من الضابط الذي تولى اعتقاله ، فاعطى عبد الحميد ثوباً يقيه البرد ، وضمدوا له جراحه بما تيسر .

وظل المعتقلون في قلعة راشيا طول مدة الاعتقال ، التي كانت احد عشر يوماً . فلم يغادرها سوى فخامة رئيس الجمهورية في ليل ١٨ تشرين الثاني ، بناء على دعوة الجنرال كاترو ، ودولة رئيس الوزارة رياض الصلح ، في ليل ١٩ تشرين الثاني . فاتى كل منهما الى بيروت مخفوراً ، واعيد مخفوراً . ذوق ، ولباقة سياسية ، تجلت في دعوة الجنرال ، اذ يأتي برئيس للجمهورية ، ثم برئيس للحكومة في ليل بارد ، من قلعة راشيا الى بيروت ، في سفر يدوم ساعتين ، ثم يرجعها في الليلة نفسها الى راشيا ، دون ان يفكر بما

سببه لهما من الانزعاج ، بينما هو يأوي بعد المقابلة ، الى فراشه
الناعم الوثير . هذا هو الجنرال « كاترو » الذي يصفونه بالحكمة
والمرونة واللباقة .

اما معاملة المعتقلين في القلعة ، فقد كانت تتم عن ادب وذوق
المعتدين . لقد وضع رئيس الجمهورية في غرفة خاصة ، ليس تكريماً له ،
بل ليكون معزولاً عن رفاقه . وهكذا كان نصيب رئيس
الوزارة . اما الاربعة الباقون ، فوضعوا في غرفة واحدة .
وكانت الغرف ضيقة ومحرومة من وسائل الراحة ، مسدودة
النوافذ ، يقوم على حراستها حراس من الجند ، احياناً فرنسيين ،
واحياناً من عبيدهم . اما الاسرة ، فقد كانت مستعارة من اسرة
الجنود ، ضيقة لدرجة ان النائم لا يستطيع ان يتحرك عليها بسهولة .
فراشها واغطيها من الخيش الرديء . اما الطعام فكان على
حساب المعتقلين ، بواسطة طاهية من راشيا . وكان سكان راشيا ،
يرسلون اليها الالوان المختلفة ، ويسهرون على وجوب طهيها
بتظافة ودقة .

وهكذا بقي اولئك الزعماء ، في حصن راشيا ، احد عشر يوماً ،
يقتلون الوقت في التفكير ، ولعبة النرد ، والمباحثة في الحوادث
التي كانت تتسرب اليهم بصورة سرية ، وينتظرون ما تسخض به
الايام ، وما ستأتي به ثورة لبنان . فلنتركهم الآن في غزلتهم ،
لنرى ما أحدث هذا الاعتداء من الاثر في العاصمة ، وفي جميع
الاراضي اللبنانية .

بيروت الجبارة تضرب ضربتها

اما في بيروت ، فقد اذاع هيللو ، سفير فرنسا في الساعة الثامنة صباحاً من الراديو ، خطاباً اعلن فيه التدابير التي اتخذها . و اعلن تسمية « اميل اده » رئيساً للدولة وللحكومة . فكان خطابه مزيجاً من المكر ، والرياء ، وسوء النية . اما اميل اده ، فقد بقي طول مدة الثورة ، يحاول تأليف حكومة تساعد على جريمته ، فلم يستطع ان يجد احداً يتعاون معه . فالتجأ اخيراً الى الموظفين ، مهدداً اياهم بجميع وسائل التهديد . غير انه خاب في جميع محاولاته ، واضرب اكثر الموظفين عن النزول الى اعمالهم ، فانشت الآلة الحكومية ، وتوقفت المصالح . وكان هو في ذهابه واياه محاطاً بالقوات الفرنسية المسلحة ، والجماهير حوله تكيل له الشتائم . وقد كانت اكثر من محاولة اعتداء عليه ، في طريقه وفي بيته . ولا شك ان ذلك الرجل ، الذي ما خطر بباله يوماً ، ان الشعب اللبناني سيقف هذا الموقف ، ندم على اشتراكه في هذه الجريمة النكراء . انتشر نبأ اعتقال الزعماء في المدينة كالبرق . فما كانت الساعة السابعة صباحاً ، حتى عم الحبر . فاضربت العاصمة اضراباً شاملاً تاماً ، وتعطلت حركة السير اجمالاً ، وتوافدت الجماهير الى بيوت المعتقلين ، وعمت المظاهرات الشوارع . فاصطدمت الجماهير بالقوات الفرنسية المراقبة لقمعها ، فوقع ، من جراء ذلك ، حوادث عديدة

سقط فيها قتلى وجرحى . واحرق المتظاهرون السيارات الفرنسية عندما كانوا يلتقونها . وتوحدت منظمتا الكتائب والنجادة ، تحت قيادة رئيس الكتائب الشيخ « بيار الجميل » الذي ما لبثت السلطة العسكرية ان اعتقلته . واستقرست القوات المسلحة بينادقها ، ورشاشاتها ، ودباباتها ، لتقمع المظاهرات التي قام بها اللبنانيون ، احتجاجاً على طغيان الطغاة الماكرين . ورأى اولئك المحاربون ، في ساحات بيروت ، ميداناً مناسباً لاطهار بطولتهم . فكانوا يعمرون في سياراتهم شاهري السلاح ، يطلقون الرصاص على جماهير من النساء والصبية العزل من اي سلاح ، غير سلاح الحق والايمان .

وتوالى اجتماعات الهيئات المختلفة . وتنادت النقابات ، والجمعيات والاحزاب ، الى عقد مؤتمر وطني عام ، انتخب منه لجنة تنفيذية ، لتدير الحركة وتشرف على الاضراب . فكان يوالي اجتماعاته اليومية في بيوت اعضائه ، يوماً هنا ، ويوماً هناك ، تهرباً من ملاحقة القوات الفرنسية . وفي كل يوم ، بل في كل ساعة ، تذهب الوفود الى ممثلي الدول الحليفة ترفع الاحتجاجات ، وتستجد بالافطار العربية الشقيقة لمساعدة لبنان في محنته . فكان اولئك الممثلون يهبون لنجدتنا ، ويتصلون بحكوماتهم ، ليوقفوها على ما يجري في لبنان ، وعلى الفظائع التي يرتكبها المعتدون . ومنذ الدقيقة الاولى ، اعلن الجنرال « سيرس » ممثل بريطانيا العظمى ، « المستر ودسورث » ممثل الولايات المتحدة ، ان حكومتيهما لن تسكنا عن هذا التعدي . ولن تقبلا الا برجع الحياة

الدستورية كاملة غير منقوصة كما كانت تماماً قبل ١١ تشرين ثاني سنة ١٩٤٣ .

اما مصر والعراق ، هاتان الشقيقتان العزيزتان ، فكنا نستقبل تصريح حكومتيهما ، واستعدادهما للدفاع عن شقيقتها المنكوب يتشوق ولهفة . وعندما قام « النحاس باشا » في مصر يرغي ، ويزيد ، ويهدد الفرنسيين ، كانت اصوات اللبنانيين تتعالى بالهتاف لجلالة ملك مصر ولرئيس حكومته . وكانت مذكرة النحاس باشا الى الجنرال ديغول قاسية ، انهاها رفعته بهذه العبارة : « فاذا لم تعد الحالة في لبنان الى وضعها المنطقي ، فان مصر تعيد النظر في موقفها من فرنسا ، على ضوء الحوادث الجارية . »

اما السيد « تحسين قداري » ممثل المملكة العراقية ، فقد اتخذ موقفاً شديداً ، ودل بعمله وجراته على ما يكنه للبنان من حب وتقان واخلاص . وقد كانت مذكرته ، الى المندوب الفرنسي ، شديدة اللهجة ، اظهر فيها استنكاره لما اتته السلطة الفرنسية ، وبين له خطورة الحالة وفضاعة الاعتداء ، ومما جاء فيها قوله : « انه لمن المؤسف يا فضامة السفير ، ان يتحقق ما حسبته من نتائج ذلك العمل الشاذ . فما انتم تعلمون - كما اعلم - ما سببه عملكم من هياج الجمهور اللبناني ، اذ عرف كيف اعتقل رجال دولته ، وكيف اهيئت نساؤهم وروع اطفالهم . وما انتم تروث قوائكم العسكرية ، تنصرف عن المهمة التي انتدبت لها نفسها ، وانتدبها الحلفاء لها - وهي محاربة قوات المحور ، وانقاذ البلاد التي اجتاحت

ومنها بلادكم فرنسا - الى تعطيل الدولة الشرعية في لبنان ،
واختطاف الرؤساء ، واحتلال البرلمان . وتسليط رجال غير
شرعيين ، على الاعمال الحكومية ، وتهديد افراد قوات الامن
الداخلي بالموت ، اذا هم خالفوا اوامرهم ، واطاعوا الحكومة
الدستورية الشرعية . واخيراً الى اجراءات القمع العسكري ، في
البيوت والشوارع ، وتسليط النار على الشعب الاعزل ، مما
شاهده المراقبون العسكريون ، والمدنيون ، والدبلوماسيون ،
الاجانب والوطنيون .»

ثم انهي مذكرته باللبحة التهديدية الآتية : « ويؤسفني يا فخامة
السفير ، ان ابلغكم انه في حالة اهمالكم نصائح حكومتي ،
وطلباتها هذه ، لن يستطيع العراق ان يقف مكتف اليدين ،
اذ لا بد له ان يتخذ الموقف ، الذي تليه واجباته الانسانية ،
ومصالحه الدولية ، كحليف يتطلب هدوء هذه الناحية من
العالم ، وهو يساهم على العمل للوصول الى انتصار الحق
والحرية .»

وهبت سيدات لبنان الى الجهاد ، وخرجن من خدورهن
بمظاهرات مؤثرة ، وطفن في الشوارع ، يشجعن على الاضراب
وعلى المقاومة ، وزرن عدة مرات ممثلي الدول . ولم تبالي
المرأة المسلمة بحجابها ، عندما دعا داعي النضال ، فسارت بجانب
اختها المسيحية على اقدامها الى دور السفارات ، والى جميع
المقامات ، تنادي بالجهاد الوطني . فما كانت من اولئك « الابطال »

الذين حملوا السلاح، الا ان صوبوه الى صدورهن، تشفياً وانتقاماً .
وان انس فلا انس ذلك المشهد الرائع ، عندما هجمت شزيمة
من الجنود السنغاليين ، بقيادة خابط فرنسي على المظاهرات في
السفارة الاميركية ، فانبرت احدهن ، وخاطبت ذلك الضابط
بلغته ، وقالت : « اطلقوا بنادقكم ايها « الابطال » انتم الذين
كانت يجب عليكم ان تحاربوا اولئك الذين اغتصبوا بلادكم ،
واستعبدوا نساءكم ، واذلوكم ، فاتيم تظهرون بطولتكم ، على
شعب نزلتم عليه بحجة الصداقة التقليدية ، فاذا بكم لصوص
تسرقون امواله ، وتستبيحون دماء ابنائه . » وكان رجال السفارة
الاميركية يصورون اولئك الجنود ، وهم يصوبون نارهم الى صدور
السيدات اللبنانيات .

لله درك ايها اللبنانية الباسلة الواعية . لقد سكت طويلاً
عن ضميرك كات يلحق ببلادك . فظن العاملون ان بك ضعفاً في
ايمانك ، ولا مبالاة صرفتك عن القيام بواجبك الوطني ، الى التلوي
بتوافه اساليب المدنية الغربية . واتهمك المستعمر الاجنبي ، بانك
تتكبرين للبنانيتك ، فكان همه الاكبر ، ان يزرع فيك روحاً
غريبة خبيثة ، تشير فيك الكره والاحتقار لعروبتك ، لتقربي
الى مدنيته ، وثقافته ، ومجتمعه المصطنع ، بالوان الزيف والفساد .
كان يعمل ذلك ، ليقينه انك انت مرآة المجتمع اللبناني ، فاذا
اكتسبك الى جهته ، اكتسب بك النشء اللبناني الجديد ، وقضى
على روح وطنية يعمل في سبيلها الوطنيون المحضون .

في هرين بشامون

قلنا انه تخلص من الاعتقال ، الوزيران حبيب ابو شهلا ، والامير مجيد ارسلان . فذهبا في صباح النكبة الى دار الوزير البريطاني المفوض ، واحتجا لديه احتجاجاً شديداً ، ومكثا هناك بضع ساعات ، ارسلوا في اثنائها الاحتجاجات الى جميع المراجع الخليفة ، وممثلي الدول العربية .

وكان رئيس المجلس النيابي « صبري بك حماده » وبعض النواب قد أموا البرلمان . فحاصرتهم فيه قوة فرنسية ، ومنعت عليهم الاتصال بالخارج . وقد عقد اولئك النواب جلسة رسمية اتخذوا فيها قراراً ، بتفويض الاستاذ حبيب ابي شهلا ، والامير مجيد ارسلان ، القيام باعمال الحكومة ، على ان يقوم الاستاذ ابو شهلا بوظيفة القائم باعمال رئيس الجمهورية ، ورئيس الحكومة ، والامير مجيد بوزارة الدفاع . ثم رستموا في هذه الجلسة ، العلم اللبناني الجديد ، واتخذوا قرارهم التاريخي ، بجعله علماً وطنياً بدلاً من العلم القديم ، ولما استطاع رئيس المجلس النيابي ، والنواب المحاصرون ، ان يتركوا دار البرلمان التف حولهم اكرتية رفاقهم ، ما عدا خمسة او ستة من ضنائع اده والفرنسيين . وكانت تتوالى اجتماعاتهم ، تارة في بيوت النواب ، وتارة في دار ولي مدرسة الحكمة ، السيد « اغناطيوس مبارك » مطران بيروت الماروني ، الذي كان له

القدح المعلى في الجهاد الوطني ، واجباتاً في بيت سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية . فكانت تنبثق عن هذه الاجتماعات ، قرارات تشريعية ، اهمها توجيه انذار الى مصرف سوريا ولبنان ، باعتباره مسؤولاً عن كل ما يدفع من جانبه الى غير الحكومة الشرعية . وقد تقييد البنك بهذا الانذار ، لا سيما والدول الحليفة كلها لم تعترف « بكويسلغ » لبنان ، والوضع الذي اقامه السفير هيللو . ومنذ الدقيقة الاولى ، اعلنت هذه الدول ، بلسان ممثلها ، انها لا تعترف الا بالحكومة الشرعية المنبثقة عن الدستور ، والمثلة باشخاص الشيخ بشارة الحوري رئيساً للجمهورية ، ورياض الصلح ، وحكومته ، الحائزة ثقة البرلمان الاجماعية . وكانت هذه الحكومات تفاوض الوزراء أبا شهلا واوسلان ، معترفة بها قائمين باعمال الحكومة الشرعية .

وكان لا بد للحكومة الموقفة من ان تتخذ لها مقراً خارج بيروت ، التي كانت تزح تحت حكم الارهاب العسكري الفرنسي . فاخترت بلدة « بشامون » ، وهي قرية جبلية تبعد مسافة عشرين كيلومتراً عن العاصمة ، فجا هذا الاختيار موفقاً بالنظر لموقع القرية الخاص . ومنذ اللحظة التي وصل فيها الوزيران ، ورئيس المجلس النيابي ، ورفاقهم من الموظفين ، اخذ يتهاقت عليهم المتطوعون من كل حذب من لبنان . وقد تجمع حول الحكومة المئات من المجاهدين ، باسلحتهم المختلفة ، ومئات من المتطوعين غير المتسلحين ، كانت مهمتهم مساعدة القوة الوطنية ، وخدمتها واعاشتها . وقد تولى تنظيم هذه الفرقة الوطنية البطل اللبناني « نعيم

مغيّب » ، وكانت بقيادة وزير الدفاع والقائد العام ، الامير مجيد ارسلان ، يعاونه الكولونيل فوزي الطرابلسي .

اما القوات الفرنسية ، فقد ساءها ان تنظم قوة وطنية في البلاد ، للدفاع عن حريتها واستقلالها . فجرت على بشامون حملة من جنودها ، اكثروها من السنغاليين والقناصة تحت امرة ضباط فرنسيين ، مجهزة بالرشاشات والمدافع والديابات . فالتحذت هذه الحملة بلدي سوق الغرب وعينات مقرأ لها . وفي صباح ١٦ تشرين الثاني ، هاجت هذه القوة بلدة بشامون ، فاصطدمت عند مدخل القرية بطلائع الحرس الوطني . ووقعت بين الحصين مفاوضات ، وتبادل الفريقان اطلاق النار . وكان مع المهاجمين ديابتان وعدة مدافع رشاشة . غير ان الوطنيين كانوا قد احتاطوا لامرهم ، فسدوا على الديابات طريقها ، بصخور ضخمة ، وعندما تحقق الفرنسيون ان في بشامون قوة لا يستهان بها ، اجبروا عن التورط في عملياتهم العسكرية ، وتراجعوا الى مركزهم الاول . اما الخسارة فقد كانت شهيداً وطنياً يدعى « سعيد فخر الدين » ، من شباب عين غنوب وثلاثة جرحى .

اما بشامون فقد كانت مرجع جميع العاملين في العاصمة ، يتصلون بالحكومة يومياً ، ليتلقوا اوامرهم ومقرراتها . وكانت السيارات تندفق اليها ، حاملة الشخصيات المتعددة ، ومقادير الاعاشة والذخيرة اللازمة للمجاهدين . وبينما كانت العاصمة اللبنانية تغلي غلياناً بالحماة ، وبينما كانت المظاهرات تملأ الشوارع ،

والوفود تؤم السفارات ، والوكالات السياسية ، من الصباح الى نصف الليل ، وبينما كانت القوات الفرنسية تطارد المظاهرين بالسلاح ، وبينما كانت قوات الامن العام الفرنسي تواصل تعدياتها وتعتقل الشخصيات الوطنية ، وبينما كان يزداد في كل يوم ، عدد الشهداء والجرحى في بيروت ، وطرابلس ، وصيدا . بينما كانت الدنيا قائمه قاعده ، كان المؤتمر الوطني اللبناني يتقبل التبرعات السخية من المواطنين: تجاراً ، اطباء ، ومحامين ، وسيدات ، وشركات ليصرفها على تنظيم المقاومة ، واعاشه المجاهدين ، ومساعدة المنكوبين . ولما انكشفت الجرائد الوطنية عن الظهور استنكاراً للاعتداء الشنيع ، صدرت في اليوم الاول جريدة سرية عنوانها (؟) «علامة الاستفهام» واذ رآها جماعة الفرنسيين ، اصدروا هم ايضاً جريدة مقلدين هذا العنوان للدعاية ضد الحركة الوطنية . فما كان من القيمين على الجريدة الوطنية ، الا ان اصدروا جريدتهم تحت عنوان (??) « علامتي استفهام » وكانت جريدة الوطنيين توزع سراً ، فتشتر اخبار الثورة بسرعة البرق في جميع الانحاء اللبنانية .

- ٧ -

لا هوادة قبل الفوز

هي ثورة ارجالية ، هذه الثورة التي اندلعت في لبنان ، في الساعة الاولى التي وقع فيها التعدي الطغياني الشنيع المستنكر . فانقلب الشعب اللبناني كله ، من شعب مسلم ، هادي ، مسابر ،

الى شعب ناثر ، غضوب ، مقاتل . شبانه حملوا ما تيسر لهم من السلاح . وشيوخه رجعت اليهم شعلة الشباب ، ليقودوا نار الحماسة في صدور المجاهدين . نساؤه حملن في صدورهن سلاح الايمان ، ومشين في مظاهراتهن في وجه الجنود المسلحة المجتمعة ، لقمع الحركة الوطنية . واطفاله ، الله من اطفالك يا لبنان ، ما اجملهم وهم يركضون في الشوارع ، يغلزون المتاجر ، وينادون بحياة المحاصرين ، وسقوط الحائنين ، وبجلاء المستعبرين ! سلاحهم حماسة ، وايمان ، وحجارة ، يرشقون بها قوات الامن هنا ، وسيارات الجيش هناك . يتقبلون رصاص الجندي العبد ، فيستشهد منهم نفر ، ويخرج الكثيرون ، وهم ينشدون الاناشيد الوطنية ، وهزجون لاستقلال لبنان وكرامة لبنان .

وبقيت نار الثورة متأججة كل مدة الازمة ، فلم تحمد في انتهائها الا لتنتقل الى موجة فرح وسرور ، برجوع المعتقلين واعادة الحياة الدستورية الشرعية . ودام نضال الشعب يزداد يوماً عن يوم ، بينما كانت اذاعات العالم كله تلجج بثورة لبنان ، وجهاد اللبنانيين ، مستنكرة الاجراءات القاسية التي غامر بها جماعة الفرنسيين . وكانت الحكومات الديمقراطية كلها بجانب هذا الشعب المجاهد . ففي كل يوم تصريحات من البرلمانات الديمقراطية ، ومنذكرات من الامم المتحدة ، تنذر اللجنة الوطنية الفرنسية بسوء العاقبة ، اذا لم تعد الى رشدها ، وتعود عن جريمتها النكراء . وانه لمن دواعي الفخر ، ان يخص القضية اللبنانية بجلسة خاصة ، اعرق المجالس الثيائية في العالم ، اعني به مجلس العموم البريطاني . وان

توجه حكومة الولايات المتحدة ، أم الديموقراطيات ، مذكرة قاسية الى لجنة الجزائر ، تهددها بتغيير موقفها تجاهها اذا استمرت في عنادها . وانه لمن دواعي الغبطة ، ان تتجند حكومات البلدان العربية ، للدفاع عن قضية لبنان وحقه في السيادة والاستقلال . ولبنان هو الشقيق العزيز لهذه الاقطار الكريمة .

وبقي الاضراب مستمراً في المدن اللبنانية ، وبقيت الاعمال مشلولة ما دامت الازمة ، وتحضت في عرينها حكومة بشامون . فكانت قواتها الوطنية ترداد يوماً عن يوم ، بمن يهرع اليها من المتطوعين ، وما اجل « بشامون » في تلك الآونة . لقد ذهب اليها تكراراً ، فكنت في كل مرة اجد من معالم الفروسية والكرامة ، ما تعجز له النفوس ، وتشخ لبوادره الرؤوس . اولئك المتطوعون المجاهدون ، يحملون البنادق ، ويفترشون الثرى ، ويلتحفون السماء ، متأهين لرد اي غارة تغيرها جيوش المستعمرين . وذلك الفارس الارسلاني المغوار يثير فيهم حماسة ، فيجيبونه لعينيك ايها الامير ، فلنجعلن من عرين بشامون حصناً يرد كيد الانصام والاعداء ، فلا نرجع الا والفوز حليفنا ، والكرامة تتوج رؤوسنا ورؤوس اللبنانيين كافة . ايه يا بشامون ، لقد كنت عرين الاسود ، وحصن لبنان الاشم . فليكن لك في تاريخ لبنان ذكر ابدى ، خالد .

ودار الفلك دورته . ولا بد للفلك من دوران . ورأى الفرنسيون ان لا بد لهم من التسليم والخضوع ، لارادة الامة

الباسلة ، ولاحكام الامم المتحدة الحرة . فاصدوت لجنة الجزائر قرارها في ٢١ تشرين الثاني ، القاضي باعادة رئيس الجمهورية الى منصبه ، واطلاق سراح المعتقلين . فانطلقت صرخة الابتهاج من الصدور ، وتوافدت الجماهير الى بيت فخامة الرئيس ، وبنوت الوزراء ، وكانت طلقات الرصاص تشق الهواء . واجتمعت عشرات الالوف من اللبنانيين في صباح اليوم التالي ، وساروا بمظاهرات امتلأت بها الشوارع ، حتى وصلوا الى دار البرلمان ، الذي كانت قد اقلته السلطة ، واقتحموه عنوة ، ثم اعتلوا سطح البناء الشامخ ، وانزلوا العلم اللبناني القديم ومزقوه تمزيقاً . ورفعوا على البرلمان العلم اللبناني الجديد ، العلم الذي حاكت نسجه الثورة ، وصبغته بدماء شهدائها الميامين ، مستبدلين بالخطوط الفرنسية خطين اقيين ، من اللون الاحمر القاني ، يتوسطهما خط ابيض ، منقوش عليه ارزة لبنان الخالدة . ثم ذهبوا ورفعوه على الابنية الرسمية الاخرى . فكانت هذه البادرة ومزاً حاسماً لاستقلال لبنان الصحيح وسيادته وكرامته .

ايها العلم المحبوب ! لقد مسخوك في عهد الاستعباد الذي سموه انتداباً . فصوروك لنا بصورة اقرب الى المذلة والاحتقار . لقد احاطوا ارزتك بالوان العلم الفرنسي ، ليدلوا بهذا الاحتضان انك عبد لارادتهم ، ومطية لاستعمارهم . واذا بك اليوم تأبى الا ان تكون علماً لبنانياً خفاقاً ، ترمز الى مجد لبنان . ولا يرضى الشعب اللبناني الثائر ان يحيط ارزتك الخالدة ، الاسياج من دماء شهدائه الابرار . اخفق ايها العلم ليحييك اللبنانيون ،

وليرى فيك العالم اجمع : رمزاً عزيزاً كريماً للكيات
اللبناني الخالد .

وقام لبنات ليلة الثالث والعشرين من الشهر تتوجه اكليل
الغار . غير ان اهل العاصمة ابوا ان يستسلموا الى الرقاد ، قبل ان
يصل زعمائهم من راشيا . ومرّ الليل بكامله وبيوت الرئيسين
والوزراء تستقبل الوفود وتبع بالزائرين . واصبح الصباح فاذا
بالنبا يقول : ان المعتقلين الاحرار غادروا قلعة راشيا ، ووصلوا
عند الظهر الى شتوره حيث كان الاهلون ينتظرون . ثم غادروا
شتوره تتقدم سياراتهم الدراجات البخارية ، ويتبعها رتل
من السيارات ، تقل المستقبلين والمرافقين . فوصل الموكب في
الساعة الرابعة عشرة الى بيروت ، حيث كانت الجماهير تنتظر هذا
القدوم الميمون . فما كنت تسمع الا صيحات الابتهاج ، وزغردة
النساء ، ولعلعة الرصاص تشق غنان الهواء ، وسار الموكب الى
بيت فخامة رئيس الجمهورية ، حيث كانت بيروت باجمعا . وكان
مشهد مؤثر ، عندما صعد فخامته درج قصره ، واستقبلته صاحبة
العصمة عقيلته واولاده ، فهطلت دموع الفرح من عيون الجميع .
ثم خرج فخامته الى الشرفة ، فخطب بالجماهير المحتشدة ، وكانت
نبراته تم عما يكنه فؤاده من الحب والاخلاص للبنان ، والتفاني
في سبيل حريته وكرامته . ثم ذهب الوزراء الى بيوتهم ، حيث
كانت عائلاتهم تنتظرهم على احرّ من الجمر ، وحيث كانت المجموع
ترقب مقدمهم سالمين اصحاء معافين .

ودامت المظاهرات الاحتفالية ذلك المساء ، والليل بطوله .

وكان موكب فرقة النجادة ، يحمل المشاعل ، ويطوف بها على بيوت الوزراء ، ويبت رئيس الكتائب اللبنانية الذي فكّ اعتقاله ايضاً . وهم ينشدون النشيد اللبناني ، وتعزف موسيقى الفرقة الانغام الشجيّة .

كان هذا الموكب من اروع ما شاهده لبنان من معالم البهجة والسرور ، وبقيت بيروت في عيدها الرائع الى ان اصبح الصباح . فنزل الوزراء الى مكاتبهم ، بالرغم من ان قرار اللجنة « ألجّه » الاول لم يكن قد اعترف باعادة الحياة الدستورية ، بل اقتصر على الاقرار برجوع فخامة رئيس الجمهورية وحده الى مركزه . ولكن ، ما قيمة قرار ألجّه ، والشعب اللبناني الهائج اظهر ارادته بشكل ما من قوة تجرؤ على مقاومته . فما كان من الجنرال « كاترو » الموفد رسمياً ، من قبل اللجنة الوطنية الفرنسية لحل الازمة ، الا ان خضع لارادة الشعب ، واعلن بلسان السفير « شاتينو » الذي حل محل « هيللو » المعزول ، الرجوع عن جميع القرارات التي صدرت من الجانب الفرنسي ، منذ ١١ تشرين الثاني . وقد جاء الرجلان « كاترو وشاتينو » الى السراي ، وقدا كتاباً الى فخامة الرئيس ، يعترفان فيه باسم اللجنة الوطنية بالوضع اللبناني كما اقرته الحكومة اللبنانية ، وايده البرلمان .

وفي اليوم التالي ، كان موعد نزول الامير مجيد الى العاصمة ، فكان موكب قلّ نظيره . الامير مجيد بملابسه الحربية يودع بشامون ، ثم يغادرها في سيارة مكشوفة ، مع الوزيرين ابي شهاب

وعسيران ، تتبعه مئات من السيارات ، ويرافقه فريق من الحرس الوطني . فكان كلما مر ببلد تعالت اصوات الهتاف والزغردة ، وطلقات الرصاص ، حتى اذا وصل الى بيروت ، احتشدت الجماهير في الساحات والشرفات ، وعلى سطوح الابنية تنظر الى الامير واقفاً في السيارة ، متمنقاً بالاسلحة التي ما فارقه مدة الازمة كلها ، ومظاهر البهجة والفرح على وجوه الجميع ، واصوات الهتافات تشق عنان الجو ، حتى وصل الى السراي ، فاستقبله رئيس الحكومة معانقاً . ثم صعد الى ديوان الرئاسة ، فاخذة فخامة الرئيس بشاره الحوري بين ذراعيه ، وعانقه طويلاً . وما كان من الامير الباسل الا ان خلع عنه اسلحته ، ووضعها تحت تصرف الرئيس الجليل .

- ٨ -

المهد امانة في مبادئ الاحرار

والآن اري من واجبي ارسال تحية خالصة صادقة الى الشعب اللبناني ، الذي برهن في محنته هذه ، على وعي قومي رائع ، ووطنية ملتزمة صادقة . لقد صور المغرضون لبنان بابشع الصور ، واتهموه بالضعف والخنوع ، وانتووا استيقاءه تحت ظل الاستعمار والاستعباد . لقد ارادوه في قبضة يدهم ، يتحكمون بمقدراته ، ويخنقون صوته ، اذا رفعه شاكياً آلامه ، عاملاً على تحقيق آماله واحلامه . فكانت ساعة الشر ، عندما امتدت يد القوة الظالمية

الغاشمة ، الى رؤسائه ، وزعمائه ، ودستوره ، قصدوا بها ان
يقضوا على قدسية حقّه وحريته وآماله . غير ان شرهم انقلب عليهم
عندما تفجّر بركان غضبه ، واندلعت نيران ثورته الكامنة ، وظهر
لبنان بحقيقته الناصعة البيضاء ، يأبى الذل والهوان ، ولا يرضى
باقبل مما تتمتع به الامم المستقلة الحرة . تباركت هذه المحنة التي
وحدت الصفوف ، وجمعت القلوب ، وابادت التحاسد والتنافر ،
وقضت على روح التفرقة والشقاق ، فكان الظفر للبنان والخذلان
لمن ارادوا الايقاع به ، وبكرامته واستقلاله ، هذا الاستقلال
الذي دفعنا ثمنه من دماء شهدائنا ، واقتنصناه من محالب اخصامنا
واعداثنا . واذا كان لنا من كلمة نقولها للامم الظافرة ، يوم
الحساب ، نقولها عالياً ، مستصرخين وجداد الامم الديموقراطية
الحرة ، لاحترام الحريات والاعتراف بحقوق الشعوب ، وفقاً
للمبادئ التي اعلنوها يوم امسّقوا الحسام بوجه الطغيان ، وبادلناهم
العهد عليها ، والعهد امانة في اعناق المتعاهدين .

الفصل الثامن

بسم الثورة

« ملحق رقم : ٢ »

- ١ -

احتفالات ومهرجانات

بعد هدوء العاصفة الثورية، ورجوع الآلة الحكومية الى ما كانت عليه قبل ١١ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣ ، استقر الوضع الاستقلالي في البلاد . وقد تواصلت موجات الفرح والابتهاج الى ايام واسابيع ، متجلية في حفلات واعياد تستعدها شتى المناسبات . وقد كانت ابرزها زيارة البعثة الملكية المصرية ، التي اوفدها جلالة ملك مصر الى فخامة رئيس الجمهورية برئاسة كبير الياوران الفريق عمر فتحي باشا . هذه البعثة التي جاءت ، تعرب عن ابتهاج الفاروق المحبوب بخروج لبنان من محنته ظافراً . وقد بقيت البعثة الملكية موضع حفاوة لبنان ، حكومة وشعباً ، طيلة اقامتها في ربوعنا التي دامت مدة اسبوع كامل ، واستطاع في اثنائه لبنان ان يظهر تقديره للقطر الشقيق ، ويعبر عن ولائه للعاهل الشاب الذي هب لنصرته ايام نزلت به النكبة ، دون ان تقيد قيود العرش ، او

ينال من سعيه بروتوكول البلاط . اسبوع من اسابيع العيد ،
تصافح فيه العلمان المصري واللبناني ، بينما كانت هتافات اللبنانيين
تعالى ، لمصر ولليكمها ولشعبها .

ثم كانت رد الزيارة الى مصر . عندما حمل رياض بك الصلح
ورفاقه الى الفاروق ، اصدق عواطف الشكر والود والامتنان ،
من هذا البلد المشهور بعرفان الجميل . فلاقى وفدنا في القطر الشقيق
من عطف الملك ومن ولاء الشعب المصري ما يسجله لبنان في
تاريخه . وقد كانت بادرة تجلت فيها الروعة ، عندما غرس رئيس
الوفد في ساحة قصر عابدين العامر ، شجيرة من الارز الخالد ،
عربوناً صادقاً لتأخي البقطين العزيرين .

- ٢ -

بين الخصمين

وكان من المترتب على الجانب الفرنسي ، بعد استقرار الحالة ،
ان يبادر الى تسليم الحكومة الوطنية جميع الصلاحيات التي كان
يقوم بها الانتداب . فشرعت الحكومة في القيام بهذا العمل الذي
بقيت البلاد تنتظره سنوات عدة . ولم يتوان الجانب الفرنسي عن
اظهار استعداداه المشكور في هذا السبيل . وكان على رأس
المندوبية في هذا الحين السيد « شاتينو » الذي تذكر له البلاد مزاياه
الطيبة ، وتقدر له موقفه في اثناء حوادث تشرين الفاجعة ، عندما
كان سكرتيراً عاماً للمندوبية في عهد « هيلو » المشؤوم . ان

البلاد التي تذكر الحسنة ، كما تذكر السيئات ، لا يسعها الا ان تذكر لهذا الرجل النبيل ، صفاته الطيبة ، واخلاقه الكريمة .

توالت بروتوكولات التسلم والتسليم ، من المصالح المشتركة ، الى الشركات ذوات الامتياز ، الى ادارة المراقبة ، الى مصلحة الفئارات والجوازات الخ . ولم يتشبث الجانب الفرنسي بامر ما سوى الامور العسكرية ، وامن عام الجيش . اذ ادعى ان هذه الامور يجب ان تبقى في يديه طوال مدة الحرب . وايدته بذلك السلطة الانكليزية ، وقبلت السلطة الوطنية . وهنا لا بد من ملاحظة على المامش اقولها بصراحة ، وهي : ان الجانب الوطني كان سكراناً بمخمرة الظفر ، غير انه كان قليل الخبرة في هذه التديرات الدولية ، يبرز فيها الجانب الفرنسي . ولذلك كان في البروتوكولات ، التي حفظت للجانب الفرنسي هذه الحقوق ، كثير من الابهام ، حرم السلطة الوطنية من حقوق كانت اولى بها لو هي اعتمدت الخبراء في المحادثات التي جرت بين الطرفين . ولكن هي الحاسة ، وحسن القصد ، والنية ، وضعف الخنكة السياسية ، مما ترك المجال مفتوحاً لسوء التفاهم الذي كانت تصطدم به العلاقات بين الجانبين من وقت الى آخر .

- ٣ -

٢٧ نيسان

وكان يوم ٢٧ نيسان . وهو يوم دخول النائب يوسف كرم

الى المجلس . والسيد يوسف كرم أنتخب نائباً عن الشمال بانتخاب
فرعي ، خلفاً للمرحوم وهيب جعجع المتوفي . فكان لانتخابه ضجة
كبيرة لكونه ينتمي الى كتلة معارضة للحكومة القائمة . ولذلك
اتخذ المعارضون هذا الحادث وسيلة للقيام بمظاهرة ، لا تخلو من
التحدي والاستفزاز . ويوسف كرم هذا ، حفيد يوسف كرم
الشبيد ، يأتي الى بيروت في رتل من السيارات ، يحمل ركبائها
الرايات الفرنسية ، معلنين بذلك عداؤهم للوضع الجديد ، وللرجال
القائمين عليه . انه من باب الترجيح ، ان يوسف كرم نفسه ، كان
بعيداً عن هذه النية . هذا ما اعلته بنفسه قبل مغادرته طرابلس ،
وهذا ما قاله بعد دخوله المجلس . ولكن المستغلين ابوا ان تفوتهم
هذه السانحة ، فارادوا ان يلببوا ناراً تحت الرماد ، واتخذت
الحكومة الحيلة ، ولكنها كانت في اجراءاتها متروكة ، فما وصل
الموكب الى مدخل البرلمان ، حتى هجم القوم الى داخله محاولين
انزال العلم اللبناني الجديد ، ورفع العلم الفرنسي محله ، وظهر شاب
بثياب عسكري ، يعني اكتاف الجماهير ، ليعلق هذا العلم ،
فحصلت الضوضاء ، ولعلع الرصاص ، فاصيب عدد بجراح مختلفة ،
وقتل بضعة منهم . ثم رؤي هذا الجندي الغريب يتجندل من عل ،
اذ اطلقت عليه رصاصة من يد شاب وطني قبل انه «نعم مغيب» .
بعد ان كان نعيم ، قد اصاب هو ايضاً ، برصاصة في عنقه من يد
احد الحائنين . ولكن نعيماً ، البطل الذي قاد مفرزة بشامون في
حوادث تشرين ، لم يكثر لجراحه وللدماء السائلة من عنقه ،
فبقي في صميم المعركة مستهزئاً بالخطر ، حتى اضطره اصدقاؤه

والمعجبون به للذهاب ، كرهاً عنه ، الى المستشفى الاميركي . ثم تدخلت قوى الامن وفرقت المتظاهرين ، واحتجاج النواب ، وارتفعت اصوات الاحتجاج ، واختلط الحابل بالنابل ، وخطب رئيس الحكومة متوعداً ومتهماً مرجعاً فرنسياً كبيراً بالاشتراك بهذه المؤامرة .

وفي اليوم التالي احيلت القضية الى المجلس العديلي ، واقيمت التحقيقات ، فكان ان غضب الجانب الفرنسي من التهم التي وجهت اليه رسمياً من رئيس الحكومة ، والتي لم يتبين صحتها عدلياً ، وذلك عندما تدخلت مراجع كثيرة وطنية واجنبية بهذا التحقيق . ثم اسدل الستار على هذه القضية التي بدأت كبيرة وانتهت صغيرة . واكتفي بسجن نفر قليل من المسبيين . وبقي الجانب الفرنسي ، مصراً على طلب محاكمة الوطني نعيم مغيب ، بالرغم من تساهل الجانب الوطني مع الطرف الآخر . وبعد مرور شهرين بقي القبض على نعيم من قبل السلطة الفرنسية ، وحاكمته في محكمتها العسكرية وقضت بسجنه ستة عشر شهراً .

لقد تركت حادثة ٢٧ نيسان اثرأ سيئاً في البلاد ، اذ كانت بدء المحاولات التي قام بها الفرنسيون وعملآؤهم للرجوع الى الوضع القديم . وما لا شك فيه ان اتهام رئيس الحكومة رياض الصلح للجانب الفرنسي في جلسة المجلس ، ادت الى اضعاف مركزه تجاه الاوضاع الدولية . وما لا شك فيه ايضاً ، ان محاولته اصلاح هذا الطابق كانت سبباً لضياع هيبة الحكومة تجاه تصميم الجانب

الفرنسي على متابعة توجيه سياسة التفرقة والتسويق . هذه السياسة الذي كان اول ضحاياها نعيم مغيب . ثم المماطلة في قيام الاستقرار ، فظل الفرنسيون وزبائنهم يواصلون دعاياتهم ضد الوضع الاستقلالي ، ويدعون روح التفرقة بين ابناء البلاد .

— ٤ —

فوضى في داخل البيت

وكانت الايام تمر ، وتتوالى حوادث لا تحلو من القلق . وتكاثر هواجس المخوفين ، وراجت اشاعات من قبل الدسائس ، وساعدت الارتباك الحاصلة في الادارة الداخلية هذه الحال ، اذ فسحت هذه مجالا للدسائس والمشائبات ، واصوات الاستنكار ترتفع من هنا ومن هناك . فالحكومة التي اهتمت التطورات الخارجية عن عملها الاداري ، اصبحت بداء الاهمال والاستهتار ، فعمت الفوضى الدوائر . وظهر سوء الاستعمال في بعضها ، لاسيما في دوائر الاعاشة والتموين . وفعلت المحسوية فعلها الشنيع . وهي داء متغلغل في جسم البلاد في عيودها كلها ، وضعفت هيبة الحكم ، وكثر عدد الغاضبين « الحردانين » . وحل التشاؤم محل التفاؤل في صدور ضعيفي الايمان ، فكان اخصام العهد يستغلون هذه الروح ، وكان يعم خطر لولا ان هناك رسوخاً في العقيدة الاستقلالية ، في قلوب المحصلين المجاهدين . انها لفترة صعبة ، هذه التي مرت على البلاد . الاحكام فوضى ، والمحسوية منقشة ، وسوء الاستعمال لا يقف عند

حد ، والهيبة الحكومية في تضاريل متزايد . واساعات سوء يثورها
 الدساسون والمشاغبون . ان لكل انقلاب حسنة وسيئاته ،
 والقائد الحكيم يعرف كيف يستفيد من الحسنات ويأمن من شطط
 السيئات . غير ان القيادة لم تكن سهلة . والقادة كانت تنقصهم
 الخبرة والحكمة . ونحن لا يسعنا ان نتهمهم بسوء النية والقصد .
 ولكن هل يقول قولنا اولئك الذين لا هم لهم الا الكيد لهذا الوضع
 الاستقلالي الجديد ؟ !

— ٥ —

باريس تتحرر

وفي هذه الفترة الحائرة كانت اخبار الحرب تبشر بانتصار
 الحلفاء . وغزت الجيوش الحليفة فرنسا وطهرتها من المحتلين الالمان ،
 وتحررت مدينة باريس من مغتصبيها الاشرار . فكان لهذا التحرر
 رنة فرح في لبنان . واني استطعت القول باخلاص وتأكيد ان ما
 من لبناني واحد الا وامتلأ قلبه فرحاً لهذا التحرر المجيد . باريس
 مدينة النور والحرية . باريس قبلة الحضارة والتمدن . باريس معقل
 الفكر وموطن العظمة والابجاد . باريس مدينة العالم وعاصمة
 الدنيا . باريس التي اذها الغاصب مدة سنوات ثلاث . باريس هذه
 من لا يفرح لخلاصها . واي لبناني مهما كان لونه السياسي لا يعيد
 يوم انبلج عليها فجر التحرر والنجاة ؟ ان كثيرين من اللبنانيين ،
 ان لم اقل كل اللبنانيين ، كانوا يتألمون من عهد الانتداب والتحكم

الاستعماري ، يوم كان الموظفون الفرنسيون يسيتون الى لبنان ،
والى انفسهم ، والى فرنسا نفسها . ولكن اللبناني الحكيم العاقل
لا يخلط هذا بذاك . وهو اذا ابتغى الحرية لنفسه فهو لا ينكرها
على غيره من الناس .

ولكن هناك فئة ارادت ان تتخذ من تحرر باريس وسيلة
للتشفي والانتقام . فعبد رجالها الى اقامة المظاهرات الاستفزازية ،
كأنما ، والله ، باريس لهم وحدهم . فكان لعمل اولئك الغيورين
المضطهعين ، تأثير مؤسف في البلاد . هم ارادوا ان يتظاهروا
بالاخلاص والتفاني للمراجع الفرنسية . ولكن هذه المراجع ذاتها
احتقرتهم في دخيلة نفسها ، وان جاملتهم في ظاهرها . والظواهر
شيء ، والدواخل شيء آخر . والامور في حقيقتها لا في مظاهرها .

- ٦ -

عيد الاستقلال

ثم كان يوم ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٤ ، الذي كانت قررت به
الحكومة ، عيداً وطنياً للبنان . هو يوم تاريخي ، هذا اليوم الذي
رفع فيه العلم اللبناني الجديد ، للمرة الاولى ، على دور الحكومة
كلها . وهو اليوم الذي غاد فيه المعتقلون من راشيا ، والمجاهدون
من بشامون . فاحتفلت فيه الحكومة والشعب احتفالات كثيرة
متعددة . وقدم وزراء الدول الاجنبية يعايدون رئيس الجمهورية
والحكومة . وكان في طليعة المهنيين الجنرال بينه مندوب فرنسا

الحرة . فقطع بعمله هذا السنة النامين الذين ارادوا ان يظهروا
للشعب اللبناني ان فرنسا لم تعترف باستقلال لبنان كما اراده شعبه .
وكانت طعنة نجلاء في صدورهم ، وخيبة في احلامهم وآمالهم ، اذا
افاقوا فترة فلينبثوا الاشاعات المختلفة ليعكروا الجو . ولكن
القافلة تمشي . والامور تجري في مسيرها الطبيعي ، بالرغم من
محاولات يقوم بها البعض ، لاجباط مساعي المحلصين ، واكثرها
شراً ، الضرب على الوتر الطائفي ، يزرعون بذور التعصب بين
المسيحيين والمسلمين ، يخيفون اولئك من هؤلاء ، ويحركون اولئك
على هؤلاء . كل ذلك لكي يحدثوا في البلاد بلبلة وقلقاً ، وليخدموا
اغراضهم وغاياتهم . ومع ان هذه المحاولات لم تكن عديمة الاثر
السيء احياناً ، ولكن العقيدة الاستقلالية الراسخة في البلاد ،
كانت تقوى عليها . والنتيجة دوماً في صالح اصحاب العقيدة
والايمان .

- ٧ -

احاديث المعاهدة

وهنا لابد من الاشارة الى امر له ، من الاهمية والخطورة ،
مكان مرموق . قال الجانب الفرنسي : ان الانتداب لا ينتهي عن
لبنان الا بعد معاهدة مع فرنسا . وقال الجانب اللبناني : ان
الانتداب قد انتهى دون شرط ، وانا لا اريد ان اتقيد بمعاهدة .
وكانت تصاريح المراجع الانكليزية تارة مبينة ، وطوراً ملتوية .

ومن الصعب ان يفهم احد حقيقة تصاريح الساسة الانكليز .
واعرب الامير كيون ، والسوفيات ، عن وجهة نظرهم في استقلال
لبنان دون قيد او شرط . فكانت هناك محاولات لاقناع هذا
الجانب او ذاك ، وكل منها متمسك بوجهة نظره . واذا
كان لا بد من ايضاح هذا الامر ، فاقوله دون تحيز او غرض .

ان لبنان لا يريد الا الاستقلال الكامل والسيادة التامة .
وهو يريد ان يعيش مع جيرانه ، من الافطار العربية ، على اتم وفاق
وتفاهم ، دون ان يكون من وراء ذلك اي مساس باستقلاله .
وقد قبلت بذلك ، واعلنته مراراً وتكراراً الدول العربية كافة ،
اما من حيث علاقته مع الغرب ، فليس من الحكمة في شيء ان
تسوى هذه العلاقات قبل ان تنتهي الحرب ، وتسرح جيوشها من
الاراضي اللبنانية ، عندئذ ، وعندئذ فقط ، يصح وضع الاتفاقات
دون ضغط او اكراه .

لقد عتب الفرنسيون على اللبنانيين انهم تنكروا لهم يوم هوى
بهم القدر ونزلت عليهم النازلة . واتهموهم انهم يتقربون الى الانكليز
انتقاماً منهم . ولكنهم ساءحهم الله مخطئون ، فاللبناني لا يبيع
صداقة فرنسا ليشترى صداقة غيرها . ولبنان لا يريد ان يستبدل
بمستعمر مستعمر آخر . هذا ما يجب ان يفهمه الفرنسيون . وهم
على خطأ كبير اذا ظنوا ان لبنان يريد التخلص منهم ليأتي في
احضان غيرهم كأنناً من كثرت . فنحن الذين خبرنا الاستعمار ،
وتذوقنا مرارته منذ اجيال ، لا نرغب الا في ان نكون احراراً

واسياداً في بلادنا . انا هذا لا يعني اننا نناسب الغرب العداء . ونحن اقرب الناس الى مد يد التفاهم والمساعدة المتبادلة معه . ان مركزنا الجغرافي يتطلب ذلك ، وثقافتنا تسهل هذا التفاهم ، وصلاتنا القديمة والحديثة تربطنا بثقافته ومدنيته . ولكننا نريد ان لا يكون هناك اي اتفاق ينتقص من حقوقنا وسيادتنا . وقد كان لنا من التجارب الماضية دروس يجب ان نتعظ بها . ولهذا نرغب في ان يكون اي اتفاق يعقد معنا اتفاق الند للند ، ومثل هذا الاتفاق لا يكون كذلك اذا عقد في هذه الظروف الاستثنائية ، وكل اتفاق يعقد قبل ان تضع الحرب اوزارها ، سيكون نضيه الفشل المحتوم . ان العالم يتخبط في ديمجور من الظلام الخالك . والنور لا يأتي من الظلام . اذن لنتظر انيلاج الفجر لنستعين بنور النهار . ولعل الناظر الحكيم لا يفوته ان يلمح في لبنان ميولا ثلاثة يصبو اليها ، وهي :

- (١) انه يريد استقلالاً تاماً ناجزاً وسيادة وطنية كاملة .
- (٢) انه يريد التعاون والتفاهم مع الاقطار العربية المجاورة .
- (٣) انه يريد الا يكون بينه وبين الغرب قطيعة . وهو يرى في علاقته مع الغرب ضماناً لحياته ، شرط ان لا يكون في هذه العلاقة باب للاستعمار او الحماية او الانتداب .

هذا ما يريده لبنان ، وهذا ما يريد ان يكون اساساً لعلاقته مع دول الغرب كلها .

بروتوكول الاسكندرية

وفي هذه الاثناء ، تطورت الحالة السياسية في لبنان والاقطار العربية ، ورات هذه الاقطار ان تباعدها في الماضي كان سبباً لضعفها وتمكين سلطة الاستعمار عليها ، ورأى لبنان ايضاً ان اتجاهه الى الغرب ونفوره من الشرق اضعف منزلته في عين الاول ، وجعل الثاني ينظر اليه بقلق وحذر . فكانت النتيجة ان توطد فيه نفوذ السلطات الاجنبية الاستعمارية ، فالتحذت من هذا سبباً لاغراضها فيه ، وفيما جاوره من الاقطار . وكان ان ايقن لبنان ان مصيره معلق بمصير اخوانه واشقائه في هذا الشرق العربي ، فما ان رأى اتجاه البلدان العربية للتكتل ، حتى بادر الى الانحياز الى جانبها ، ومال الى الدخول في مصفها ، وعندما قامت الدعوة لمؤتمر يعقد في الاسكندرية تجتمع فيه حكومات سوريا والعراق ومصر والحجاز واليمن ، كان لبنان من الذين قبلوا الاشتراك به . واستقبلت هذه الاقطار لبنان استقبال الاخ لاخيه . فكان المؤتمر الذي اسفر عن عقد (بروتوكول) اطلق عليه اسم بروتوكول الاسكندرية . وخرج المؤتمر بفكرة « الجامعة العربية » مؤلفة من هذه البلدان . غايتها وضع اسس للتعاون بينها في الامور كلها ، مع حفظ وتأييد استقلال كل دولة منها . فالجامعة العربية عبارة عن عصبة من اقطار شقيقة تحترم كل منها استقلال اخواتها وسيادتها الكاملة ، متوخية التعاون الوثيق

فما بينها ، مستعدة لدفع اي ضم يلحق بواحدة منها . ولبنان ، الذي لا ينكر احد مزايه الثقافية وتقربه من المدينة العربية ، لا يستطيع احد ان يقعه عن الفكرة العربية . فلقته هي لغة العرب ، ومصالحه تماشي مصالحهم ، وجغرافيته تلامس جغرافيتهم ، وتاريخه متماسك مع تاريخهم ، وصلة القربى والرحم تقيم بينهم رابطة لا تنقسم . وما هذه الفروقات التي تباعد بينهم الا من صنع المستعمرين ، فلا المسيحية هي التي تجعل منه اجنبياً ، ولا الاسلام هو الذي يقلل من رغبته في التوسع في المدينة والثقافة التي اكتسبها من احتكاكه مع الغرب . ولبنان في مركزه ، وفي اتصاله بمدينة الغرب ، وفي محافظته على تقاليد وعاداته العربية ، يستطيع ان يكون ملتقى الحضارتين ، وبوسعه ان يتزعم حضارة جديدة ينشرها في هذا العالم العربي ، فيساعد على السير بهذه البقعة العزيزة الى استعادة ايجادها الغايمة .

ولكن بروتوكول الاسكندرية لم يرق لاولئك الذين يرغبون في ان يجعلوا من لبنان بلداً « متاجنباً » منعزلاً على نفسه ، متباعداً عن اي تعاون او تحالف مع الاقطار العربية . وكان المتنكرون لهذا البروتوكول فئتين . فئة ضئيلة تأتمر بامر السلطة الفرنسية ، وتسايرو رغباتها . والفرنسيون هالهم ان تتكامل الدول العربية ، وان يكون لبنان عضواً في هذا التكتل ، اذ انهم يرون في ذلك اخفاقاً لسياساتهم الاستعمارية في هذه الزاوية من الشرق ، القائمة على حقوق يدعونها في سوريا ولبنان ، وتقاليد موروثه هي حماية المسيحيين كما يقولون ، وصدقات قديمة اتخذوها سيلاً لبسط

سيطرتهم على هذه البلاد . اما الفئة الثانية ، فقد كان نفورها من بروتوكول الاسكندرية ، ناتجاً عن تخوفها من ان تسيطر على هذه الجامعة الفكرة الاسلامية ، فيصبح المسيحيون ، وهم اقلية في العالم العربي ، تحت رحمة المسلمين . وهذه الفئة السائرة الى تضائل مستمر هي من بقايا العناصر القديمة المسيحية التي لا تزال تذكر ايام كانت السياسة العثمانية متركزة على مساندة المسلمين واضطهاد المسيحيين . فكانت هذه الفئة تستعيد ذكرياتها السالفة . وفاتها الادراك ان تلك السياسة الدينية التي اتبعتها الدولة العثمانية ، ويتبعها الاستعمار ، ما كانت الا لايجاد التفرقة والشقاق بين ابناء الامة الواحدة ، لتتمكن المستعمر من بلوغ اهدافه وسيادته عليها . وبالرغم من ان اولئك المتخوفين يقرون بان هناك تطوراً جديداً ، ووعياً قومياً ملموساً ، غير ان بعضهم لا يزال يساوره القلق ، ويروده شيء من الحذر . واذا سألت عن افراد هذه الفئة فانك تجدهم ، والحمد لله ، بين الذين أسسوا في عصر الحياة او في عشتها ، يمشون الى مغادرة هذه الدنيا تاركين مصير البلاد ومقدراتها في ايدي ابناءهم الذين يرون غير رأيهم ، والذين يجاربون الجمود ، ويمشون التطور ، ويطمحون الى الخلافة .

وقد ايدت المراجع الرسمية كلها بروتوكول الاسكندرية ، كما ايدته اكثرية الهيئات الشعبية . وتمثل لبنان في اجتماعات المؤتمر بتدوينه الذين كان لهم الرأي الاول في وضع الاتفاقات والقوانين . وقد ايد جميع المؤتمرين نظريات المندوبين اللبنانيين ، واسمعوا صوتهما عالياً باحترامهم استقلال لبنان استقلالاً كاملاً ،

واستعدادهم للوقوف بجانبه اذا ما تصدى احد لسيادته وحقوقه .
 وظهر لبنان بوجهه الحقيقي اخاً عزيزاً في عملة الشعوب العربية .
 ولبنان الذي يعترف له الغريب والقريب بالتفوق الثقافي والعلمي
 والجغرافي والتاريخي : لبنان الذي لم يترك ابناءؤه بقعة من بقاع
 الدنيا الا جابوها ، واختلطوا بسكانها على مختلف اجناسهم واللوانهم ،
 وضربوا الرقم القياسي في نشاطهم ومغامراتهم . لبنان هذا لا يخشى
 ان يتضم الى كتلة من الاقطار العربية ، اذا جاز لنا ان ننظر الى
 مستقبلها فنقول ، دون تبجح او غرور وطني : انه سيكون للبنان
 فيها المركز الاول ، لما يعرف في اللبناني من ميل واستعداد
 للتفوق والتطور الثقافي والفكري والاقتصادي .

غير ان « البروتوكول » تحول فيما بعد الى « ميثاق » بعد ان
 تعدلت بعض النصوص التي ظن فيها البعض ، في لبنان ، وفي غير
 لبنان ، مساساً باستقلال هذه الاقطار . فلم يكن لبنان وحده
 سبباً لهذا التعديل . بل هناك العراق والمملكة السعودية . فاني
 الميثاق خالياً من بعض الضمانات الموجودة في البروتوكول . ولكن
 بالرغم مما وجه الى المؤتمرين ، الذين قاموا بتعديل البروتوكول
 من الانتقادات ، فان الميثاق ابقى على روح التفاهم والتقارب
 بين مختلف الاقطار العربية . وهذه خطوة مرموقة ومباركة
 يتخذها العرب اساساً لتنهضهم ومجاهتهم للتطورات العالمية
 الجديدة .

يقظة الرجعية الوطنية

لقد بقيت العلاقات اللبنانية الفرنسية والسورية الفرنسية بحالة مترجحة طوال مدة الحرب. وبات اللبنانيون ينتظرون انتهاء القتال في أوروبا ، على أمل ان يأتيهم نصر الحلفاء بالاستقرار المنشود . وظل الفرنسيون يجهدون قواهم لتثبيت نفوذهم وتقوية مركزهم في البلاد . واسرفوا في مخصصات الدعاية اسرافاً هائلاً . فقبل ان ميزانيتهم بلغت ملياري فرنك في السنة . وقال البعض ثلاثة مليارات . يوزعونها على الانتصار وعلى بعض الجرائد والمؤسسات . ولما كانت بروتوكولات التصفية التي وضعت بين السلطات الفرنسية والسلطات الوطنية ، قد ابقت للفرنسيين دائرة الامن العام للجيش ، فقد اتخذ اولئك منها سبيلاً للوصول الى غرضهم . فحشدوا في هذه الدائرة المئات من المتعishين ، يبعثونهم في مختلف الاوساط والمناطق ليشوا الدعاية لفرنسا . ومن المؤسف ان اولئك الدعاة المأجورين ما كانوا يتورعون عن بث روح التفرقة بين الناس بقصد تمزيق الصفوف ، واحداث القلق والبلبله . وبما يؤسفه اكثر واكثر، ان هذا النشاط كان متركزاً في الاوساط المسيحية ان في العاصمة او في الجبل . كانت النعمة واحدة ، وهي ان لبنان وطن قومي غير عربي . ينسب الى الفينيقيه والى شعوب البحر المتوسط المنقرضة . وان المسيحيين يجب ان يحذروا من

المسلمين ومن البلدان العربية . وان الذين يقولون بالتعاون العربي
ويحبذون ميثاق الجامعة العربية هم مباعون للعرب ، وان
المسيحيين لا حياة لهم في هذا البلد بدون حماية فرنسا . وان لبنان
يمتاز بثقافته عن الاقطار العربية . هذه الثقافة التي اكتسبها من
العرب ، ولا سيما من الثقافة الفرنسية . اذن عليه ان يحتفظ بصغته
الخاصة ولو آلت به الى العزلة .

وسط هذه الحالة المحلية القلقة ، اعلن الاقطاب الثلاثة الكبار :
« ستالين » و « تشرشل » و « ترومان » الذي حل في البيت الابيض
على اثر وفاة « روزفلت » تسليم المانيا وانتهاء الحرب الاوروبية .
فشمل الفرح جميع اقطار المعمور . واحتفل لبنان احتفالات
عظيمة . واعلنت حكومته دوام الاحتفالات مدة خمسة ايام . فما
كان من الفرنسيين الا ان اتخذوا من هذه الفرصة سبيلاً لدعائهم .
وكانت مظاهراتهم تحدياً واستفزازاً لشعور الوطنيين . اذ انهم
كانوا يسيرون سياراتهم الكبيرة محشوة من الصبيحة والرعاع
والمأجورين ، ينادون نداءات مختلفة ومثيرة ، هالك امثلة منها :
« نحن رجالك يا ده غول » « البلاد بلادك يا ده غول » وكانت
زيناتهم على بيوتهم ومؤسستهم تحمل الاعلام الفرنسية دون سواها ،
ولم يرتفع العلم اللبناني الا على الدور الرسمية فقط ، واذا رفع العلم
اللبناني فيكون رفعه بصورة مصغرة تطفئ عليه اعلام فرنسية
وديفولية . ولم تكن مظاهراتهم تحدياً للبنان فقط ، بل تعدتها الى
السلطة البريطانية بصورة خاصة . فكثيراً ما انزلوا العلم البريطاني
عن بيوت الوطنيين الذين ارادوا مجاملة الخلفاء برفعهم اعلامهم كلها

مع العلم اللبناني . ولم تخل هذه المظاهرات من حوادث مؤسفة كانت نتيجة لهذا التحدي، وقع اثناءها عدد من الجرحى، حتى اضطرت الحكومة ان توجه احتجاجاً او بالاحرى انذاراً الى السلطة الفرنسية . وقد كان موقف الحكومة موقفاً مشرفاً استحق عليه شكر الاوساط الوطنية . اما المظاهرات الفرنسية التي صرف عليها، على ما يقال ، خمسمائة الف ليرة بهذين اليومين فقط . فقد كانت جد سخيفة . حصة يجمعونهم من هنا ومن هناك . ومستخدمون يشتغلون في المؤسسات الفرنسية ينطلقون في السيارات ينادون نداءات مختلفة، كأن اولئك الصبية هم الذين يرفعون هذا الزعيم وينزلون ذاك . وقد اظهرت الجاليات الاجنبية كلها اشمزازها منها . وبالرغم من ان هذه كانت بقصد بليلة الصفوف غير ان الوعي اللبناني احبطها وباءت بفشل ذريع .

- ١٠ -

حوادث سوريا

وفي هذه الاثناء اعلن راديو باريس ان الجنرال « بينه »، المندوب الفرنسي، عائد الى مركزه بعد ان تلقى تعليمات رئيسه باجراء المفاوضات مع حكومتي سوريا ولبنان، على اساس استقلال البلدين مع المحافظة على حقوق فرنسا: الثقافية والاقتصادية والاستراتيجية . ومع ان المفاوضات تتطلب تهئة الجو السياسي، غير ان الفرنسيين ارادوا ان يجهموا الجو ملوحين بشيء من التهديد . فجلبوا

طابوراً من السنغاليين في هذه الاثناء، استقبلته البلاد بالاحتجاج، حتى ان الحكومة ابلغت احتجاجها الرسمي الى المندوب الفرنسي، والى الجيش البريطاني التاسع، والى المراجع الدولية كافة. وهاج نواب الامة في جلسة البرلمان. وصرح رئيس الحكومة عبد الحميد كرامه ان البلاد ترد على هذا التحدي الذي لن ينال منها مثلاً. وقال ان البلاد لن تجري اية مفاوضة تحت التهويل والتهديد. وهي لن تقبل بآية معاهدة، كما انها لن تعطي اي مركز ممتاز لفرنسا، معتمدة على حقها في الاستقلال وعلى اعتراف الدول كلها به. ثم قال بصراحة امتاز بها عبد الحميد كرامه: «ان لبنان يدافع ويضحي بكل غال وثمين عن حقه الذي تقره عليه مبادئ الحلفاء. واذا، لا سمح الله، رضي اولئك باي انتقاص بحقوق هذه البلاد المستقلة، فان اربعين مليوناً من العرب لا يتوانون لحظة عن نصره اخوانهم اللبنانيين.»

ولكن الفرنسيين الذين تعودوا ان يستهتروا بارادة اهل البلاد، واصلوا الطريق التي ساروا فيها. واستقدموا فرقة ثانية من الجيش في اليوم الثاني لوصول الجنرال بينه. وكان هذا قد تقدم بمشروعه الى الحكومتين. فتجهج الجو في لبنان وفي سوريا. ورفض المفاوضون اللبنانيون والسوريون الدخول في اية مفاوضة مع الجانب الفرنسي. وتظاهر البلدان. وحدثت بعض اعمال عدوانية من هذا الجانب ومن ذاك لم تخلُ من بعض العنف. وكان الفرنسيون وعملاتهم وابواقهم يلوحون بالتهويل والتهديد. وكان «ده غول» و«بيدو» وجميع المسؤولين الفرنسيين يدلون بالتصريح

تلو التصريح ، ان فرنسا لن تتنازل عن حقوقها في سوريا ولبنان .
فكانت السوريون واللبنانيون يردون بالمظاهرات وبالاضرابات
وبالاحتجاجات تُرفع لجميع الدول الحليفة . وكان من الطبيعي ان
تقع بضعة حوادث سببها الاول استفزاز الفرنسيين للشعور الوطني .
حتى كان يوم ٢٩ ايار سنة ١٩٤٥ فقام الفرنسيون بهجومهم على
دار البرلمان السوري ، فهدموه وبعثروا اوراقه ، وسرقوا المال
من خزائنه ، وقتلوا الدرك السوري الموكل اليه المحافظة عليه ،
عندما جرب اولئك الدركيون ، وعددهم اربعة وعشرون ، ان
يدافعوا عن البرلمان . حتى ان الذين سلموا من اولئك قطعهم ارباباً
ارباباً منزلين بهم فظائع لم يرو التاريخ لها مثيلاً .

وكان الهجوم على البرلمان كان علامة بدء المعركة . فحلقت
طائرة فرنسية في جو دمشق . واخذت تمطر بقنابلها الاحياء
الدمشقية ، بينما كانت بطارية البر تقصف المدينة قصفاً مرعباً .
فتهدمت شوارعها بأكملها . وتخربت بيوت على ساكنيها . وكان
افطع شيء ، ضرب القلعة ، محل السجن العام ، وحيث يسكن
المساجين . فقد تذرع الفرنسيون المتوحشون بوجود الدرك في
السجن فأخذوا يضربونه ، فقتل من اولئك المساكين المعزولين مائتاً
مسجون . وما ان فتحت ابواب السجن حتى كان قد وصل جيش
الاستعمار ، واخذ يعن ذبحاً وتقطيعاً بمن بقي منهم هناك . وحشية
ما توصل الى شيء مثله ، لا هتار ، ولا ميسوليني ، ولا جنكيزخان ،
ولا نيرون ، ولا احد طغاة التاريخ .

وبقي الفرنسيون يومي ٣٠ و ٣١ ايار يقومون باعمال «البطولة»

الهبيجة في دمشق . يدخلون البيوت ، والفنادق ، والمستشفيات
- نعم المستشفيات - فيلقون الذعر في المدنيين ، ويقتلون من يجرو
على مشاقتهم ، وينكلون بمن سولته نفسه الدفاع ، ويسلبون ما
وصلت اليه ايديهم من مال او مجوهرات . حتى انهم عندما دخلوا
فندق اوربان بالاس حيث ينزل كبار الناس ، ومزقوا اثاثه
ومحتوياته ، وخربوا ما استطاعوا ، وصلوا الى قاعة علق على
جدارها رسم لرئيس الجمهورية ، اخذ ضابطهم « البطل » مسدسه
وافرغ خمس رصاصات في الرسم . هؤلاء الفرنسيون الذين كانوا
اجبن الناس بتسليمهم فرنسا للغاصب الالماني ، والذين سيدكر لهم
التاريخ هزيمتهم الشعاء ورضوخهم للذل والاستعباد ، والذين ظلوا
طوال خمس سنوات تحت اقدام هتلر يعفرون وجوههم امامه وامام
عماله ، هؤلاء الفرنسيون رأوا في دمشق ، وفي حماه ، وفي حمص ،
وفي حلب ، مجالا لاطهار بطولتهم . ولماذا لا ، فهذه مدن آمنة
عزلاء يريدون ان يتخذوا منها سبيلا لاعادة شرفهم العسكري .
ولكن العالم يعرف ويقدر .

اما عدد ضحايا الوحشية الفرنسية في دمشق وباقي المدن السورية
فقد زاد عن الحسمائة قتيل ، والوف الجرحى ، والمصابين ،
والمسكوبين . ولو لم ترسل السلطة البريطانية انذارها الى الفرنسيين
في عشية ٣١ ايار لما دى اولئك في وحشيتهم ، ولتركوا البلاد السورية
كلها خراباً يباباً .

ولكن ، بعد ان عاد الهدوء بفضل التدابير البريطانية ، اخذ

الفرنسيون يشيرون انهم توقفوا عن القتال بناء على اوامره غول نفسه . وطلع ده غول بتصريحاته ، يبرر اعمال رجاله ويلقي اللوم على سياسة بريطانيا وجواسيسها ، ويردد نفحة الحقوق والمصالح التقليدية ، الى غير ذلك من الادعاءات الفارغة . كذب مقرون بوقاحة استقبلها العالم كله باستنكار واحتقار .

وبما يدل على نية الفرنسيين وتعمدهم الشر الكتاب الذي سقط في يد وزير خارجية سوريا . وهو موجه من مندوب فرنسا في الشام الجنرال « روجيه » وهو بطل العدوان الفرنسي ، يحرض فيه رجاله على الاستعداد والقتل والتدمير محافظة على مهابة بلاده وحقوقها . وقد كان لذلك المجرم « روجيه » حصة الاسد في تهديد المؤامرة الثانية . ولو لم تأخذه السلطة البريطانية تحت حمايتها بعد الحوادث وتسفّره الى بلاده ، لحاسبه السوريون على وحشيته . غير ان هذا الرجل السافل ما ان وصل الى عاصمة بلاده حتى اخذ يذبح ما يبرز اعماله . وكانت حكومته تحتاج على تدخل البريطانيين . نعم تحتاج اذ رأت ان تدخل الانكليز افسد عليهم خطتهم في تدمير مدن سوريا ، وقلب النظام الاستقلالي في سوريا وفي لبنان .

انه يصعب على كاتب ان يصف الايام الثلاثة من ٢٩ الى ٣١ ايار . واذا توقفنا عند هذا الحد فلكي لا يتهمنا احد بالتغرض ، ولنحيل القارئ الى ما كتبه المراسلون الاجانب وممثلو الدول الحليفة . ان في ذلك تبياناً للحقيقة المروعة وبجالاتها للمؤرخين .

الردة في لبنان

لقد كان من الطبيعي ان يغضب لبنان لهذا العدوان الفرنسي على شقيقته سوريا . فقامت في العاصمة وبقيّة المدن اللبنانية مظاهرات صاخبة . وعم الاضراب . ورفعت الاحتجاجات على تصرف الفرنسيين الشاذ الذي قصدوا به التعدي على استقلال البلدين، والذي ظهرت وحشيته في المدن السورية، وكادت تظهر في لبنان ايضاً ، لولا تدخل السلطات البريطانية بالامر وانذارها الفرنسيين بوقف اعمالهم البربرية ، ولولا استنكار الحكومات الاميركية والسوفياتية . وبالرغم من الهدوء النسبي في لبنان فقد قام اولو الشأن باتخاذ التدابير السريعة مع زملائهم السوريين لتسلم جميع المصالح التي كانت باقية بيد الفرنسيين . فكانت المحاورات تدور بينهم وبين السلطة الانكليزية التي قبضت على الامن العام . واسفرت عن ابعاد الموظفين الفرنسيين كافة من دوائر الدولتين . وانتزعوا من اولئك مصلحة « الميرة » التي كانت تشترك بالهيمنة عليها السلطة الفرنسية واساءت استعمالها اساءة مادية واساءة معنوية، وطلبوا جلاء الجيوش الفرنسية وقطع كل صلة للسلطان الفرنسي في البلاد. وقد كانت حماسة الشعب كبيرة. فتقدم الوف منه للتطوع في الجيش الوطني عندما دعت الحكومة للتطوع . ورأينا النقد والسخط يتجلى على الفرنسيين ورجالهم المسؤولين الذين ظلوا يوالون

تصريحاتهم وادعاءاتهم بالحقوق والمصالح والتقاليد والصدقة . موجة
من الكراهية كانت كامنة فبرزتها اعمال واجراءات رجال فرنسا
الذين طوح بهم الغرور ، فظنوا ان بوسعهم التنكيل بشعب آمن
اغزل من السلاح . الا سلاح الحق ، غير آهين للمبادئ التي حاربت
من اجلها الدول الديموقراطية ، ومتجاهلين وجود الجامعة العربية ،
التي هالها ما وصلت اليه حالة لبنان وسوريا ، فعقدت اجتماعاً خاصاً
اتخذت فيه مقررات هامة ، من شأنها نصرة هذين العضوين الحبيين
بكل ما يحوّلها اياه ميثاق الجامعة الذي لم يحف حبره بعد . وقد
كان لموقف الجامعة اثره الفعال في المحافل الدولية . ولما كان مؤتمر
سان فرانسيسكو منعقدًا في اثناء الازمة قام وفدا لبنان وسوريا
بإبلاغ الامم المتحدة موقف بلديهما ، وساندتهم جميع الوفود العربية ،
فلقوا في المؤتمر موجة استنكار واستياء من عمل فرنسا الاستعماري .
وكانت اذاعات العالم كلها تذيع تفاصيل الازمة ، كما كانت الصحف
تخصص صفحاتها الاولى لمعالجتها ونقد اعمال المعتدين .

وبينا كانت الحكومتان اللبنانية والسورية تطالب بإبعاد
الفرنسيين ، وتتسلم منهم المصالح التي كانوا يحتفظون بها ، كانت
التأكيدات تتوالى على الحكومتين من الحكومة البريطانية انها
مستعدة هي ايضاً لسحب جيوشها من لبنان وسوريا عقب انتهاء
الحرب ، واستتباب الامن الذي اصبحت مسؤوليته على الحكومتين .
فبرهنت بذلك مرة اخرى انها لا تنوي زحزحة الفرنسيين لتحل
هي مكانهم . وكانت تعهداتها المتتالية تصادف الرضا والطمانية
عند اللبنانيين والسوريين ، الذين اظهروا في شتى المناسبات انهم لا

١٢١
يقبلون باي تدخل اجنبي من اية جهة كانت .

- ١٢ -

تسليم الجيش

ظلت الازمة بين لبنان وسوريا من جهة وفرنسا من جهة ثانية على شدتها . وكانت قطيعة تامة بين الطرفين . وقد تخللت هذه الفترة حوادث دامية ، تارة في حلب ، وتارة في اللاذقية ، وفي تل كلخ ، وفي المناطق المنفردة . وكانت في هذه الاثناء مسألة سوريا ولبنان موضوعاً لتعليقات الصحف الاجنبية والوطنية واهتمام كل الاوساط الدولية . غير ان الحكومتين اللبنانية والسورية بقيتا في تشبهما على ان لا مفاوضة قبل جلاء الجيوش الفرنسية وتسليم الجيوش الخاصة وابعاد كل نفوذ فرنسي . وكان الشعبان اللبناني والسوري يظهران تأييدهما المطلق لموقف حكومتهما . وكانت قرارات الجامعة العربية قاطعة حاسمة في نصرتها للدولتين .

وقد توالى اجتماعات رجال الحكومتين . ولم تتغير وجهة نظرهما ، كما انه لم يبد اي اختلاف بينهما . وفي اجتماع عقد في الاسبوع الاول من تموز وضعنا مذكرتين بنص واحد لتسليمهما للحكومة الفرنسية ، تطلبان فيها جلاء الجيوش الفرنسية وتسليم جميع المصالح العسكرية والاقتصادية ، بمحددتين الاجل الذي تنتهي فيه مدة الانتظار ، حتى اذا تخلف الجانب الفرنسي عن اجابة المطالب عاد الامر الى مقررات الجامعة العربية . هذه المقررات التي بقي

قسم منها سرياً . غير انه كان مفهوماً ان تلك المقررات كانت على جانب عظيم من الخطورة ، اذ تقضي باتخاذ تدابير عدائية من قبل الدول العربية تجاه فرنسا . ولكن ما ان عرف الجانب الفرنسي بهاتين المذكرتين حتى هاله امرهما . فقام الكونت استوروخ ، السكرتير العام للمندوبية الفرنسية ، وكان قد عاد من باريس ، فقدم بمقترحات فرنسية جديدة . غير ان الحكومتين رفضتا كل محاولة رسمية ، مكتفيتين بمحادثات شفوية خاصة كانت تجري خارج الدوائر الرسمية . واذ عرف الجانب الفرنسي بهذه القطيعة بادر من تلقاء نفسه الى اصدار بيان رسمي اعلن فيه انتقال الجيوش الخاصة بجميع معادتها الى حكومتي سوريا ولبنان . وكان ذلك بتاريخ ٨ تموز سنة ١٩٤٥ .

لقد قصد الجانب الفرنسي بذلك ان يدلل على حسن نيته لعله يفتح من جديد باب المفاوضة . ولكن الحكومتين الوطنيتين لم تؤخذا بهذه اللعبة ، اذ ان قطعات هذه الجيوش كانت تتنقل من نفسها ، حتى انه عندما ظهرت هذه البادرة من الفرنسيين كان اكثر من نصف هذه القطعات قد ترك مختاراً الجانب الفرنسي . ولهذا اعتبرت الحكومتان ان تنازل فرنسا عن هذه الجيوش وتسليمها لاهلها لا يشكلان ظاهرة كافية للمفاوضة . واصرنا على جلاء الجيوش الفرنسية كلها وتسليم المصالح كافة والتراجع عن اي مطلب او امتياز لفرنسا في لبنان وسوريا .

وكان هذا بدء عهد جديد خضعت فيه فرنسا للامر الواقع .

فبدأت في تسليم الصلاحيات . وكان اولها الجيش اللبناني السوري .
فانتقل هذا الى اصحابه الشرعيين . وقد جاء تسلم الجيش فوزاً
مينياً استقبلته البلاد بالغبطة والارتياح . واستقبل الشعبان اللبناني
والسوري ابناءهما البررة بالحفاوة ، كيف لا والجيش الوطني هو
سياج الاستقلال وسيفه القاطع ؟

- ١٣ -

الجللاء . الجللاء .

بقي الاخذ والرد بين اللبنانيين والسوريين من جهة والفرنسيين
من جهة ثانية حول مسألة جللاء الجيوش الفرنسية . وبقي الفرنسيون
متشبثين بنظريات مختلفة ، ولكنها واهية ، لابقاء جيوشهم في
البلدين . وكانت الحكومة الفرنسية ، وعلى رأسها الجنرال دهغول ،
تفرط بالتصريحات عن مهمتها الثقافية والمدنية في الشرق .
والجنرال دهغول ، الرجل الاستعماري ، لا يستطيع ان يفهم كيف
ان ما يسميه المشرق ، سيتحرر من قبضة فرنسا ، وكانت قضية
الجللاء اهم ما يشغل بال لبنان وشقيقته سوريا ، اذ ادركت الدولتان
ان لا راحة لهما ما دام هناك جيش فرنسي يهدد استقلالهما في كل
حين . وفي هذه الاثناء كانت السياسة البريطانية تحاول الماطلة
بالامر الى ان تصل الى تسوية ترضي هذا الفريق وذاك ، ويكون لها
من وراء ذلك ما ترغب . وبما يؤسف له ان الادارة الداخلية كانت
على كثير من الفوضى والبلبلة . وكانت الحكومات تذهب وتجيء ،

دون ان تتمكن من وضع حد للخلل المستحكم . خلل وراثته من العهد السابق ، وبقينا محفظين به في هذا العهد . وكيف لا يكون ذلك ، واكثر رجال اليوم هم انفسهم رجال الامس . كل ما يعرفون من الحكم توظيف زيد وترقية عمرو ، وارضاء هذا الرئيس واسترضاء ذاك المتزعم ، ثم اشباع شهوات النفعيين والمستثمرين . ولولا بقطة الوعي القومي ، لحابت آمال الوطنيين المخلصين . لله در هذا الشعب الناشئ ، الذي ما خرج يوماً عن ايمانه بحقه ، بالرغم مما كان يراه من استهتار قاداته وحكامه .

وقبل ان ينتهي عام ١٩٤٥ طلع علينا الاتفاق البريطاني الفرنسي الذي طبخه رجال الدولتين في لندن ، بمعزل عن لبنان وسوريا : هذا الاتفاق الذي جاء معاهدة بين الدولتين الفرنسية والانكليزية تضمنان بواسطته مصالحهما وراء ملاسات سياسية فيها كثير من التحدي لسيادتنا واستقلالنا . ولكن هذا الاتفاق الذي هلت له الحكومتان اعتباطاً في بادى الامر ، احدث هزة عنيفة في الاوساط الوطنية . فتوالى الاحتجاجات ، وتنادى الناس للاضراب ، وعم الاستنكار ، بما اثار يقظة الحكومتين ، فبادرتا الى الاستفسار ، ثم الى الاحتجاج . وما ان عقدت منظمة الامم المتحدة اجتماعها الثاني في لندن حتى قام الوفدان اللبناني والسوري بعرض الامر على مجلسها . وكان في ذلك الاثناء ان انقلبت الحكومة الفرنسية ، واعتزل الجنرال دغول رئاسة الحكومة ، وتسلمت الحكم احزاب الشمال . واحزاب الشمال اقرب الى تفهم القضية اللبنانية السورية ، واكثر ادراكاً للتطور العالمي الجديد . توفيق

جديد من توفيقات لبنان وسوريا يتغلبان بواسطته على ما يعترضهما
من المضاعب .

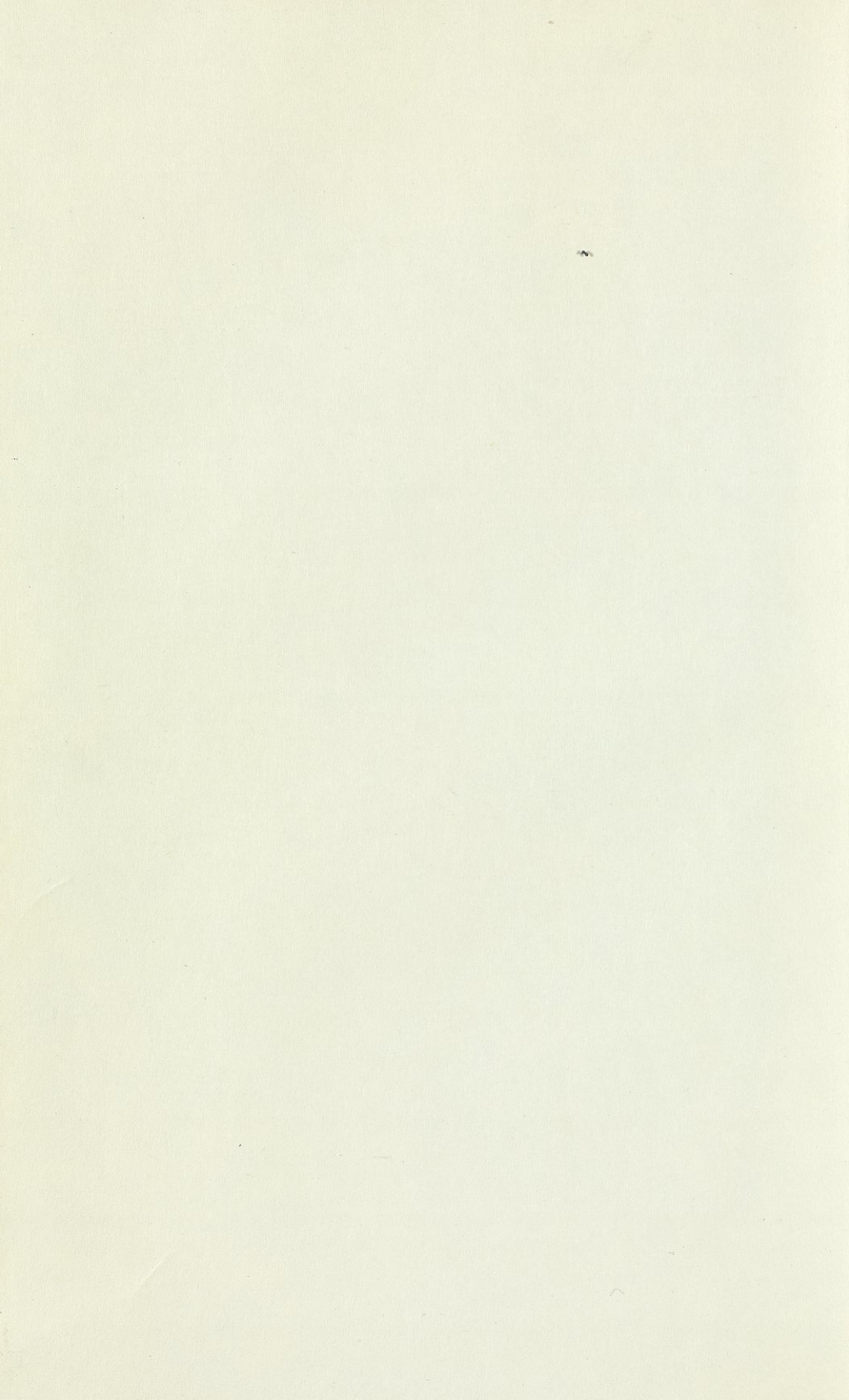
* * *

وفي الوقت الذي نسلم فيه هذا الكتاب للطبع تردنا التأكيدات
ان الجيوش الاجنبية لن تلبث ان تغادرنا في وقت قريب، ويتوالى
تسليم بقية المصالح التي احتفظ بها الفرنسيون طوال مدة
الانتداب واساؤوا استعمالها، فكانت اساءتهم سبباً لنفور الوطنيين
وحزبانهم من ولاء الذين كانت عليهم ان يبادلوهم ولاء بولاء،
واخلاصاً باخلاص . ولكن للاقدار احكاماً مكتوبة تفشل امامها
مشوهات الحقيقة ومحاولات الفساد .

انتهى

طبع في مطبعة دار الفنون * بيروت

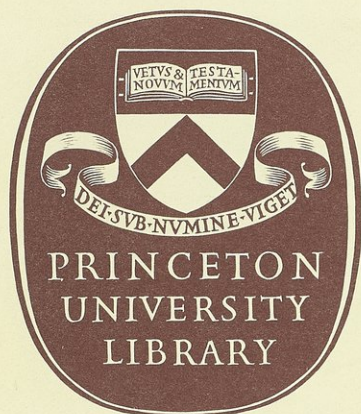
d
e





*Restored through
a grant from*

The Cartwright Foundation



Princeton University Library



32101 072540485